صبـــــرا

(رواية)

بسم الله الرحمن الرحيم

أشخاص هذه الرواية وأحداثها متخيلة

لا تمثل أحداً ولا تشير إلى أحد

القدس عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٩

سعيد شهاب

صبرا

(روايـــــة)

دار النخاش

صبرا (رواية)
تأليف: سعيد شهاب
© جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى: 1430هـ ـ 2009م
ISBN 978 - 9953 - 18 - 467 - 8

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية
شهاب، سعيد
صبرا
٣٦٠ص، ١٤×٢٠ سم
ردمك: ٩ ـ ٠٨٥٩ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨
١ ـ القصص العربية ـ السعودية
أ. العنوان
ديوي: ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٩/٣٨٩٥
رقم الإيداع: ١٤٢٩/٣٨٩٥
ردمك: ٩ ـ ٠٨٥٩ ـ ٠٠ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

نشر | Publisher

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 803152 ـ 009611810194
بيروت ـ لبنان

DAR AN-NAFAES
Printing-Publishing-distribution
Verdun Str - Safiedine bldg.
P.o.Box 14-5152
Zip code 1105-2020
Fax: 009611 861367
Tel: 00961 1 803152 - 810194.
Beirut - Lebanon

Email: alnafaes@yahoo.com
Web Site: WWW.alnafaes.com

الإهـــداء

ما زلت أشعر بأنفاسكَ وبروحك الطيبة تصحبني أينما توجهت، إليكَ وحدكَ في ذكرى غيابك.

سعيد

على بساط العشب الأخضر النديِّ تحت ظل شجرتنا الوارف كتبت خاطرتي على غلاف دفترها المزخرف.

قالت: ـ ماذا تكتب؟.

قلت: ـ كلمات للذكرى.

قالت كأنما تقرأ في لوح الأفق: ـ يكتب للذكرى من يهم بالنسيان.

ها أنا بعد الطوفان بزمن، قابعٌ بين ذكرياتي كلما حاولت الخروج من نفق الوهم اجتاحتني عاصفة الذكرى فاقتلعتني بعيداً عما كنت أحسبها أرض ميعادي، أعرف أني لن أتمكن من العيش السوي والمضي إلى المستقبل ما لم أتجاوز الماضي بكل تفاصيله وجراحه وما لم أنظر في ذاكرتي من دون ألم ودموع، لذا أحاول الكتابة..

لم يقع أمرٌ استثنائي يغير مسار الأحداث لتبدأ قصتنا مع القدر، بدا كل شيء طبيعي كما خُطط له، إدارة البريد تبتعث بعض أبنائها في دورةٍ تدريبية لدراسة النظام الجديد الذي ستستورده من فرنسا.

مهارة ناجي الوظيفية جعلته مرشحاً طبيعياً للبعثة ألحقتني به تزكية المدير المباشر وما ادعيت من معرفتي باللغة الفرنسية التي كانت تخصصي المساعد في الجامعة رغم أني نسيت أكثرها، أما راشد فقدمته الواسطة!.

كنت مغتبطاً بالسفر ومؤمناً بالفكرة التي تقول سافر إذا استولت عليك الهموم وحاصرك اليأس فالأسفار أدعى لحدوث المعجزات.

قد تصادف الحب الذي يخرجك من دوامة الضجر والأفكار المتشابهة المملة التي تعيشها كل يوم ويغير حياتك إلى الأبد، لا تجهد نفسك بالبحث عنه فهو سيعثر بك على حين غرة حين يحكم القدر.

فرحت بالبعثة لأن زواجي صار سجناً يضيق عليَّ ويخنقني حتى أوشك على الانهيار، ربما أملت في قلبي أن أصادف هناك ما يريح نفسي المتعبة.

فرنسا الفن والحضارة التي حلمت بزيارتها طويلاً أيام الجامعة وبعد الجامعة، كيف لا أغتبط وهي سياحة مدفوعة التكاليف وسفرٌ لا يحتاج عند الوالد أو الزوجة الغاضبة إلى تبرير.

* * *

يخرج الناس من بوابة القادمين فتتحرك إليهم سيارات الأجرة في تتابع سلس لم يتكدر هدوؤه، حتى تجاهل أحد السائقين الراكب الذي كان يقف ماثلاً أمامنا واتجه نحونا، لا بد أنه ظن أن حقائبنا ملأى بالنقود من ثمن البترول!.

رفضنا عرضه وأصررنا على تقديم الأفريقي الذي كان يسخط ويسب بلغة عاليةٍ غير مفهومة، وأخذنا التاكسي التالي الذي تقوده سيدة بيضاء.

جلست بين صاحبيَّ أتأمل المناظر على طول الطريق، وفي الكرسي الأمامي يربض جروٌ أبيض يطل علينا بين الفينة والأخرى من بين المقعدين، يتأملنا بعينيه الصغيرتين ونظراته المتثاقلة، يميل برأسه ويتثاءب بين الحين والآخر كمن يغرينا بالنوم. كان مقلداً بقلادةٍ مطرزة من الجلد الأحمر تتدلى منها ميداليةٌ فضية، يضرب بأذنيه الطويلتين على وجنتيه، أما السيدة فترمقنا عبر المرآة وتثرثر بإنجليزيةٍ مكسرة، أتذكر من حديثها أنها هاجرت من يوغسلافيا بسبب الحرب

والفقر وأنها تحن إلى وطنها الذي مزقه الأعداء بأيدي أبنائه.

كان التعب والإرهاق باديان على ملامحها حين التفتت نصف التفاتة وهي تجمع قبضتها وتتحدث عن أعداء وطنها.

قال راشد وقد تغير صوته من أثر النعاس: ـ المرأةُ في مثل سنها سيدةٌ مصونة وأم موقرة عندنا، ترى أين أبناؤها ليحملوا عنها العناء؟ أم تراهم لا يستثمرون في أبنائهم؟، أم ليس لها أبناء!؟.

فكرت في كلامه وظننت أني سوف أؤيده فالتفت إلى ناجي وقلت: ـ صحيح!، لكني وجدته يغط في نوم عميق.

وصلنا إلى الفندق حوالي الخامسة صباحاً، الشوارع خاليةٌ إلّا من بعض العائدين من سهرة آخر الاسبوع تتخلل أحاديثهم سماء الشارع الفسيح وتمزق ضحكاتهم هدوءه، الجو باردٌ في أوائل الربيع ورذاذ المطر المنعش الخفيف يداعب وجوهنا.

وجدنا غرفنا جاهزةً في الطابق السادس إلى جانب بعضها مثلما أردنا، وكان تعب الرحلة قد أخذ منا ما أخذ فلم نعد نفكر بشيء سوى النوم.

لم أستوعب التغيير لأول وهلة حين أفقت بعدما استبد بنا النوم إلى آخر النهار، نظرت عبر النافذة إلى الشارع المزدحم بالمارة المتعاقبين في اتجاهات مختلفة، يسرع بعضهم كمن يحاول اللحاق بالقطار ويتباطأ بعضهم كأنما ينتظرون لاحقاً يلحق بهم ويتفحص آخرون واجهات المحلات، يميلون برؤوسهم ويشيرون بأيديهم، وفي الجهة المقابلة مقهى فرنسي تقليدي بكراسيه البيضاء ومظلاته الحمراء، وكان هو الآخر مزدحماً.

قلت في نفسي وأنا أتأمل المشهد: ساختار مكاني من هنا. ورحت أفاضل بين الطاولات التي تغطي المظلة الحمراء بعضها، أحب هذا النمط من المقاهي.

نزلنا لنأخذ نظرتنا الأولى على مرافق الفندق ومن ثم إلى الخارج بعدما استقر رأينا على الغداء المتأخر في الطريق.

عبرنا شارع فرانسوا الأول إلى ساحة النجمة ثم إلى الشانزليزيه مقصد السائحين الجدد من أمثالنا.

التسكع بين تلك المعالم متعة لا يشعر بها إلا من حلم طويلاً بزيارة المكان وها هو يزوره اليوم لأول مرة، يهيمن على فكره ما كان يقرأه من مقالات وقصص الإعجاب والثناء.

وللحقيقة فقد وجدت للمدينة سحراً وجاذبيةً أكثر مما توقعت، ثمة شبهٌ ـ على ما أعتقد ـ بين النساء وبين المدن، فعندما تقابل المدينة الفاتنة ستصاب بالرهبة والانبهار تماماً مثلما يحدث لك عندما تقابل المرأة الفاتنة.

كنت وأصحابي نشبه من خرجوا لتوِّهم إلى الحياة، ننظر في كل اتجاه ونتعجب من كل شيء، حكاياتنا ونكاتنا حاضرة متواصلة، نشعر أننا أحرار نكاد نطير من الأرض وإن لم نفعل بعد شيئاً لا نفعله في بلادنا، لكنها نشوة التجربة الجديدة أو ربما سيطرة الفكرة، وانطباعنا المسبق أنه مكان للرفاهية والفرح، فعادةً ما نضفي جواً من الحزن أو من الفرح فقط لأننا نظنه أنسب للزمان أو للمكان.

مشينا نزولاً حتى ساحة الكنكورد حيث توقفنا نتأمل المسلة ونستمع إلى ألحان عازف البوق النحيل الذي ربط شعره الطويل خلف رأسه وأطلق لحيته الشقراء، بملابسه الرثة ومظهره المزري، وقد استقبل المسلة رافعاً جبينه كأنما يعزف من أجلها وفرش منديله لفرنكات المستمعين، كان يعزف لحناً ثقيلاً يميل إلى الحزن!، ألا بُدَّ أن يقترن الفن والإبداع بالفقر والفوضى أم إنَّ للفنانين ترتيباً آخر لا نفهمه.

غادرنا المكان عائدين باتجاه القوس نتجاذب أطراف الحديث

ونتبادل الأماكن على طريق المشاة بين أفواج السياح، حتى لفت انتباهنا تجمع من المارة إلى يمين الرصيف على مقربة من الأشجار، اتجهنا بدافع الفضول مسرعين من دون أن نتشاور، كان الحشد ملتفاً حول تمثال من الجبس الأبيض، لا لم يكن تمثالاً، كان الرجل يقوم بدور التمثال، شدني المنظر كثيراً، لا أدري ما تأثيره بالضبط لكنه أطلق خيالي وحرك مشاعري تلك الساعة أكثر من أي فيلمٍ شاهدت أو قصيدةٍ سمعت.

اقتربت متخللاً حشد المتفرجين حتى وقفت على الحبل الذي أداره حول المكان ورحت أتأمل.

طلى جسده باللون الأبيض ووقف على منبرٍ أبيض متسربلاً وشاحاً أبيض طواه من فوق رأسه ولفَّ طرفية حول جسمه النحيل رافعاً رأسه كمن ينظر إلى الأفق عبر جفنين مطبقين، تغضن جبينه وبرز أعلى وجنتيه اللامعتين تحت الشمس وغار صدغاه إلى أن ينتهيا إلى حنك عريض يحمل وجهه المستطيل ماداً يديه النحيلتين وقد بدت عروقهما، كأنما يعاتب أو يتوسل.

نسيت أصحابي وسرحت متأملاً المشهد ومتسرباً مع سكونه المطلق، فلو ناديتني حينئذٍ ما سمعت.

يخاطب الفن أرواحنا وخيالاتنا، قد لا نفهمه أو لا نحلل رموزه لكننا نشعر بتأثيره ونتفاعل مع إيحاءاته.

بلَّغ الرجل التمثال رسالته وقلب مزاج كل من مر به أو رآه بذات العين التي رأيته بها.

واصلنا السير وقد أخذت أحاديثنا منحىً جدِّياً واعتدلت خطواتنا على الطريق.

خامرنا شعورٌ بالإعجاب وكان تأثيره على نفوسنا عميقاً وقاتماً وإن لم يكن محدداً ولعل ذلك ما أراد!.

عدنا إلى الفندق حوالي العاشرة مساءً، وبدافع التعب من مشي اليوم الأول قررنا تمضية السهرة في صالة الفندق الداخلية حيث تعزف فرقة الجاز التي رأيناها ساعة رجوعنا.

اتصل ناجي بالسيد طوني منسق دراستنا، الذي سيحضر ليتعرف إلينا ويستلم أوراق بعثتنا.

ما إن أخذنا أماكننا حتى بادرنا الجرسون: ـ بماذا أخدمكم أيها السادة؟.

قلت: ـ قهوة خفيفة من فضلك.

قال ناجي: ـ بود وايزر.

قال راشد، من دون أن يرفع نظره عن الطاولة: ـ قهوة. ثم أردف بعد صمت تخللته موازنة المقاعد باتجاه العازفين: ـ ناجي ألم تذكر أنك أقلعت!.

قال ناجي ضاحكاً وهو يدير نظره عبر الصالة: ـ بلى. لكن هذا المكان يغري بالشراب.

قال راشد: ـ تتعلق المسألة بقناعتك وليس بالمكان أو الزمان.

قال ناجي: ـ ألا تعتقد أن للمكان تأثيره وإغواءه؟.

قال راشد: ـ لا أدري؟ لكن لم أكن أظن أنك ستعود بهذه السهولة.

لزمت الصمت مكتفياً بالاستماع إلى الألحان الجميلة التي تعزفها الفرقة. كانت موسيقاهم جميلة ومتناسقة وكانوا يعودون إلى نفس أماكنهم بعد كل استراحة.

لم يمض وقت طويل قبل أن يحضر السيد طوني، اتجه إلينا مباشرةً تسبقه ابتسامة مرسومة، أظنه عرف أشكالنا من الصور التي أرسلت ضمن ملفاتنا قبل أيام.

بدا الرجل لطيفاً مهذباً وهو يسألنا عن الرحلة وعن الفندق،

ويطمئن إلى أحوالنا بعدما سلمنا بطاقات الانتساب وأخبرنا نبذة عن المعهد.

تحول الحديث بعدها إلى ما يشبه التعارف، وكان واضحاً أن نوعاً من الصداقةِ قد ينشأ بيننا وبين الرجل.

وعد أن يمر بنا عند التاسعة صباحاً ليصحبنا في يومنا الأول ويعلمنا كيف نستخدم الميترو.

أوقع راشد حقيبة يد إحدى الفتاتين اللتين كانتا تجلسان على الطاولة المجاورة حين عدنا من وداع طوني عند الباب، وكانت معلقةً على ظهر الكرسي فالتقطها ناجي من الأرض وقدمها مع الاعتذار.

استدرجت الملاطفة حديثاً ما لبث أن تطور إلى ما يشبه التعارف. فتاة أمريكية في أواسط العقد الثالث من عمرها ذات عينين زرقاوين صغيرتين تميط شعرها الأشقر المسترسل عن وجهها بين فينةٍ وأخرى بحركةٍ مغرية لا سيما حين تصحبها بابتسامة، فرح بها صاحبنا وراح يتحدث معها ويقص لها عن أيام دراسته في أمريكا..

قضيت الوقت مشتتاً بينها وبين الفرقة حتى غلبني النعاس فقمت وتركت المكان لشابٍ عاد لمنادمة الشراب ووجد من يسلي ليلته، وآخر مستيقظ الحواس يراهن على أحد العازفين تارةً أنه رجل وتارةً أنها امرأة في محيط يسامره الليلة ربما لأول مرة!.

استلقيت على السرير وسرَّحت خيالي بين الصور التي مررنا بها اليوم، لم نتعود كل هذا التنوع في بيئتنا، صاحبة التاكسي وجروها الأبيض المدلل، عازف البوق ولحنه الثقيل، ناجي والفتاة تبتسم وتميط شعرها الذهبي عن وجهها، طوني ونصائحه حول المعيشة في باريس، ويقفز الرجل التمثال إلى الصوره فيربك خيالي وأعود لتأمله من جديد، ترى ماذا يقول وإلام يرمز!؟.

أتخلص منه لأعود متسللاً إلى مشهد أولادي لحظة الوداع، آه ما

أحبهم إلى قلبي، أسرح مع ذكرياتهم، ضحكاتهم، ألعابهم، خطى عمر المتعثرة. وترتبك الصورة مرةً أخرى حين أتذكر نهلة تعاتبني على قلة المصروف الذي تركت لهم، تنقلت بين الصور والخيالات حتى استسلمت للنوم.

أفقت باكراً ووقفت على النافذة أتأمل الشارع المبلل وما تزال قطرات المطر على زجاج نافذتي، الهواء بارد والحركة تدب على أولها في شوارع باريس، غير بعيد تنتصب بناية كونكورد لافاييت الشاهقة يغيب أعلاها في السحاب، يبدو ضوء العلامة الحمراء تارة ويغيب تارة في مشهدٍ بديع.

نزلت إلى البهو الفسيح المؤثث بأرائك الجلد على شكل مربعات، تتوسط كل واحدٍ منها طاولةٌ من الزجاج السميك تقوم على أربع قوائم من النحاس الأصفر المصقول، وقد وزعت النباتات الداخلية بعناية بين تلك المجموعات.

تستقبلك رائحة القهوة المنعشة والخبز المحمص كل صباح من بوفيه الإفطار الذي لا يفصله عن البهو سوى ألواح الأرابيسك المزخرفة.

ما إن شارفت الساعة على التاسعة حتى حضر السيد طوني ومضى بنا بعد فنجان القهوة المستعجل عبر محطة الميترو المجاورة يشرح طريق الوصول إلى المعهد وكيفية الاستفادة من خدمات الميترو، ومع أن الأمر واضح وسهل إلّا أنه ظل يشرح ويعيد، يؤدي عمله بطريقةٍ دقيقة ويدون ملاحظاته ليضمن ألّا يحدث التباس.

قضينا يومنا الأول في المعهد أشبه بالزوار، تجولوا بنا على مختلف أقسامه، تعرفنا على مسؤوليه وشاهدنا أرشيفه وتاريخه المصور.

تجاوز عمر معهدنا مائة عام وما يزال يخدم ويطور أنظمة البريد عبر العالم، ورغم مبناه القديم المتواضع إلّا أنه ضمَّ نخبةً من خبراء

المهنة تدعمهم قواعد بيانات متكاملة وأنظمةٌ إلكترونيةٌ متطورة.

أمضينا الأيام الأولى في دراسة الأنظمة الحديثة للفرز والتوزيع مع مجموعةٍ من الزملاء اللطفاء، وطاقم التدريس المحترف الذي عاملنا بعدالةٍ واحترام، وإن كان أكثرهم يتحاشى الاختلاط بمجموعة الدارسين من العالم الثالث خارج فصول الدراسة، أو هكذا بدا الأمر لنا.

نزلت صباح السبت التالي بينما الأصحاب نائمون وجلست على أول أريكة تستقبل الباب، جلت بنظري في البهو، وكانت نوبة الموظفين الصباحية قد بدأت لتوها، مجموعةٌ من الفتيات يتنقلن بخفة الفراشات، يوزعن ابتسامات الصباح وتمتزج عطورهن الخفيفة برائحة القهوة وأحاديث الناس في الصالة الفسيحة تتخللها بعض الأصوات العربية التي أنست لسماعها.

كانت سيدةٌ في العقد الخامس أو السادس من عمرها ذات ملامح عربية تجلس على الأريكة المقابلة تقرأ جريدة الحياة، تذكرت الجريدة وأحببت أن أشتري واحدة لكن لا أدري من أين، فليس ثمة كشكٌ قريب كالذي رأيناه في الشانزليزيه.

أردت أن أسألها لكنها لم تكن ترفع رأسها، خطر ببالي أن أستعير الصحيفة الأخرى الملقاة على الطاولة، ترددت وقلت في نفسي: ـ قد لا يروقها أن أفعل.

أماطت الجريدة أخيراً من أمام وجهها ومررت نظرها فتجاوزتني، من دون أن تتوقف، بعينين سوداوين حادتين من خلف نظارة القراءة.

تجاسرت: ـ عفواً سيدتي.

قالت: ـ نعم. وابتسمت.

قلت: ـ من أين يمكنني أن أشتري الجريدة؟.

قالت: ـ من المكتبة هناك.

وأشارت إلى ما خلف البوفيه، ثم أكملت وهي تنزع نظارتها: ـ أنت من الخليج؟.

قلت: ـ نعم.

قالت بلهجةٍ ودودة: ـ أهلاً وسهلاً، يمكنك أن تستعير هذه إن أحببت. وأشارت إلى الصحيفة الملقاة على طاولة الزجاج أمامها.

قلت: ـ شكراً سيدتي، سأشتري واحدة لأني أحب الاحتفاظ بها طوال اليوم.

ذهبت إلى المكتبة فوجدت الجرائد العربية التي أقرأها قد نفدت، فعدت متسائلاً كيف تنفد بهذه السرعة؟.

بادرتني متسائلة: ـ ألم تجد المكتبة؟.

قلت ضاحكاً: ـ وجدتها لكن لم أجد الجريدة.

قالت: ـ آه، العرب هنا كثيرون، عليك أن تشتريها باكراً أو تطلبها من الاستقبال.

قلت: ـ ليس مهمّاً، نشتريها من الطريق.

قالت: ـ أعيد العرض الذي عرضت عليك قبل قليل.

أجبتها بنفس الابتسامة: ـ أظنني سأقبل.

قالت، بينما أطالع عناوين الصفحة الأولى: ـ أنت سائح؟.

قلت: ـ لا يا سيدتي، أنا طالب مبتعث.

قالت: ـ يستأجرون لكم فنادق فخمة. تضحك وتجيل نظرها في الصالة.

قلت: ـ كما ترين، وأنتِ؟.

قالت: ـ من لبنان. ثم أضافت: وكيف هي الأوضاع عندكم؟.

قلت: ـ تمر مجتمعاتنا في الفترة الأخيرة بتغيرات سريعة، في

الإعلام والقنوات الفضائية والاتصالات والإنترنت وحتى في مفاهيم الناس وأذواقهم.

قالت: ـ صحيح هذه آثار الحرب، لكن ما هي أحوال الاقتصاد والأسواق في بلادكم؟.

قلت: ـ لا أدري، ليس لي إلمام كبير بهذا المجال، الناس تشتكي الركود وأظنها إفرازات الحرب كما تفضلتِ.

قالت: ـ نعم الحرب، لكن لا عليكم، فعمّا قليل سيتحسن الوضع، اقتصاد البترول متجدد وسريع التعافي.

قلت، وقد جرأني سؤالها: ـ أنت هنا في عمل، سيدتي؟.

قالت، وهي تعدل جلستها وتمر بيدها على جيب جاكيتها الرماديِّ الأنيق: ـ عندنا محل عطور ومستحضرات تجميل في دبي، هل زرت دبي؟.

قلت: ـ مرتين على عجل.

قالت: ـ وهل زرت شيئاً من معالمها؟.

قلت: ـ لم يكن الوقت متسعاً، فقط الخور وبعض الفنادق والأسواق.

قالت: ـ المرة القادمة عليك أن تسأل عما تجدر زيارته، فهناك حقاً ما يستحق المشاهدة، ثمة الكثير من المكتبات والمتاحف والمعارض، أعتقد أن دبي ستكون حاضرة العرب الاقتصادية والثقافية، أستغرب كيف تكون من أهل الخليج ولا تتردد على تلك المدينة الباهرة.

ثم سألت: ـ وما هي حال التنمية عندكم؟.

قلت: ـ متباطئة قليلاً، الحرب تركت أثرها على كل شيء.

قالت: ـ والتنمية أول المتأثرين أليس كذلك؟.

تحدثنا عن أمور كثيرة تهمُّ العرب من أمثالنا وتكثر حولها حواراتهم ونقاشاتهم، تحدثنا عن حرب الخليج التي ما تزال جرحاً مفتوحاً في خاصرة الأمة، وعن قضية فلسطين القديمة الجديدة وعن المهاجرين وهمومهم.

أفاضت السيدة بعفويةٍ وتلقائية وبلهجةٍ لبنانيةٍ تخللتها بعض مفردات أهل الخليج.

امتد الحديث الممتع لأكثر من ساعة حتى نزل أصحابي فاستأذناها بعدما عرَّفتهما إليها وجلسا قليلاً من دون أن يشتركا بأي حديث.

وجدنا السيد طوني ينتظرنا على ضفة السين كما وعدنا من أجل الرحلة النهرية، لم نميزه من الوهلة الاولى، كان يلبس سروالاً قصيراً وقميصاً أصفر قصير الأكمام ويعتمر قبعة قماش مثنية الأطراف.

ما إن أخذنا أماكننا في المركب المكشوف حتى انطلق يمخر عباب الماء، وراح المرشد يشرح بالإنجليزية أهم معالم المدينة القائمة على ضفتي نهرها. يحمل الكثير من الناس مظلاتهم مطويةً في أيديهم وكذا فعل طوني، كان يضعها بين ساقية وهو يهمس لراشد بما قد يكون فاته من شرح الدليل. يتابعه صاحبنا بعينين ملؤهما التعجب.

جلست مستمتعاً بالمناظر وبالجو اللطيف بينما نعبر المدينة جسراً جسراً، كلما استقبلنا واحدٌ قلنا أجمل من سابقه. ها هي كنيسة نوتردام بتماثيلها وأبراجها، وتلك قبة الإنفاليد تسطع تحت الشمس المتسللة من بين الغيوم، وها هو برج إيفل الشهير ينتصب شامخاً في الأفق.

في مدن العالم تجد القديم والجديد، الهدم والبناء، الجيد والرديء، وفي باريس القديمة تجد الثمين والجميل من فن البناء، مدينةٌ بنيت ورُتِّبت كأنما رسمتها ريشة فنان، هكذا رأيناها أول مرة.

تُرى هل يقدِّر أهل باريس جمالها ويدركون كم هي رائعة، أم أن سحرها لا يصيب سوى العابرين!؟.

انتبهت على قول المرشد: ـ هذا معهد العالم العربي، يجمع بعض آثار العرب ونماذج من حضارتهم.

تصورت العالم العربي من أقصاه إلى أقصاه وتصورت فرنسا وما بينهما عبر التاريخ، شارل مارتن يمتطي حصانه الأدهم ويعتمر خوذته المذهبة شاهراً سيفه العريض يصيح في جيشه محرضاً ضد العرب الغزاة، بلاط الشهداء، مرج راهط ودماء الشهداء التي ما زالت تجري، عمائمهم البالية وقد عصفت بها الرياح على الأغصان وأجسادهم الممزقة تجرجرها وحوش البراري والطيور.

لا أدري كيف حضرتني تلك الصورة؟. أمن ذاكرة التاريخ أم من ذاكرة الأفلام!؟.

تخيلت الملك الفرنسي يرسل الطلاب إلى خليفتنا المبجل.

«آمل أن ينال أبناؤنا في بلادكم من العلم والحكمة ما نفتقده في بلادنا التي يخيم عليها الظلام والجهل».

واستطرد الخيال... الحروب الصليبية، الآلاف يقتلون في الأقصى وتسيل دماؤهم فتغطي سنابك الخيل.

صلاح الدين يعلمهم أخوة الإنسان، يعلمهم التسامح والعفو عند المقدرة، ذلك الدرس الذي تجاوزته ذاكرتهم حين احتلوا الجزائر بحجة أن الباي لطم السفير الفرنسي، مائة واثنان وثلاثون سنة ومليونا شهيد من أجل لطمة.

تخيلت الجزائريين العزّل تلقي بهم الشرطة الفرنسية موثقي الأيادي والأرجل من فوق أحد هذه الجسور الجميلة فقط لأنهم سئموا الاستعباد، يا لتسامح فرنسا!.

يغزون أرضنا، يتقاسمون بيوتنا ومزارعنا، يتعالون علينا، يحتقرون أخوة الإنسان ويستثنوننا من مبادئ ثورتهم العظيمة.

ثم تظهر لي صورة فرنسا الحديثة في حللها الأنيقة وموضاتها المتألقة، أعلام العرب الكثيرة ترفرف وسفراؤهم يتوافدون.

هذا هو معهد العالم العربي اختزل كل هذا التاريخ بحقه وباطله، بظلمه وإنصافه، بحقيقته وزيفه.

أغنياء العالم العربي يعمرون فنادق باريس وبنوكها، لاجئوه ومطاردوه يفترشون أرصفتها ويلتحفون سماءها وطبقةٌ من أبنائه وبناته يخدمون ليلها ونهارها.

استغرب طوني حين دفع ناجي للرحلة والغداء والآيسكريم عن الجميع، ورفضنا أن يدفع عن نفسه، أخبرناه بعدما ألحَّ أننا نجمع النقود مع ناجي لينفق على رحلاتنا ومصاريفنا المشتركة وأنه اليوم ضيفنا ولا ينبغي أن يتكلف شيئاً!.

لم أجد رغبةً في الخروج أو قدرةً على النوم ذلك المساء، تقلبت في فراشي ساعةً ثم نزلت إلى البهو حاملاً كتابي، تأملت المكان قبل أن اختار موقعاً بعيداً عن الممرات مضيئاً بما يكفي لمواصلة القراءة، كانت الصالة هادئةً وخاليةً إلّا من بعض كبار السن متفرقين هنا وهناك، أفراداً وأزواجا غارقين بين صفحات كتبهم أومتبادلين أحاديث الذكريات.

أخذت مكاني واستغرقت لا أدري كم من الوقت قبل أن أنتبه على صوت السيدة تلقي التحية، نعم السيدة التي قابلتها هذا الصباح جاءت تحمل هي الأخرى كتابها، تؤكد هيئتها وهندامها أنها لم تكن قادمةً من سهرة أو ذاهبةً إليها، يبدو عليها الارتياح والمزاج المعتدل.

سلمت وجلست على الأريكة المقابلة، ووضعت الكتاب على

الطاولة بينما أعدل جلستي وأضع ورقةً كانت مطوية بيدي عند مكان توقفي.

قلت: ـ أهلاً سيدتي، مساء الخير.

قالت: ـ كيف كان يومكم؟.

قلت: ـ جيد، ذهبنا في رحلةٍ عبر السين وتمشينا في شوارع المدينة ثم مررنا أخيراً بالسوق، وأنتِ؟.

قالت: ـ أبداً، لم نعد نذهب إلى الأماكن السياحية، أصبحت شيئاً عادياً لا يثير فضولنا، ذهبت عند أخي ومن ثم إلى السوق حيث أتابع عملي.

خطر ببالي أن أسألها عن أخيها لكن خشيت أن تظنني شخصاً فضولياً لذا آثرت تجاوز الموضوع.

أعجبت بكتابي «المرأة بين الفقه والقانون للدكتور مصطفى السباعي» وقالت إنها تحب أن تقرأ شيئاً عن المرأة في الشريعة، وسألت إن كان بإمكانها استعارته لبعض الوقت، فوافقت بكل سرور. لم يكن في باريس متسع وقتٍ للقراءة فإما أن نكون في المعهد أو في النزهات أو في السهرات.

كانت السيدة تحمل رواية للطاهر بن جلّون عرضت عليَّ استعارتها، لكني اعتذرت بضعف فرنسيتي.

قلت: ـ أحب لو أقرأ شيئاً للطاهر بن جلون، سمعت كثيراً عنه وأعتقد أنه وأمثاله من الأدباء ممن توغلوا في أعماق المدنيَّة الفرنسية بينما لازالوا يحملون ثقافةٍ عربية متجذرة أقدر من ينقل ويحلل المَشاهد في كلا الجانبين، تعجبني جرأتهم وأفكارهم الفرنسية في روحٍ عربية.

قالت: ـ تقرأ الأدب.

قلت: ـ ليس كثيراً، قرأت لبعض أدباء الثورة الفرنسية ولسارتر وألبير كامو وبعض الآداب المترجمة.

قالت، وتضحك: ـ يبدو أني بحضرة أديب!.

قلت: ـ العفو، يا سيدتي.

قالت: ـ والتاريخ؟.

قلت: ـ التاريخ الحديث هوتخصصي في الجامعة وكنت أحب قراءة التاريخ الاستعماري لفرنسا..

استمر الحديث حول الأدب والتاريخ، وسرقني الوقت بصحبة السيدة اللطيفة.

ذهب ناجي أحد الأيام بصحبة راشد لمقابلة صديقته الأمريكية ليزا، الفتاة التي تعرفنا إليها في ليلتنا الأولى، وكان صاحبنا يقابلها بين حين وآخر وعدت باكراً إلى الفندق.

لم تكن لي رغبةٌ في النوم ولا في الخروج.

قلت في نفسي: ـ لم لا أتناول الجريدة وأقلبها ريثما تدركني غفوة القيلولة.

قصدت المكان الهادئ في الركن البعيد فصادفت السيدة لبنى التي تحدثت معها قبل يومين أو ثلاث، كانت منهمكةً تفتش أوراقاً نثرتها على الطاولة، أردت تجاوزها إلى الطرف الآخر لكنها انتبهت لتحيتي وابتسمت بشكلٍ عفويٍّ وهي تميط النظارة وتشير إلى الأريكة المقابلة.

قالت: ـ كيف هي الدراسة اليوم؟.

قلت: ـ جيدة، لم نصل بعد إلى المواد ذات القيمة.

تحدثنا لبعض الوقت فلاحظت أنها مرهقة أو مهمومة، وقلت في نفسي لعلها تريد أن تراجع بعض أوراقها وأحببت ألّا أشغلها لكني تحرجت من الانتقال.

فتحت الجريدة واندمجت في قراءة صفحات الرأي والتحليل قبل أن يخيل إليّ أن السيدة تتمايل على أريكتها، انتبهت فإذا هي تتمايل حقاً وتنظر بعينين زائغتين، تحاول أن تقول شيئاً فتعجز عن الكلام، وتوشك أن تقع على وجهها وقد وضعت يدها على جبينها الموشح بالعرق.

ألقيت الجريدة وقمت مسرعاً لكنها انحنت على يد الأريكة، أسرعت أنادي موظفي الاستقبال، فجاءت أحدى الفتيات بكأس من العصير لا أدري من أين التقطته، كانت السيدة تتمتم بكلمات غير واضحة بينما تجلس الفتاة على الطاولة تناولها العصير بيد وتمسح العرق عن جبينها بالأخرى، ووقفت أراقب استعادتها شيئاً من وعيها.

نهضت بعد نحو ربع الساعة بمساعدتي والأنسة من الاستقبال وقالت إنها ستكون بخير إن ارتاحت في غرفتها، تركتها عند باب المصعد مع الفتاة وعدت إلى مكاني استرجع ما حدث، قمت بعد بضع دقائق أجمع ما تبعثر من صفحات جريدتي فلاحظت مغلفاً مكتنزاً قد انزلق بين الطاولة وبين الأريكة التي كانت تجلس عليها السيدة لبنى.

لم أعرف حينها كيف أتصرف، فلم يخطر ببالي مثلاً أن أسلمه إلى الاستقبال أو أسأل عن رقم غرفتها وأوصله إليها، قلت في نفسي الأفضل أن انتظرها فإن لم تظهر اليوم، والأغلب ألّا تفعل بعدما حدث، فسوف احتفظ به حتى أصادفها.

بحثت عنها في البهو حين خرجنا إلى السهرة لكنها لم تكن وكذا حين عدنا بعد منتصف الليل، لذا قررت أن أسأل عنها في الاستقبال، إن لم أجدها على مائدة الإفطار فقد تكون في المستشفى.

لاحظت وجودها فور دخولي قاعة الإفطار تجلس مقابلةً للمدخل، ابتسمت حين سلمت عليها وانحنيت أسأل عن صحتها.

بادرت بهدوءٍ وثقة: ـ لا عليك، بعض الهبوط نتيجة الإرهاق، وأشارت بيدها إلى الكرسي المجاور.

قلت: ـ أنتظر أصحابي، سيدتي!.

قالت: ـ اجلس ريثما يصلون، ألاحظ أنهم يتأخرون عنك كل صباح.

قلت، وأنا أجلس: ـ هكذا هم أصحابي يحبون النوم، سيدة لبنى وجدت مغلفاً في مكانك بالأمس..

قاطعتني وهي تبعد فنجان القهوة عن فمها: ـ بالله عليك!سألت الاستقبال ولم يفيدوني شيئاً عنه، ظننت أني أضعته في الميترو أو أُخذ من مكاني.

قلت: ـ إنه معي في الغرفة، سأحضره حالاً.

نكتته السيدة على الطاولة حين أحضرته فانزلقت رزمة من المال وتذاكر طيران ومجموعةٌ من الأوراق التي بدت مهمة، فقد تفقدتها واحدة واحدة.

انتشرعلى وجهها السرور وهي تشكرني بينما أستأذنها للانضمام إلى أصحابي.

لم يمهلاني طويلاً، بعدما خرجنا، حتى انهالا عليَّ بالأسئلة فاكتفيت بأنصاف الإجابات، كنا وحتى تلك الساعة زملاء لم تتوثق عرى صداقتنا بعد.

نزلت في المساء أبحث عن السيدة، فلم أكن أحب الذهاب كثيراً إلى النوادي الليلية، سهرت مجاملةً للأصحاب عدة مرات لكني لم أتآلف مع جو السهر والدخان الكثيف وتصرفات المخمورين.

كنت أحمل ديوان «لافتات» لأحمد مطر. ما إن وصلت حتى

رحبت وناولتني قطعةً من الشيكولاته السويسرية الفاخرة قالت إنها جاءت مع دعوةٍ لحضور معرضٍ لمستحضرات التجميل، سهرنا نقطف من دواوين الشعر ونصوص الآداب أجملها.

كانت سيدة مثقفةً من طراز خاص، لا تحمل أفكاراً مغلفة ولا أحكاماً مسبقة، تخضع ما تسمعه لسلطان العقل والمنطق، تفهم الاشياء بمنطق وظروف الأشياء ذاتها وهذا ما لا يحصل عادةً مع النساء، وكانت متذوقةً متميزة للشعر العربي، أتذكر أنها سرحت مع قصيدة «ثورة الشك» ورددت: ـ

وأنتَ مناي أجمعُها هدتني إليكَ خُطى الشباب المطمئنِّ

لا أدري أي نوع من الذكريات أهاجت الأبيات في قلبها.

تسامرنا إلى وقت متأخر ثم أذنت لي حين اعتذرت بالنعاس لكنها نادتني بعد خطوتين أو ثلاث: ـ سيد عمار.

قلت ملتفتاً: ـ نعم سيدتي.

قالت، بينما تنهض من أريكتها: ـ رافقنا غداً إلى معرض مستحضرات التجميل الذي أخبرتك عنه إذا لم تكن مشغولاً، سيعجبك المكان.

قلت ضاحكاً: ـ لكنني لا أعرف شيئاً عن التجميل.

قالت، وهي تمشي إلى جانبي: ـ لا عليك، اعتبرها نزهة، فمجرد التواجد هناك متعة.

قلت: ـ حسناً، وماذا عليَّ أن أفعل؟.

قالت: ـ لا شيء، نلتقي على الإفطار كما تعودنا عند الساعة التاسعة ومن ثَمّ ننطلق.

قلت: ـ حسناً، تصبحين على خير.

نزلت إلى الموعد من دون أن أخبر أصحابي أو حتى أوقظهم، فقد عادوا متأخرين وسيغطون في النوم إلى ما بعد العصر وكانت

الساعة قد تجاوزت حينها التاسعة بقليل. لمحت السيدة تنتظرني وقد ارتدت حلةً أنيقة واعتنت بتسريحتها، قلت في نفسي: ـ تُرى كم من الوقت يستغرق كل هذا الترتيب والماكياج، لا بد أنه يحتاج إلى أكثر من ساعة، وكل يوم، ألا يثير الملل؟.

بادرتني مبتسمةً بالجريدة حال جلوسي، رحت استعرض العناوين على مهل فأخبرتني أننا ننتظر ابنة أخيها التي سترافقنا إلى المعرض.

لم يطل انتظارنا، فقد أقبلت تتبعها عيون من في المكان، قبّلت عمتها ولفحني عطرها الصباحي الخفيف حين صافحتني بأطراف أصابعها وجلست مقابلي، لم تكن تضع من الزينة إلّا الكحل وربما القليل من أحمر الشفاه، ليست بحاجة إلى الزينة حين زينها ربها!

ما إن جلست حتى بادرت السيدة وهي تشير بكفها: ـ السيد عمار الذي حدثتك عنه.

التفتت الفتاة وهي ما تزال مبتسمة: ـ أهلاً سيد عمار، أخبرتني عمتي عن صنيعكم النبيل.

قلت: ـ عفواً آنستي، لم أفعل ما يستحق الشكر. وتذكرت أني رأيتها مرتين أو ثلاث هنا في الفندق لكن لم أتصور أن تكون قريبةً للسيدة.

قالت السيدة: ـ كيف وقد أعدت لي أوراقي وتذاكر سفري ونقودي؟.

قلت: ـ لو أعلم أن به نقوداً ما أعدته. وضحك الجميع.

انتقلنا إلى مائدة الإفطار فهمست لعمتها بالفرنسية: ـ ليكن السيد في مقابلك أنت.

ضحكت السيدة لبنى وهي تنظر إليَّ، ثم التفتت إلى الفتاة: ـ السيد عمار يتكلم الفرنسية، كوني على حذر يا صغيرتي.

نظرت إليَّ باهتمام، ربما لأول مرة وسألتني: ـ تدرس هنا؟.

قلت بتمهل: ـ أدرس أنظمة البريد.
قالت، وهي تبتسم: ـ تدرسونها بالفرنسية؟.
قلت: ـ يعلموننا بالإنجليزية.
قالت: ـ إذاً، درست الفرنسية في الخليج، لم أكن أعرف أن أهل الخليج يهتمون بدراسة اللغة الفرنسية.
قلت: ـ في البداية لم يكن اهتماماً، كان لا بد لي من دراسة لغةٍ أجنبية إلى جانب التاريخ الاستعماري لفرنسا وبريطانيا موضوع تخصصي، استحب لي الدكتور دراستها ثم أحببتها مع الوقت لكنني عدت فهجرتها ونسيت أكثرها، قليلون هناك من يتحدثونها أو يعتنون بها.
قالت السيدة: ـ سنذكِّرك بها ما دمنا هنا!.
قالت الفتاة: ـ تعتنون هناك بالعربية وعلوم الدين، أليس كذلك؟.
قلت، وقد استغربتُ دخولنا في أحاديث من هذا القبيل: ـ صحيح ما تقولين، نهتم في بلادنا بالثقافة العربية الإسلامية ونُربى عليها من صغرنا، لذا نجدها تلازم ضمائرنا وتحكم تقييمنا للأشياء بل وتؤثر في أذواقنا واختياراتنا، نقرؤها في المدارس وفي قصص الآباء، نفاخر بماضيها ونحلم بمستقبلها، أما ثقافتنا التالية فالإنجليزية، كما تعلمين، لسان المستعمرين ولغة العلم والتجارة.
ربما أطلت الحديث بدون قصد سوى متعة النظر إلى وجهها الطفولي الجميل. كانت ترتدي ثوباً أنيقاً ورديَّ اللون عاري الأكمام وقد انسدل شعرها الكستنائي المسترسل على كتفيها وزينت جيدها المرمري بسلسالٍ ناعمٍ تتوسطه فراشةٌ صغيرةٌ طعمت بالياقوت الأحمر.
استكملنا أحاديثنا في الطريق إلى المعرض، حيث يتسابق العارضون على قلوب النساء وجيوب الرجال، معارضُ فخمة،

معروضات قيمة وصرعات غريبة، أشياء مفهومة وأخرى محيرة لمن هم مثلي على الأقل!.

الفتيات البائعات والعارضات هن أشد ما يلفت الانتباه، ملكات جمال في ثياب جريئة، لو لم نكن في فرنسا الحضارة لقلت إن المرأة لا تعدو أن تكون سلعةً أو إعلاناً لسلعة، ولقلت إنها مبتذلة لدرجة أن يُسخَّر جسدها لتسويق منتج قد لا يكون أكثر من صابون استحمام أو معجون أسنان، وأنها تقع ضحية البغي القانوني والإهانة المنظمة، لا أعتقد أن امرأة غير جميلة ستجد فرصةً للعمل في هذا المكان وإن كانت متعلمة، الجمال والقوام الرشيق، أولاً، هنا!.

تراجعت عن البوح بأفكاري تلك لمرافقتي كي لا تعتقد أني رجل رجعي، واكتفيت بالأحاديث التي لا تعبر أي مسافة ولا تعبر عن رأي!.

انهمكت العمةُ في فحوصها ومقارناتها وفي الحديث مع مورديها، ولم ينقذني وصبرا سوى المقهى الصغير الملحق بالمعرض، دعتني إليه: ـ هل لك في كوب من القهوة بينما تنجز عمتي عملها.

جلسنا ننظر إلى السيدة في أحد المعارض المقابلة تتحدث إلى رجلٍ مسن يجلس خلف طاولةٍ صغيرة مسنداً ظهره إلى الخلف وباسطاً يديه على طاولته، تشير بيديها عندما تتحدث، تلبس نظارتها وتميطها عن عينيها في حركةٍ عفوية تنم عن انهماكها في أحاديث ومساومات العمل.

تجولنا في أحاديث عامة لا تعنينا كثيراً إنما لنستطلع اتجاهات وتطلعات بعضنا، وسرعان ما وجدنا أنفسنا نميل نحو الشعر والأدب.

قالت: ـ يبدو أن لك اهتماماً بالآداب.

قلت، وأنا أتناول السكر: ـ أتذوق الشعر وأحب قراءة الآداب

المترجمة، أعتقد أن مطالعة الآداب تمنحنا فرصةً لفهم الحياة ومساحةً للصفاء والتأمل قد لا تتوفر للآخرين.

قالت، وهي تنظر إليَّ كأنما ترصد انطباعي: ـ أحب الفنون الأصيلة والموسيقى الراقية.

قلت: ـ حقاً؟ أعتقد أن المرأة التي تتذوق الفن وتقدره هي امرأة ناضجة أقدر على فهم الرجل من أخرى لا يلامس قلبها الغزل.

قالت: ـ أظن أن هذا ينطبق على الرجل وعلى المرأة إن لم ننظر إلى المرأة على أنها جاريةٌ نثقفها للتسلية والترفيه.

ثم أردفت: ـ للشعر أشكالٌ عديدة، قد يكون مقروءاً وقد يكون مشاهداً أو حتى مرسوماً بالألوان، ولا أعتقد أن هناك امرأة لا يستهويها نوع من التعبير أو يداعب خيالها.

بدت لي صورة الرجل التمثال مرةً أخرى، قلت: ـ صحيح ما ذكرتِه، رأيت رجلاً تمثالاً قبل أيام لم يكن سوى لوحة معبرة أعادت خلط مشاعر كل من تأملها، لكنني أتحدث عن نسبية التأثير والتجاوب، فما تستحسنه امرأة تذوب فيه أخرى، أليس كذلك؟.

قالت: ـ بلى. وسكتت كأنما تستعرض شيئاً في ذهنها.

قلت بعد قليل وأنا أراقب السيدة: ـ يبدو أن عمتك تحب عملها.

قالت، وهي تنظر في نفس الاتجاه: ـ صحيحٌ ما تقول، فهي تجعل من ممارسة عملها متعة، تتقصى أخباره وأحداثه الكثيرة فلا يكاد يفوتها شيء، أتعجب أحياناً من مثابرتها ودقة معلوماتها.

لاحظت أن محدثتي تشرب الشاي خفيفا مع القليل من السكر ولا تدخن، تتحدث بصوت هادئ واثق وتنظر بعينين تفقدان من يسرح فيهما القدرة على التركيز، فتاةٌ بيضاء ناعمة وخجولة.

انضمت إلينا السيدة في هذه الأثناء وقالت، وهي تأخذ مكانها: ـ سيد عمار لم أخبرك أن صغيرتي تهتم بالثقافة وتنقب الكتب بحثاً عن

نفائس الشعر والآداب من دون ملل. ثم أردفت، وهي تنظر إليها مبتسمة: ـ أظنك ورثت هذا الميل عن والدك.

* * *

بدأنا تلك الأيام نتعمق في دراسة المواد، ومع أنها كانت معدة للطلبة الأجانب باللغة الإنجليزية فقد استفدت من أحاديثي مع الزملاء والمعلمين في أوقات الفراغ وبين المحاضرات بقدر ما أسعفتني فرنسيتي، وبقدر ما قَبِل المعلمون الحديث معنا خارج الفصول الدراسية.

نستقل الميترو كل يوم لنعود إلى الفندق عند منتصف النهار ثم نقضي بقيته متسكعين بين المقاهي والأسواق، أما إجازات نهايات الأسابيع فقد نظمنا برنامجاً لزيارة الآثار والمتاحف أو لقضاء الأيام في الريف القريب، نستأجر المكان ثم نشتري الطيور أو الضأن الصغير من الفلاحين ونعد الكبسة أو المرقوق بعدما وصلتنا البهارات التي أرسلتها أم ناجي.

كنت ألتقي صبرا وعمتها على الإفطار أو في المقهى المجاور للفندق، أمضيت برفقتهما الكثير من الوقت حتى ألفتهما وألفت الجلوس معهما، كانت السيدة تبدي الكثير من المودة حتى أنها سألت عني حين تأخرت مرةً أو مرتين، أما الفتاة فبدت غامضةً بعض الشيء لا تبوح بكل أفكارها.

كانتا تتحدثان إلى بعضهما أحياناً حول والد صبرا المريض، وكنت على وشك أن أسألهما لكنني فضلت تجنب الأمر ما لم تتبرع إحداهما بالحديث.

يبتهج القلب لرؤية صبرا ويعتدل المزاج مثلما يبتهج الناس لرؤية الأشياء الجميلة الباهرة، ولم أكن أسمح لخيالي حينها أن يذهب بعيداً..

رأيت من الواجب دعوتهما للعشاء رداً على دعوة السيدة لي إلى المعرض، ربما بدأت أبحث عن ذريعة للتقرب من صبرا ورؤيتها أطول ما يمكن من وقت.

ثمَّة رغبة للوقوع في الحب نخبئها دائماً في قلوبنا!.

تركت لهما اختيار المكان بعدما ألححت عليهما للقبول: ـ أنا لا أعرف باريس كما تعرفانها. وفعلاً رتبنا موعد العشاء في نهاية الأسبوع.

ذهبت ذلك المساء مع الشباب إلى مطعم لبناني في سانت جيرمان، أعجب طوني بنوعية ومذاق الطعامً العربي مع النبيذ الفرنسي الجيد الذي طلبه ناجي، أتذكر أنه كان يضحك وهو يردد «العزبة، العزبة» عندما عاد ليسألنا عن طريقتنا في تقاسم المصروف.

قال ناجي، في طريق العودة، معلقاً بالإنجليزية على سائق الأجرة الجزائري ذي اللحية الطويلة الذي أوصلنا: ـ أترى يا عمار ما صدرناه إلى أوروبا، ألا يحق لهم أن يخافوا ويحدُّوا من تدفق المهاجرين من الجنوب، أرأيت كيف كانت لهجته حادةً وعدائية، وكيف يسخط على الفرنسيين ويشتمهم؟.

قلت مازحاً: ـ الجزائريون أبناء وطن على هذه الأرض لا يرون لأحدٍ فضلاً في بقائهم.

قال طوني: ـ صحيح، هم يقولون أنهم شاركوا في تحرير فرنسا وتحملوا احتلالها لعقود طويلة تمنحهم حق المواطنة.

قلت: ـ لكن هل تتقبلونهم اجتماعياً؟.

قال بعد تفكير: ـ نحن متعودون على وجود المهاجرين، فرنسا كما تعلمون بلد منفتح على الحضارات الأخرى، صحيح أن نسبةً متزايدة من الفرنسيين ترفض تزايد المهاجرين خصوصاً بعد تنامي المد الديني بين جماعاتهم، إلّا أن أغلبية الناس هنا متسامحون

يفضلون تنوع الثقافات وتعدد الأعراق ويعتبره بعضهم نوعاً من الإثراء.

قال راشد: ـ لكن ما موقفك أنت؟.

قال: ـ بالنسبة للمتدينين مثل صاحبنا هذا لا أفضل الاقتراب منهم، لا أدري لماذا، لكن أشعر أنهم يختلفون عمَّن تعودنا عشرتهم من العرب والأفارقة، أعتقد أنهم يميلون إلى العنف ويكرهون الأوروبيين وغير المسلمين.

قلت: ـ لا أظنهم يقدمون الإسلام بطريقةٍ جيدة..

قاطعني راشد: ـ يمثلونه أفضل من رواد الحانات والكازينوهات.

قال ناجي من كوميديا دانتي: ـ «القديسون والأشرار يلتقون في جهنم قبل أن يمضي كلٌّ منهم إلى طريقه!».

قال راشد وكانت تملؤه العاطفة الدينية: ـ إنهم متدينون يريدون ما عند الله، وإذا خانهم الاجتهاد فذلك لا ينقص من أجرهم..

قاطعه ناجي: ـ يا سيدي، «أن تكون جاهلاً خيرٌ من أن تكون لك أفكارٌ خاطئة»، ألم تسمع بهذا؟.

كان طوني يكتفي غالباً بالاستماع والاستمتاع بأغاني فيروز القديمة.

قلت مازحاً: ـ تفهم ما تغنيه فيروز؟. وكانت تغني «من عز النوم بتسرقني».

قال ضاحكاً: ـ لا، أتمنى لو كنت أفهم، لكنك تطرب للموسيقى الجميلة والصوت العذب وإن لم تفهم العبارات، كان لي أصدقاء من العرب عرفوني بصوتها.

* * *

دعاني ناجي لمرافقته بعد الدراسة لمقابلة ليزا صديقته الأمريكية،

فوجئت حين رأيتها تعلم الرقص الكلاسيكي لمجموعةٍ من الشباب والشابات في معهدٍ صغير قرب دار الأوبرا، ألقينا عليها التحية من خلف الزجاج ثم انتظرناها في أحد القاعات الفارغة لبعض الوقت قبل أن تنضم إلينا بملابس التدريب، رحبت بحضوري وأبدت مودة وتلقائية استغربتهما في ذلك الوقت.

جلسنا قرب النافذة الكبيرة المطلة على ساحة المادلين نتحدث عن دار الأوبرا وعن مسرح الليدو الذي كانت متشوقةً لزيارته، قلت وقد غلبني الفضول: ـ هذه مفاجأةٌ جميلة، لم أكن أعرف أنك تعلّمين الرقص، أخبرنا ناجي أنك باحثةٌ في علوم الاجتماع.

قالت ضاحكة: ـ هذا للتسلية وللحصول على بعض المال، على كل حال الرقص هوايتي ورياضتي المفضلة، هل تحب الرقص؟.

قلت: ـ نعم، وبودي لو كنت أعرف رقصة الفالس.

قالت ضاحكة: ـ إذاً تأتي مع ناجي وسأعلمك قليلاً كل مرة، لن يحتاج الأمر إلى كثير وقتٍ قبل أن تتقنها.

قلت، وداخلني بعض الحرج: ـ لا أدري، ربما..

قاطعتني: ـ لا عليك، ستتعلم وستجد المتعة والراحة حين تعبِّر عمّا في قلبك، فمن الرقص ما هو ضحك ومنه ما هو بكاء ومنه ما هو أحلام مجنحةٌ لا حدود لها..

أدارت جهاز الموسيقي القريب من الجدار، بعدما شرحت لنا خطوات الرقصة ثم وضعت كفها الصغيرة بين أصابعي ودارت ترقص.

آلمت قدمها بعد دورتين أو ثلاث فانسحبت محرجاً نحو ناجي وهي تتبعني ضاحكة: ـ لا ينبغي للراقص أن يترك رفيقته، عليك أن تعتذر لها وتعيدها إلى مكانها، ثمة أصول يا سيدي!.

أعجبتني تلقائيتها وثقتها بنفسها ما شجعني على الحضور بعد ذلك وتعلُّم القليل.

كانت تجد متعة حين تتعمق في معرفة الناس وسبر أغوار النفوس، ولعل لتخصصها في ذلك أثراً.

مر الأسبوع متباطئاً قبل أن يحين موعد العشاء المرتقب مع صبرا وعمتها وأصحابي في ذلك المطعم القديم الفخم بديكوراته وتقاليده المميزة ومصابيحه الخافتة، جلست صبرا عن يميني بفستانها الأسود الأنيق وقد شف عن بياض نحرها العاجي.

ضدانِ لمّا استجمعا حَسُنا، والضدُ يُظهرُ حُسنه الضِدُ.

يحاكي ثوبها وصف أحد المصممين: ـ «يشبه بوابة قصر جميل تحمي الملكية ولا تحجب الرؤية».

جلست عمتها على الجانب الآخر بينما أكمل صاحبيَّ الدائرة بكامل أناقتهما، كانت ليلةً رائعةً ميزتها الصحبة وفخامة المكان ونوعية الحضور وإن لم نتمتع كثيراً بالطعام الذي لم نألفه في بلادنا، كانت فرصة للتقارب رغم شعوري أنها تتحفظ في وجود الأصحاب الذين تلتقيهم الليلة للمرة الثانية أو الثالثة، ويبدو عليها بعض التوتر في الأماكن المزدحمة، عيناها تلوذان بعمتها كلما اشتركت في الحديث أو أبدت رأيها حيال ما يقال، حيرني تصرفها رغم نضوج واستقلال آرائها.

سألتني السيدة لبنى: ـ من هو أفضل شعراء العربية في رأيك؟.

قلت: ـ أعتقد أن المتنبي هو أعمقهم معنى وأغزرهم حكمة.

قالت صبرا: ـ أوافقك الرأي، عمَّق الفلسفة في الشعر العربي ورسَّخها وطرق أفكاراً وضروباً لم يطرقها الشعراء من قبله، كان شعره انعكاساً لثقافة الأوساط العالية حديثة الانتشار آنذاك مما

ترجمه العرب من آداب الأمم الأخرى، شعره قويٌّ أخاذٌ فائق الصنعة، يعجبني افتخاره بنفسه حين يقول: ـ

أجِزْني إذا أُنشدتَ شعراً فإنما ... بشعري أتاكَ المادحونَ مُردِّدا
وما الدهر إلّا من رواة قصائدي ... إذا قلتُ شعراً أصبحَ الدهر منشدا
وسار به من لا يسيرُ مشمِّراً ... وغنى به من لا يغني مغردا

قلت: ـ لكني أجد رقة في شعر ابن الرومي أو الشريف الرضي لا أجدها عنده، لم يكن بارعاً في الغزل، ما رأيكم مثلاً في قول الشريف الرضي: ـ

ولقد وقفتُ على ديارهمو ... وطلولُها بيد البِلى نهبُ
فبكيتُ حتى لج من لغب ... نَضوي ولج بعذليَ الركبُ
وتلفتت عيني فمذ خليتُ ... عني الطلولُ تلفت القلبُ

علقت العمة: ـ الله، الله، جميل حقاً جميل!.

قال ناجي: ـ لا أفضِّل القصيدة التقليدية بقالبها الموحد والتي تدور حول ذات الأغراض المألوفة، تبدأ بالوقوف على الأطلال ثم الوصف فالهجاء أوالرثاء، أجدها مملةً وأعتقد أن الشعر المتحرر من قيود الوزن والمعنى هو الوارث الطبيعي لتلك المحنطات التي أخذت نوعاً من القدسية في تراثنا.

قالت صبرا: ـ الجمهور والتاريخ هما الحكم، وسوف يبقى ما هو أجدر بالبقاء.

قالت السيدة: ـ على ذكر الشعر الحر، من يحفظ شيئاً لنزار؟.

قال ناجي، وقد وضع أصابعه تحت ذقنه ودار بعينيه نحو الأعلى: ـ

عشرين امرأة قابلت
عشرين امرأة أحببت
وعندما التقيت فيك يا حبيبتي

أشعر أني الآن قد بدأت.
أشكوك للسماء..
أشكوك للسماء..
كيف استطعت أن تختصري..
جميع ما في الأرض من نساء
أشكوك للسماء.

قالت صبرا: ـ لكن ما رأيك سيد عمار بشعر الحداثة؟.

قلت: ـ ليس لي علم كافٍ به وإن كانت بعض ما يسمى الأشعار حديثة القوالب والمعاني لا تعجبني، تشوِّش المشاعر وتطلق الخيالات في اتجاهات متناقضة، تحفز أحياناً على التأمل لكنها تحدث تأثيراً ضبابياً على أمزجة قارئيها.

قال ناجي: ـ تتأثرأحكامنا أحياناً بأفكارنا وانطباعاتنا المسبقة.

علقت صبرا: ـ أعتقد أن ما يقوله الأخ ناجي صحيح.

سألها ناجي: ـ لِمَ لم تدرسي الأدب طالما كنت مولعةً به؟.

قالت: ـ كانت دراسة الإعلام رغبةً لوالدي، لكن حتى لو ترك الأمر لي ما كنت درست الأدب، ربما علم الاجتماع أو علم النفس.

قال: ـ لماذا؟، مع أنك تحبين الآداب كما يبدو.

قالت: ـ ندرس غالباً للحصول على مهنة نحترفها، والأدب لا يصلح أن يكون مهنة.

قالت السيدة: ـ ليست الحياة سوى اختيارات، وتصعب إعادة الاختيار كلما تقدم بنا العمر.

عدت محملاً بصورتها ورنين صوتها واستغرقت في النوم فلم أستيقظ إلا على جرس الهاتف، يا إلهي!، إنه صباح اليوم التالي، وهذا راشد يستعجلني.

دخلنا الفصل متأخرين وكنت أكره التخلف عن حصة السيدة كريستين، فغالباً ما ترفض دخول الطلاب المتأخرين. معلمةٌ متعالية لا تتحدث مع الطلاب خارج الفصل، تبدو مثالية أكثر مما ينبغي، لم تتحدث معنا خارج المنهج أو تضحك إلّا قليلاً «المثاليون مملون».

انتقلنا من المعهد مباشرةً إلى برج إيفل عبر الميترو، شرايين باريس الممتدة في كل الاتجاهات، تظن نفسك مقبلاً على الزحام لأول وهلة لكنك لا تجده زحاماً حقيقياً كالذي تصادفه في المرافق العربية، الجميع هنا يعرف طريقه ويمضي إليها، يجتمعون ثم يتفرقون في المحطات التالية والتي تليها، يهرول كل واحدٍ في اتجاه، لا ينظر أحدهم في وجوه الآخرين ولا يهتم لوجودهم، يخيل إليك أنهم يتجاهلونك، فإذا أعدت النظر قلتَ إن الجميع يتجاهل الجميع!.

لم يطل سفرنا أكثر من عشر دقائق لنجد البرج شامخاً فوقنا حالما صعدنا درجات المحطة.

أفواجٌ من السياح يتزاحمون عند شبابيك التذاكر، آخرون يتأملون المكان الذي حلموا زمناً بزيارته، يستمتعون بأوقاتهم، ويخلّد وميض كاميراتهم اللحظات السعيدة التي قطعوا من أجلها الأميال وأنفقوا الأموال.

قال راشد مازحاً، وهو يتأمل المصاعد المزدحمة: ـ لا أجده مثيراً كما تخيلت، مجرد قوائم وعوارض من الحديد، لا يزيد عن أبراج الاتصالات سوى في الحجم لكنهم رددوا أسطورته فصدقناها، ولو أن هتلر صنع منه الدبابات والمدافع كما أراد لكان أفضل!.

قال ناجي ضاحكاً: ـ صُنع هذا قبل أكثر من مائة عام، يوم كنّا نرعى الأبل، أتتصورعظمته يومذاك، ثم إن فيه من الجمال والفن ما لا يخفى لكنك لا ترى الجمال إلّا في وجه امرأة.

قال راشد: ـ أبداً، أنت مأخوذٌ بحضارتهم على علّاتها.

قال ناجي: ـ كل العالم مجمعٌ على روعة المكان، أنت وحدك من يخالف، وتمثَّل ضاحكاً: ـ

وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

صار مثل هذا المزاح معتاداً بيننا ولم يكن ليبيِّت في قلب أحدنا ضغينة.

باريس من الأعلى مثل مربعات ممتدة من الأحياء تقسمها الطرق السريعة وتكتنفها الغابات الضاربة إلى السواد متداخلةً مع البنايات الجميلة ذات السقوف المائلة والشوارع القديمة الضيقة، كنيسة القلب المقدس تبدو ناهضةً في الأفق تشرف على المدينة، نهر السين يجري هادئاً يتخلل أحياء محبوبته، يعكس زرقة السماء وتتماوج أشعة الشمس فوق صفحات مائه الجاري كخيوط الذهب.

وقفت في جهة المغرب أرمي بنظري نحو البعيد، أتامل المكان وأستنشق عبير الحقول يحمله النسيم.

ذهبت بي الذكريات صوب طفليَّ الصغيرين وأمهما التي لم أعرف الطريق إلى قلبها، كم أشفق عليها وعلى نفسي مما نحن فيه، كيف لم نجد مشتركاً نلتقي عليه مذ تزوجنا سوى حب طفلينا، وحتى الطفلين أحببناهما بطريقتين مختلفتين، لا أدَّعي اليوم أنها كانت أسوأ مني، لكنها لم تكن امرأتي المناسبة مثلما لم أكن الرجل الذي تمنَّت، بيت الزوجية كان آخر آمالي بالحياة السعيدة، وكم كنت حزيناً يوم أفلست تلك الآمال.

أتصور اليوم، حين أنظر إلى القصة، أن لبعدي عن والدتي، وللعقد التي حملتها من زمن طفولتي، أثراً في حاجتي إلى الدفء الأنثوي والاهتزاز الذي ظل يلازمني. انتظرت منها أكثر مما يُنتظر من فتاةٍ مدللة لم تتحدث إلى الرجال ولم تعرف شيئاً عن الحياة الزوجية، لا تهتم باكثر من متابعة الموضة وأخبار الرياضة، تنتظر

زوجاً يحملها بين ذراعيه ويحقق أحلامها الطفولية، يصبر على طيشها وإزعاجها ونكد أمها، ربما لو كنت رجلاً غنياً لاشتريت رضاها بالمال، ولو كنت مشهوراً لكسبت إعجابها بالشهرة، لكني لم أكن غنياً ولا مشهوراً.

شهد ذلك المكان أول خلجات قلبي حين كانت صورة صبرا تتراءى لي في كل اتجاه فأثني أعناق الخيال خوفاً من حب لا يوصل إلى شيء.

انتزعتني يد الأصحاب إلى حديقة جميلةٍ بعد النهر.

قال ناجي وهو يناولني الآيسكريم: ـ ما لك عمار؟ كنت مشرقاً مبتسماً هذا الصباح.

قلت: ـ لا شيء، شعرت بالدوار من الارتفاع.

قال راشد: ـ صحيح، لا تبدو طبيعياً، هل تشعر بشيء؟.

قلت: ـ أبداً لا شيء سوى الدوار، صدقوني.

قال ناجي وهو يمسك بيدي وينحني قليلاً لينظر في وجهي: ـ رأيتك سارحاً في الأعلى، أعتقد أن ذلك ما كدر مزاجك، يسافر الإنسان لينسى، ليخرج من قفص أفكاره وقناعاته وينظر إلى نفسه من الخارج، ما قيمة السفر إذا لم تترك همومك وتعود إلى طبيعتك الأولى وفطرتك السليمة، هل تعلم أن القرارات الصعبة تُتَّخذ بعد الإجازات، فالمرء لا يحسن التفكير في المعمعة ولا يرى القضية التي يعيشها بحياد، وما إن يبتعد حتى تتكامل أجزاء الصورة فتتضح خطوطها وأبعادها ويدرك ما عجز عن إدراكه، ما هذه البعثة سوى منحة من الله تعالى نرفه بها عن أنفسنا.

كم هو رائعٌ أن يكون لي زميل وصديقٌ مثل ناجي يشع العطف من عينيه رغم ما يغلف شخصيته من حدة أهل الخليج، شابٌ بلا قيود ولا عقد، أو هكذا يبدو، يعجبني وضوح أفكاره ونضوج شخصيته،

يقول ما يعتقد من دون مواربة، ويفعل ما يحب ولا يكثر النظر في العواقب، أظن أن شخصية والده وعمله مع الأجانب قد ساعداه على فهم وتقبُّل أنماطٍ أخرى من الحياة وجعلاه أكثر إدراكاً لمعضلات العصر.

أما راشد، فابن أحد تجار القرى التقليديين الذين لا يحسنون الإمساك بالقلم ولا يحبون شيئاً جاء به عصر الكهرباء، ممن توقف بهم التاريخ قبل اكتشاف النفط، فقاوموا التغيير أياً كان نوعه واتجاهه.

كنت سعيداً بصحبتهما، تبقى نقاشاتنا مشتعلة ومفتوحةً أحياناً إلى اليوم التالي، لكن صداقتنا تنمو وتترسخ كل يوم.

استعدت صفائي في المساء، ومع أني لم أرها منذ الأمس إلّا أن شعوراً يشبه الفرح ظل يداعب خيالي، يخطر لي طيفها فيخرجني من نفق الوجوم ويطبع الابتسامة على شفتي، رغم أنه لم يحدث ما يؤكد ميلها أو تسليمي أمام حشد مغرياتها، أكان الحدس هو ما يدفعني؟ أم أنها الأرواح تتآلف في عالم لا نعرفه ولا نملك غير مسايرته؟.

نزلت باكراً علِّي أجدها أو أجد عمتها لكن أحداً لم يكن هناك، تناولت الإفطار وقرأت الجرائد في ذات المكان، ورحت أبحث في ثنايا الصحف عن خبرٍ يثير اهتمامي أو ينتشلني من وهم الانتظار، لم أكن أسميه حينها انتظاراً مع أنه لم يكن شيئاً آخر!.

أسترق النظر إلى البهو بين وقتٍ وآخر استجابة لأمل أن تكون قد حضرت من دون أن أراها.

أمضينا نهارنا بالتسكع في الأسواق وأطلنا التجوال نفتش عن ملابس لراشد، لم يكن يجد المقاس أو اللون المناسب فإذا وجده لم تعجبه الأسعار، هكذا حتى عدنا متعبين آخر النهار.

لمحت السيدة حال دخولي بينما لم يبد من صبرا سوى شعرها الكستنائي وكتفيها.

ملأت وجهها الابتسامةُ وهي ترد التحية وتطيل نظرةً خيل إليَّ أنها تقول أين كنت؟.

لم أنتبه إلى أن السيدة تحمل في يدها تذاكر سفر حتى استأنفتا حديثهما حول الرحلة، فانتابني ما يشبه الخوف!.

أعطيت نفسي الحق في السؤال: ـ إذاً سيدتي ستسافرين؟.

قالت: ـ نعم يا بني، لقد أنجزت عملي. ثم أردفت كأنما تعتذر من قريبتها: ـ هناك ما ينتظرني في دبي، كنا نتحدث عنك قبل قليل، أردت أن أشكرك من أجل المغلف ـ وتضحك ـ ومن أجل دعوتك اللطيفة، فرصةٌ طيبة يوم تعرفنا إليكم.

قلت: ـ العفو يا سيدتي، ومتى ستسافرين؟.

قالت: ـ غداً صباحاً إن شاء الله.

نزلت في المساء فوجدتها غارقةً في قراءة كتاب السباعي الذي أعرتها، لم أشأ أن أزعجها لكنها تنبهت لوجودي ورحبت مبتسمةً وهي تنزع نظارة القراءة وتفرك عينيها.

تختصر ابتسامتها الكثير من الجمل وتحملها إلى قلبك من دون عناء.

قلت: ـ آمل ألّا أكون قطعت عليك، كنت أريد مكاناً آخر حينما رأيتك مستغرقة.

قالت: ـ هذه آخر ليلةٍ لي هنا وأحب أن أتحدث معك، يمكنني أن أجد الكتاب في وقتٍ آخر، لكن ليس من السهولة أن نجد متحدثاً لبقاً يعجبنا عقله ومنطقه.

قلت ضاحكاً: ـ هذا كثير يا سيدتي.

انسحبت أحاديثنا على السفر والشعر وانتهت إلى حيث أريد،

كنت أود أن تحدثني عن صبرا، فقد صادفت الكثير من الغموض في شخصيتها.

أخبرتني أنها تعاني بعض الانطوائية بعد وفاة والدتها ثم زادتها الغربةُ حين لم تستطع التواصل مع المجتمع الفرنسي رغم الدراسة ورغم السنوات، وهمست لي أنها استغربت تجاوبها معي واندماجها في الأحاديث والحوارات.

قلت: ـ ألا يجدر بها البحث عن عملٍ يساعدها على التأقلم مع المجتمع؟.

قالت: ـ رفضت الوظائف رغم إلحاح والدها، كانت تؤجل وتسوِّف خوفاً من غضبه ثم أعلنت رفضها في المدة الأخيرة، على كل حال ليست لديهم مشكلةٌ مادية، فوالدها يملك بعض العقار في لبنان وهنا في فرنسا، لكن كان من الأفضل لو التحقت بوظيفة كما تفضلت، فللعمل أهداف أخرى غير المال.

حضرت عند موعد مغادرة السيدة فوجدتها وصبرا تهمان بالخروج، أحببت أن أرافقهما إلى المطار أو على الأقل إلى السيارة لكنهما راحتا تتهامسان، انتحيت جانباً أقيس خطوي بخطوهما تسبقنا أمتعة السيدة التي قدرت لياقتي بمصافحةٍ حارةٍ عند باب السيارة، التقت نظراتنا من خلف الزجاج، أهتف لها بقلبي وأومئ بكفي لعمتها.

رحلت من دون أن تترك موعداً أو أملاً بلقاء، ورحل السبب الذي كان يأتي بها إلى هذا المكان، ما العمل وما الوسيلة وأنا لا أعرف سوى اسمها الأول؟.

كيف يبحث المرء عن ضالة في بلدٍ هو نفسه ضالةٌ فيها، ومضى النهار وأنا أجادل نفسي كي لا تراهن على الأمل الذابل وألّا تنتظر الغائب الذي لا يأتي.

اقتنعت أخيراً أنها النهاية، واستقر الأمر مع أن أملاً ضعيفاً كان لا يزال يقاوم تيار الحقيقة.

التقينا في اليوم التالي ليزا وصديقتها السمينة التي نسيت اسمها، وسهرنا في ركن الجاز الذي كان يعجبها.

لم أجدها جميلةً مثلما رأيتها المرة الأولى، أو مثلما رأيتها في ثياب التدريب لكنها كانت مثقفة وواثقة.

تحدثنا عن الأفلام التي نحب فاستغربت معرفتنا بنجوم السينما الأمريكية، وبدت مندهشه عندما تجادلنا في تفضيل مارلون براندو على داستن هوفمان، وتحدثنا عن أداء آل باتشينو المذهل في فيلم (رائحة امرأة) وكيف جسَّد نزاع المبادئ والمصالح وصراع اليأس والأمل، كانت تظن أننا نعرض عن كل ما يأتي من أمريكا.

انطلق لسانها فتحدثت عن السينما والموسيقى والرقص، لكن الحديث عن أمريكا يظل يتجه دائماً صوب السياسة.

قال راشد: ـ كل أموركم جيدة لولا سياستكم الخارجية وتأييدكم لإسرائيل.

قالت الفتاة: ـ إسرائيل دولة ديمقراطية صغيرة في محيط من الأنظمة الشمولية التي تناصبها العداء، وأمريكا مسؤولة، بحكم مكانتها العالمية عن أمن العالم، لذا نحاول أن نضمن لها الأمن، لا أكثر.

قال راشد: ـ بل جئتم بشعب غريب أسكنتموه وطن أناسٍ أبرياء أصابهم التشريد والقتل بسببكم، وما زلتم تدعمونه ليبني حضارته الجديدة على جثث الضحايا من السكان الأصليين.

تدخل ناجي حين سكتت الفتاة أمام اندفاع صاحبنا: ـ راشد، ليزا ليست مسؤولةً عن السياسة الأمريكية ـ ويضحك ـ.

فطن راشد، فأسند ظهره إلى الخلف وانسحب.

قلت: ـ تخيلوا لو لم تكن الحضارة الغربية والأمريكية خصوصاً هي السائدة، لو كانت الصين مثلاً أو اليابان لمن يعرفون ماضيها الاستعماري، كيف سيكون شكل العالم!؟.

قال ناجي: ـ حتى العرب لم تكن حضارتهم مثالية بعد الخلفاء الراشدين، أبو العباس السفاح كان يقتل الرجال ويفرش فوق جثثهم للغداء، كانوا يملأون حجر الشاعر بالدنانير من بيت مال المسلمين حين يمدحهم وينشد ما يطربهم، بينما يتضور الناس جوعاً. فأين العدل وأين الرحمة التي يدَّعون!؟.

قال راشد: ـ ليست هناك حضارة بلا أخطاء، حضارة المسلمين هي الأفضل بين الحضارات الانسانية، ألم تقرأ قول المستشرق «لم يشهد التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب».

قال ناجي ضاحكاً: ـ نستشهد فقط بما يناسبنا من أقوالهم!إن شئت أتيتك من تراث المستشرقين بعشرات المقالات التي تنتقد العرب وماضي العرب، فلماذا نتجاهلها؟.

قالت المرأة: ـ على كل حال، الحضارة الإنسانية واحدةٌ تأخذ من بعضها وتتطور من تجاربها المختلفة.

قلت: ـ أعتقد أن ضعف التواصل هو ما يصنع سوء الفهم وينمي النظرة السلبية تجاه الآخر.

استمرت السهرة وطيف صبرا يعرض لي بين حين وآخر فيحدث ما يشبه الارتعاشة الخفيفة في قلبي، أتساءل إن كنت سأراها، فيصعب عليَّ الإقرار ألّا أمل.

مضى يومان طويلان بدا بعدهما كأنما استسلمت لليأس، لكنها أخلفت ظني بتلك الرسالة: «سيد عمار، اتصلت بك ولم أجدك، سوف أحضر الساعة الثامنة هذا المساء، معي لك رسالة».

أعادت رسالتها خلط أوراقي وأشرق مصباح الأمل، تصورت أنها

تهتم لأمري وإلّا لتركت الرسالة عند موظف الاستقبال، سايرت رغبتي وأحببت هذا الشعور متجاهلاً نداءات الشك والخوف.

وبقدر ما فرحت بقدومها بقدر ما خفت مما تخبئه عيناها الجميلتان. ألحت عليَّ التساؤلات بينما انتظرها، تُراها مرتبطة أم مغرمة تعيش قصة حب، لكني ما لبثت أن انسحبت من خيالاتي المزعجة كمن يغمض عينيه لكي لا يرى الحقيقة.

قمت إليها كأنما أستقبل قادماً من السفر، أخذت بيدها نحو مقهى الفندق المجاور للبهو، هناك جلسنا على كرسيين نصف متقابلين حول طاولةٍ صغيرة، نظرت إليها متمعناً كأنما لأول مرة.

كان اهتمامها بمظهرها لافتاً، فقد رتبت زينتها واختارت ثيابها بعنايةٍ أوحت لي بشعورٍ جميل لا أدري ما هو بالضبط، لكن الفرح والتفاؤل غمرا قلبي تلك الليلة.

أعددت قبل وصولها كلماتٍ تقترب من حمى قلبها، لكني أضعت الكلام في زحمة حضورها فعرقت كفاي وتشابكت عباراتي وانفلتت منِّي دفة الحديث، وبينما ألملم أشتات الكلمات بادرت بنقل تحيات عمتها وأظهرت من حقيبة يدها مغلفاً يحوى تذكرة لشخصين قالت إنها أهديت من إدارة المعرض لعمتها وأنها تهديها لي وتطلب مني أن أقبلها.

قلت، وقد استعدت بعض توازني: ـ أشكرك وأشكر السيدة لبنى، ويسعدني قبول هديتكم لكن لي شرطاً واحداً!.

قالت، وهي ترفع نظرها عن التذكرة وتميط شعرها عن وجهها: ـ شرط!، ما هو الشرط؟.

قلت، مبتسماً: ـ أن تحضري معي، أليست الدعوة لشخصين!؟.

قالت، وتنظر إليها من جديد وتبتسم: ـ بلى.

قلت: ـ إذاً تكونين الشخص الأول.

سكتت قليلاً ثم قالت بضحكة مجاملة: ـ سنرى.

قلت، ولمحت في عينيها القبول: ـ لا بد أن تذهبي لكي أذهب، لا يمكن أن أذهب وحدي.

قالت، وهي تطوي التذكرة بين يديها بحركةٍ عفوية: ـ بقي الآن بضع ليالٍ، سنقرر عندما يحين الوقت.

طلبت كأساً من الماء فقد جف حلقي.

قلت متمثلاً بعد مسامرةٍ لطيفة وحديث دافئ منحني بعض الثقة: ـ

قلبي إلى ما ضرني داعي   يُكثر أسقامي وأوجاعي
كيف احتراسي من عدوي إذا   كان عدوي بين أضلاعي

ثم أردفت: ـ أرجوك، لا تؤاخذي عفويتي.

قالت بابتسامة امرأة تبحث عمَّن يدللها: ـ أنت هنا في باريس، قل ما شئت وسوف أستمع، لا يعني هذا أني موافقةٌ على كل ما تقول لكني بالتأكيد سأستمع لك.

لفتت إيجابيتها انتباهي وشجعتني، ما جعلني أكثر طمعاً بوصلها، كنت أطيل الحديث لأسرِّح النظر بين عينيها ومعالم وجهها الجميل وجسدها العاجي الذي يليق به قول ذي الرمة: ـ

لها جسدٌ مثلُ الحرير ومنطقٌ   رخيمُ الحواشي لا هراءٌ ولا هجرُ
وعينان قال اللَّه كونا فكانتا   فعولانِ بالألبابِ ما تفعل السحرُ

تقربت منها وعرفتها ذلك المساء أكثر مما عرفتها في لقاءاتنا الماضية، يبدو أن القلوب تستكين للرقابة مثلما تستكين الألسن والعيون.

سرقنا الوقت الجميل إلى أن لمحت ساعةً أنيقةً تزين معصمها.

قالت: ـ يا إلهي تأخرت كثيراً، يجب أن انصرف.

قلت، بينما أقوم معها مودعاً: ـ صبرا هل أطمع بلقاء.

قالت مبتسمةً كعادتها : ـ سنرى .

قلت : ـ ألا تحسنين كلمةً غيرها !؟ .

قالت بلهجةٍ ودودة وقد زال الكثير من تكلفنا : ـ يا لك من عجول، قلتُ سنرى .

عدت مزهواً كأنما فزت بقلب الفتاة، فلم تكن «سنرى» سوى نعم متمهلة .

لم أنم تلك الليلة إلّا قليلاً وعاودتني التساؤلات، تُرى حقاً أحببتها أم أنه العبث والتسلية وإغراءات التجربة الجديدة؟ وإن كان حباً فإلى أين يمضي وعلى أي شاطئ سيتوقف .

أقول لنفسي أحياناً دع الأمور لطبائعها وساير الأقدار، لكن الخوف ما يلبث أن يعود ليعتري قلبي، من قال إنها أحبتني أو حتى أعجبت بي، فمجرد حضورها لا يعني شيئاً في ثقافة القوم، ربما جاءت للمجاملة وإيصال رسالة عمتها ولعل ما رأيته من الزينة كان مصادفةً لا أكثر .

بحت لها ببعض مشاعري ولم تبح هي بشيء، عرفتني وعرفت كيف أفكر بينما لا تزال كلماتها المتقاطعة مستعصيةً على فهمي، «سوف نرى» من قال إنها «نعم»! قد لا تكون سوى «لا» مهذبة، وقد تكون دعني أفكر، لكنها قد تكون أيضاً دبلوماسية الفتاة وحسن تخلصها من معجب عجول .

بدأت أفقد مناعتي وسيطرت صورتها على تفكيري فراحت حصوني تتهاوى أمام طيوفها المتكررة .

* * *

ذهبنا في الصباح التالي إلى حديقة الحيوان في فان سينت فهالنا جمالها لأول وهلة وحسن ترتيبها .

قال راشد، ونحن ننظر إلى الأسود الكسولة من المقهى الصغير

المقابل: ـ حيواناتهم مرفهةٌ أكثر من البشر في بعض بلادنا.

قال ناجي بعد تأمل: ـ لكنها سجينة أيها الشاب الطيب، سجينة! وحدهم الذين جربوا السجن يعرفون كم هو كئيب وحقير، شعورك بالعار وبأن قفلاً مبهماً يستثنيك من الوجود ويحول بينك وبين العالم ينزع من قلبك رغبة الحياة ويجهض كل أمل باسم تصنعه لنفسك في الأحلام.

هل جربت أن تعيش يوماً من دون أمل؟، ينظر السجين إلى باب سجنه كل صباح يحدوه أملٌ بحدوث معجزة، ثم ما يزال يتضاءل أمله حتى يمر على الباب يوم من دون أن يراه، وحتى تفقد الأحلام بريقها فلا تحركه أخبار العالم ولا يستثيره نور القمر حين يطل من شرفة الفناء.

تحدث بمرارةٍ وألم بينما نستمع مندهشين لفيض حزنه الذي لم نألف.

لم نكن نعلم أن لتجربته كل هذا العمق وأنها ما زالت حيةً بداخله كأنما يتحدث من خلف قضبانها.

كان صديقنا ضحية الظروف، ضحية الفارق بين طفرتنا المادية المتمادية وتقدمنا الفكري المتأني، ليس ذنبه أن ابتُعث مراهقاً في الثامنة عشرة من مجتمع محافظ لا يعرف أكثره الأبجدية إلى مجتمع متقدم يقود العالم، من مجتمع لا يرى فيه سوى أمه وأخته إلى آخرَ لا يرى مانعاً في العلاقة بين اثنين أيّاً كانا، من رقابة الأسرة والمجتمع إلى حريةٍ ليس لها حدود.

كانت صدمته الأولى يوم وصل إلى هناك من دون سند من الفكر أو الروح، لا يعرف شيئاً عن الخير أو الشر ولا يملك سوى الوسامة والمال سلاحه الذي هزم به!.

عاد مدمناً ليلقى صدمته الثانية في مجتمعٍ لم يتغير بعد، ما زال

العيب عيباً والحرام حراماً والممنوع ممنوعاً كما تركها أول مرة.

وحده صاحبي تجاوز في ظنه الحدود بينما بقي كل شيء ساكناً في مكانه، كان يعيش في مكان ويفكر في مكان آخر حتى وجد نفسه خلف أبواب السجن الثقيلة يدفع ثمن خطيئةٍ لم تكن بالضرورة خطيئته وحده.

تماسك أسرته وتفهمها لظروفه أسهما إلى حدٍ بعيدٍ في تجاوز المحنة، لكني لم أكن أتوقع أن يحمل كل هذا الألم في قلبه حتى اليوم.

سألت موظفة الاستقبال الأفريقية، لدى عودتنا: ـ هل من رسالة؟.

أجابت مبتسمةً وعيناها مشغولتان على الكومبيوتر: ـ لا شيء حتى الآن.

طريقة اعتذار لطيفةٍ عمَّن لم يتصل أو أملٌ برسالةٍ قد لا تأتي.

عدت إلى غرفتي وتمددت أقلب القنوات علّي أصادف ما يغري بالمتابعة حتى أخذتني الغفوة فلم يوقظني إلّا رنين الهاتف، قلت في نفسي، وأنا أزحف باتجاهه، كوني صبرا، فكانت!.

قالت: ـ سيد عمار، مساء الخير.

قلت: ـ أهلا صبرا، كنت أنتظر هاتفك.

قالت، وهي تضحك: ـ يبدو ذلك على صوتك، كنت نائماً؟.

قلت: ـ لا، فقط نعست قليلاً.

قالت: ـ أه، آسفة، أزعجتك.

قلت ضاحكاً: ـ حبذا إزعاجك آنستي.

قالت: ـ ما علينا، أولاً اتصلت عمتي، سألتني عنك وحمَّلتني لك السلام، ثانياً أما زالت دعوتك قائمة؟.

استيقظت حواسي واعتدلت جالساً في السرير: ـ عليك وعلى عمتك السلام، أما الدعوة فقائمةٌ على الدوام. وأضحك.

قالت: ـ إذاً، متى تحب أن نلتقي؟.

قلت: ـ الليلة.... الليلة أن لم يكن لديك شاغل.

قالت: ـ لا أستطيع الليلة، لا بد أن أجلس إلى جوار والدي.

قلت: ـ عفواً، ما به والدك، سمعتك تتحدثين عنه من قبل مع عمتك، أهو مريض؟.

قالت بنبرةٍ متعبة: ـ يشتكي بعض الأمراض.

قلت: ـ أرجو أن لا يكون وضعه سيئاً.

وبلهجةٍ متسارعة، كأنما أرادت تغيير اتجاه الحديث، قالت: ـ لا، لا، سيكون بخير إن شاء الله. ثم أردفت: ما رأيك أن نلتقي غداً صباحاً؟.

قلت: ـ جيد، هنا في الفندق؟.

قالت: ـ لو غيرنا المكان لكان أفضل، ما رأيك أن نلتقي في مقهى القصر، هل تعرفه؟.

قلت: ـ أظنني أعرفه، أليس الذي في الشانزليزيه؟.

قالت: ـ بلى هو، أراك هناك عند العاشرة صباحاً لنمضي بعض الوقت في التنزه.

أمضيت ليلةً حافلةً بالأحلام مثلما يقضي الأطفالُ ليالي الأعياد، يغمضون عيونهم ليحلموا بالهدايا والأفراح التي يخبئها العيد.

كانت مخاوفي وشكوكي تلوح لي فأعرض عنها وأتجاهلها.

التقينا فقط من أجل أن نلتقي ولأول مرة من دون سببٍ تختبئ خلفه الرغبات. مشيت متسارعاً للقائها من شارعٍ إلى آخر يحدوني الشوق وتحملني الأحلام، وجدتها مشرقةً باسمةً مثل وردةٍ رقيقةٍ تفتحت للصباح بعدما بات يداعبها الندى والنسيم.

طلبت قهوتي وطلبت هي قهوتها الخفيفة بالحليب ورحت أتأمل

مظهرها الجديد، شدت شعرها خلف رأسها مثل بنات المدارس، ولبست قميصاً أبيض قصير الأكمام على بنطلونٍ من الجينز الأزرق الفاتح، وتخلت عن الزينة إلّا سلسالاً من الفضة به الكثير من القلوب الصغيرة، واستبدلت ساعتها بأخرى من البلاستيك الأسود، وعلى الكرسي المجاور حقيبةٌ جلديةٌ سوداء كالتي يحملها السواح على ظهورهم، كان الجوُّ لطيفاً ندياً يثير الرغبة في المرح.

ذهبنا في اتجاه اللوفر من دون أن تخبرني أو أسألها إلى أين نحن ذاهبان.

قالت، وهي تمشي إلى جانبي وتضع يديها في حمالتي حقيبتها: ـ تحب أن نذهب إلى مكان معين؟.

قلت: ـ أبداً، تهمني الصحبة!.

ضحكت وهي تلتفت إليَّ وتشد خطوها قائلةً: ـ إذاً، إلى حيث أفكر.

قلت ضاحكاً: ـ إلى أين؟.

قالت: ـ ألا تحب أن نكون معاً.

قلت: ـ بلى.

قالت: ـ إذاً لا تسأل.

وعلى ظهر مركب مكشوفٍ كأنه الأول، جلست إلى جانبي واضعةً بيننا الحقيبة، وثنت إحدى رجليها فوق الأخرى تتأمل الجسور الجميلة، وتميل من فوق الحقيبة هامسةً ومشيرةً ذات اليمين وذات الشمال إلى حيث معالم باريس الشهيرة على ضفتي نهرها.

التقطت لها لقطات رائعة تمتلئ بها ذاكرتي من خلف نظارتي الشمسية التي منحتني حرية التجوال في ملامحها الرقيقة بينما تنهمك في الشرح.

هدتنا أقدامنا بعد الرحلة إلى حديقة جميلة، وعلى العشب النديِّ

تقاسمنا جذع شجرة عملاقةٍ ألفناها فيما بعد وما تزال بيننا الحقيبة، جلسنا نتحدث عن نفسينا، نذيب الكلفة ونتخلى عن تحفظنا لتبدو معالم إنسانيتنا البسيطة ولنرى بعضنا بشكلٍ أوضح.

مرت بقربنا امرأة تشبه عمتها فتذكرناها وأبديت إعجابي بوضوح أفكارها وبالطريقة الودودة التي تعامل بها الآخرين.

قالت معلقةً، بينما تفتش عن شيء ما في حقيبتها: ـ يسهل التعامل مع امرأة مثل عمتي لا تحتاج إلى الكثير من الوقت لتفهمها وتحدد أبعاد شخصيتها.

تحدثت عن نفسي بأكثر مما ينبغي ربما بسبب الكبت الذي عانيت أو بسبب جاذبيتها، فقد صادفت من سحر منطقها ما يفكك أقفال القلوب، طريقةُ استماعها وإصغائها تستدرجك للمزيد من البوح.

تحدثت باقتضاب عن نفسها وعن دراستها للإعلام في فرنسا وعن عائلتها الممزقة في أصقاع الأرض، ثم أفاضت في الحديث عن لبنان، عن سواحله وشمسه وعن أرزه وجباله الخضراء، كانت تخبرني عن وطنها بحبٍ وافتخار!.

وبقدر ما أخافني الحديث عن كوني متزوجاً وأباً لطفلين بقدر ما أراحتني معرفتها ما كان ينبغي أن تعرف.

استرعت انتباهي حديقةٌ مجاورة تنتصب فيها الكثير من الصلبان فوق ألواح من الرخام الأبيض ويفصلها عن مكاننا سياجٌ خشبيٌّ صغير.

قلت: ـ هذه مقبرة؟.

قالت: ـ نعم، وسكتت تتأملها ثم أردفت: المقابر جزءٌ من كل مدينة ينساها الناس لكنها لا تنساهم. والتفتت إليَّ قائلة: ـ كيف تنظر إلى الموت؟.

قلت، وقد فاجأني السؤال: ـ ليست أعمالي صالحةً تماماً، وأنتِ؟.

قالت، وهي تنظر إلى المقبرة: ـ أجده مغرياً أحياناً، ربما لأنه المجهول، صحيح أني أهابه لكنني لا أخاف منه.

ترك الحديث، الذي بدا لي غريباً بعض الشيء، أثراً واضحاً على وجهها.

أنشدت وقد أخذني التيار من دون أن أفكر: ـ

لكل أناسٍ مقبرٌ بفنائهم فهم ينقصون والقبور تزيدُ
فما إن تزال دار حيّ قد أُخربت وقبرٌ بأفناء البيوت جديدُ
وهم جيرةُ الأحياء أمّا مزارهم فدانٍ وأما الملتقى فبعيدُ

رددت شطر البيت الأخير بنَفسٍ طويل كمن يستعذبه: ـ وأما الملتقى فبعيدُ.

اصفرَّ وجهها وراحت تفتح علبة الحلوى الصغيرة وتناولني واحدة بينما يسود الصمت، شعرت أنه ما كان ينبغي أن أقول ما قلت لكن لم أكن لأعلم أن مجرد رؤية مقبرة ستقلب مزاجها، وخطر ببالي أنها غير طبيعية، مريضة أو حزينة، لا أدري لكنني وجدت شعوراً من هذا القبيل.

قلت، ونحن نغادر المكان: ـ صبرا، ما تقولين في الصداقة؟.

قالت، تحاول الخروج من نفق الصمت: ـ أفضل من التدخين! مع أن كلاهما قد يضر.

ضحكنا واستعدنا جو المرح ثم ما لبثت أن أعدت عليها السؤال.

قالت: ـ الصداقات الجيدة هي أفضل ما نكتسب في الحياة، أعجز الناس من يعجز عن كسب صديق.

قلت: ـ قرأت لبعض الحكماء «أعجز منه من يضيِّع أصدقاءه»، الصداقة هي الوجه الآخر للحب، وإذا كان الحب مقترناً بالعاطفة

فالصداقة مقترنةٌ بالعقل، الحب يغري بالتهور والتملك ويعطي الحياة طعمها، والصداقة تغري بالالتزام والهدوء وتعطي الحياة قيمتها».

ثم قلت بعد قليل: ـ تعتبرينني صديقاً؟.

قالت: ـ آمل ذلك، ما زال الوقت مبكراً، نحن لا نختار أصدقاءنا بالمنطق مثلما يختار التجارعملاءهم، الصداقة الحقيقية هي عملية التقاء وتآلفٍ للأرواح، تشبه نبتة صالحةً يتعاهدها إثنان بالرعاية، صدقني إني أعرف الإنسان الأصيل من معاملته لأصدقائه ووفائه لعهودهم.

قلت: ـ لكن الناس يختلفون في تحديد التزاماتهم تجاه أصدقائهم.

قالت: ـ صحيح، قد يكون ذلك راجعاً إلى اختلاف العادات والخلفيات الثقافية والفكرية.

قلت: ـ وقد تكون الفوارق الشخصية في الأخلاق والالتزامات.

قالت: ـ قد يكون ذلك صحيحاً أيضاً، لكنني أتحدث عن صداقةٍ تتحد فيها روحان أو تقتربان من الاتحاد، الصديق الذي أتحدث عنه هو من تحتاجه على الدوام، تبشره إذا فرحت وتشتكي له إذا حزنت، هو من يحمل معك همومك ويقاسمك آلامك ومن تترك لدموعك في محضره العنان وتثرثر من دون تحفظ، لا أعني الذي تلبس لملاقاته أجمل الثياب وتنتقي لتحيته العبارات، قد يكون صديق عمل أو منفعة أو متعة لكنه ليس الذي أعنيه.

استمعت إليها مأخوذاً بحسن منطقها وبتقارب أفكارنا.

قلت: ـ تعرفين لي أحداً من هذا النوع؟.

قالت ضاحكة: ـ إذا وجدته فلن أعطيه لأحد!.

قلت، ونحن نسير قرب مسلة الكونكورد مشيراً إليها بنظري: ـ ترى هل سيستعيدها أصحابها؟.

قالت: ـ إذاً ستفقد قيمتها.

قلت: ـ كيف؟.

قالت: ـ لأنهم، أو لأننا جميعاً لا نحسن استخدام ثرواتنا ولا نضعها في أماكنها الصحيحة، أتعلم يا عمار أن من أهم مشاكلنا تقديرنا الخاطئ لقيمة الأشياء.

قلت: ـ صحيح، لكل شيء أهميته في وقته ومكانه، صادفت قوماً يفنون أعمارهم خلف مناضد الأعمال يجمعون المال ولا يلتفتون إلى الحياة ومتعها إلا بعد فوات الأوان حين لا يبقى من أجسادهم ولا من عقولهم ما يحتمل المتعة، خسروا الحياة مرتين، مرةً بالشقاء خلفها ومرةً بالعجزعن مجاراتها.

قالت، وهي تلتفت إلى المسلة وراءنا: ـ الفرنسيون لم يسيئوا إليها، نصبوها في أهم ميادينهم، لم ينسبوها إلى أنفسهم ولم يسموها باسم رئيسٍ أو ملكٍ من ملوكهم، أعتقد أنهم منصفون، أليس كذلك؟.

قلت: ـ لكنهم اغتصبوها من أهلها وأرضها.

قالت: لم يغتصبوها، اشتراها نابليون مقابل مطابع بولاق، ولو تركوها لبقيت ملقاةً في الوحل تعشش في نقوشها الطحالب، هنا في الكونكورد أفضل لها، تستمتع برؤيتها العيون!.

قلت: ـ يا لأمتي، تبيع مقدساتها وآثارها ثم تجلس لتنتحب عليها.

قالت: ـ أعظم من هذا يا سيدي رحيل الشباب ونزيف العقول التي تهجر الوطن، أمةٌ تقدس لصوصها ومرتزقيها وتطارد أحرارها ومبدعيها.

عدنا إلى الفندق فوجدنا الأصحاب ينتظروننا في البهو، بادرتهم بابتسامتها الناعمة وهي تضع عن ظهرها الحقيبة، لفت انتباههم

مظهرها الجديد، وراحت تحدثهم عن نزهتنا بينما لزمت الصمت مفكراً فيما دار من حديث.

قالت: ـ لم أركب قارباً في السين منذ سنوات.

قال راشد: ـ إنه لشيء ممتع، ما الذي يمنعك؟.

قالت: ـ لا أدري، لكن الإنسان لا ينجذب عادةً إلى الأشياء التي ألف وجودها، يبحث دائماً عن شيءٍ جديد.

قال ناجي مازحاً: ـ لماذا لا تصحبونا معكم؟.

قالت، وهي تنظر إليَّ: ـ سنذهب إلى مركز بومبيدو يوم الجمعة إن كان يعجبكم الحضور؟.

قلت: ـ نعم، إنها فرصةٌ طيبة بصحبة الآنسة.

تحدثنا معها بينما عدت لالتزام الصمت مقلباً أفكاري في ما يحدث ومتأملاً مقدار السعادة التي أحدثتها إطلالتها.

استأذنت للمغادرة بعدما اعتذرت عن عدم قبول دعوة ناجي للعشاء.

رغبت أن أصحبها إلى البيت لكنها رفضت، فصاحبتها إلى المحطة القريبة.

قالت، ونحن ننتظر الميترو: ـ ألا تحتاج رقم هاتفي؟.

قلت: ـ بلى.

قالت: ـ فلماذا لا تطلبه؟.

قلت: ـ أمممم، خفت أن أحرجك.

ضحكت وهي تفتش عن شيء ما في حقيبتها: ـ يا لك من بدويٍّ.

قامت إلى الميترو وهي تضع يدها على كتفي وتقول: ـ أرجو أن لا تغضب من مزاحي.

قلت: ـ أبداً، المزاح دليل المودة.

اختفت عن ناظري بعدما رمقتني بنظرةٍ باسمةٍ كمن يعلق على آخر ما قلت.

عدت وفي يدي رقم هاتفها كأنما هو دعوةٌ لمواصلة الطريق، عدت مسكوناً بطيفها وبصوتها وبعطرها الربيعي.

لم تكن الأمور واضحةً حتى ذلك الحين، أفكر بالحب بينما تتحدث عن الصداقة، أعرف الفرق بين الصديق وبين الحبيب رغم إنَّ قلبي ينجرف متجاوزاً حدود المعقول، فمن السهل أن تقع في حب مَنْ تصادق، كما يقال.

ولكثرة ما يقال من أنني عاطفي يسهل التلاعب بمشاعري ألح عليَّ هاجس التغيير، كنت أود أن أكون أكثر تعقُّلاً وواقعيةً ضمن عادات تعجبني وأحاول المداومة عليها علَّها تصبح جزءاً من شخصيتي، كنت مقتنعاً بإمكانية التغيير!

سهرنا تلك الليلة مع ناجي وليزا، دُهشت حين علمت أنها تحمل شهادة عالية في علم الاجتماع بينما لا يوحي مظهرها بأكثر من طالبة في الجامعة، ولأنه لم تكن لنا همومٌ أو ذكريات مشتركةٌ، تحدثنا في ما يفعل الناس في الأمور العامة، كانت تسأل، ربما بإيحاء من تخصصها، عن القوانين الاجتماعية والأسرية في الإسلام، ومع التزامي بتحاشي الحديث في الدين أوالسياسة خارج الوطن خوفاً من المطبات والإحراجات فقد وجدتني مندفعاً في تلك المناقشات.

سألت بمودَّة ـ رغم أنها لم تكن تبدو هي نفسها الفتاة التي علمتني خطوات الفالس ـ إن كنا نمانع أو نتحسس من الحديث عن ديننا أو عاداتنا، وقالت إنها تحب أن تسمع وجهة نظرنا.

قال راشد ضاحكاً: ـ بل نفتخر بها ونتحدث عنها ملء أفواهنا.

قالت: ـ أود أن أسأل عن الحجاب، لماذا تفرضون على نسائكم كل هذا العزل عن الحياة.

قال ناجي: ـ الحجاب في أصله شريعةٌ دينية تضع حدوداً لاختلاط الرجال بالنساء محافظةً على القيم والأخلاق العامة، لكن بعض المجتمعات تبالغ في فرضه كنوع من المزايدة بالتدين وادِّعاء الفضيلة، لم تكن المرأة في العهود الأولى للإسلام معزولةً تماماً عن الرجال، كانت تمارس التجارة وتشارك في الحروب وتصلي مع الرجال في المسجد.

قال راشد: ـ الحجاب فريضةٌ وصيانةٌ للنساء، المرأة مصونةٌ عندنا مثل الجوهرة لا تراها كل العيون، وإذا كانت نساؤنا مقتنعات بالحجاب فما الذي يغضبكم؟.

قالت ضاحكة: ـ قد يألف الأسير قيده يا سيدي، تطورت الإنسانية ولم تعد المرأة بحاجةٍ إلى حجابٍ أو وصايةٍ، النساء اللآئي يدافعن عن القيود هنَّ من لم يجربن الاستقلالية والحرية.

قلت: ـ الغرائز الإنسانية لا تتغير، ما أكثر جرائم الاغتصاب والتحايل على النساء واستغلالهن عندكم، أليس ذلك صحيحاً؟.

قالت: ـ قد يكون صحيحاً في حالات محدودة لكنه أرحم من الحجر والوصاية.

قال ناجي: ـ على كل حال، بدأت المرأة في الخليج تشق طريقها، هناك اليوم الكثير من الموظفات وسيدات الأعمال الناجحات والأكاديميات المتفوقات في مجتمع لم يسمح بتعليم النساء إلا قبل أربعة عقود، صحيح أن هناك تياراً تقليدياً لا يرى أن تبرح المرأة بيتها لكنه آخذٌ في التراجع أمام المدِّ المتنامي لمناصري حقوق المرأة، فالتقليديون لا يملكون سنداً قطعياً من الشريعة يمنعها من النزول إلى معترك الحياة.

قال راشد، وقد طبعت على شفتيه ابتسامة: ـ حق المرأة صار

معروفاً ومقدساً يدافع عنه الجميع، لو ناقشتم حقوق الرجل لكان أولى.

قلت: ـ هناك اختلاف في المفاهيم، فما ترونه إكراماً للمرأة قد لا نراه ولا تراه نساؤنا كذلك، وما نعتقده إهانة قد لا تعتبرونه كذلك، مشكلتنا هي مشكلة مفاهيم وخلفيات ثقافية، ترون العالم من خلال إرثكم الخاص وأعرافكم التي تحاولون فرضها على الآخرين.

يعتقد الناس في بلادنا أن الإسلام نظم الحياة وأسند للمرأة مسؤولياتها التي تناسب فطرتها وطبيعتها، وجعل لها من الحقوق ما يحفظ كرامتها من ابنة مدللة وأخت عزيزة مكرمة إلى زوجةٍ حبيبة وأمٍ مقدسةٍ يقترن رضى الله برضاها.

قالت ضاحكة: ـ هذا وصف مثاليٌّ، لا يوجد دائماً على الأرض، نحن نتكلم عن الواقع، النساء عندكم مسلوبات الإرادة، يعاملن كقاصرات، ولا أعتقد أن الدين يفرض عليهن كل هذه القيود وبالشكل الذي تطبقونه في بلادكم، لكنكم تقرأون ما يخص المرأة قراءةً متشددة وإلّا فما تفسيركم لاختلاف وضع وصورة المرأة وحقوقها في بلادٍ إسلاميةٍ مختلفة.

بدا نقاش المرأة علمياً وموضوعياً على غير ما توقعت، وبينما أخذتني وراشد الحماسة للدفاع عن مبادئنا وقيمنا تبنى ناجي موقفاً متأرجحاً قد يكون أقرب إلى وجهة نظرها.

سألتها، وقد ساد جوٌّ من الألفة، ما الذي جاء بها إلى باريس؟.

فأخبرتنا أنها أستاذةٌ زائرة في إحدى الجامعات الفرنسية، تشارك في بحوثٍ ودراسات حول نظم الحياة والتطور الاجتماعي في فرنسا وأوربا الغربية.

كنت أتصل بوالدي كل أسبوع تقريباً، أحسب الوقت لأجده خارجاً من صلاة الجمعة ينتظر الغداء، فأصادف عنده بعض إخوتي،

أما نهلة فكانت في بيت أهلها، ولا يستحسن للنساء هناك الرد على الهاتف، لذا تعودت أن أتصل ثم أنتظر وقتاً قبل أن أعود لأطلبها من جديد، وغالباً ما تعطي السماعة لابني سلطان فيشد صوته قلبي من أعماقه.

بدت صبرا أكثر تألقاً في لقائنا التالي، لم أنتبه إلى محطات الميترو التي اجتزناها، كنت مشغولاً، أتأملها بينما انشغل الأصحاب يتهامسون بشأننا.

هالنا المنظر لأول وهلة وكأنه مصنعٌ أو بناء لم يكتمل بعد، وتجاذبتنا أيادي الرسامين والمهرجين المنتشرين في الساحات المحيطة بينما نطوف حول المركز نستعرض مجموعات الفنانين والسياح.

توقفنا لدى أحد أولئك الذين يرسمون بالدهان المضغوط، كان أشبه بطفلٍ يعبث بالألوان فوق بعضها، يثبت لوحته على الأرض ويدور حولها بأدواتٍ ليست سوى مسطرة وبضع قصاصاتٍ من الورق المقوى يحركها باتجاهات مختلفة فتعطي نتائج مبهرة.

لم يكن في نيتنا الوقوف لكن غموض اللوحة شدَّنا لمتابعة ما يحدث وفعلاً أعجبتنا ما دفعني لشرائها.

من تلك السلالم المتحركة خارج المبنى أجلت النظر في الحشود، أفواجٌ من السياح، رسامون ومهرجون في الهواء الطلق وعازفون هواة تتخلل نغماتهم الضوضاء.

عبرنا أقسامه المختلفة فلم يسترعِ انتباهنا شيء حتى تفرقنا، أنا وصبرا إلى قسم الأدب العربي وناجي إلى قسم الأدب الإنجليزي، أما راشد فقد فضل أن نلتقي به حيث يشير من خلف الزجاج في أحد المقاهي المجاورة بعدما ننتهي.

رحت أتصفح الكتب وأتنقل من رف إلى آخر بينما أكبَّت صبرا

على قراءة مقال عن كتاب الشعر الجاهلى لطه حسين صادفته في إحدى المجلات. استغرقنا في جدل هامس حول نظريات طه حسين المثيرة للجدل وأساتذته الفرنسيين الذين ساهموا في صياغة قناعاته المريبة قبل أن ننتبه إلى تأخرنا عن صاحبينا اللذينِ استوقفانا عند رسام الكاريكاتير وكان يستكمل لوحة يرسمها لراشد.

ضحكنا كثيراً حين تأملناها، عجيبةٌ قدرة هؤلاء الفنانين.

عرض الشاب أن يرسمني وقال إن لي أنفا مضحكاً لكنني رفضت، فلم يكن لي من الثقة ما يسمح لهذا التايلاندي أو الفلبيني الشيطان أن يجعل من صورتي أضحوكة.

جلسنا بعد طول التطواف في مطعم الماكدونالدز القريب من المركز، أتذكر أن راشد تمثل بأبياتٍ وهو يتأمل رجلاً مسناً يلبس ملابس مراهق ويعقد شعره الأشيب خلف رأسه: ـ

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ ... كما قد كنت أيام الشبابِ
لقد كذبتكَ نفسُك ليس ثوبٌ ... قديمٌ كالجديد من الثيابِ

قالت صبرا: ـ الناس يعيشون الحياة هنا كما يشتهون، لم تعد هناك حدودٌ لما يفعله الشاب أو الأشيب، صارت مفاهيم الحياة متداخلةً إلى حدٍ كبير.

قلت: ـ لكنني أميل إلى رأي راشد، فلو كان منظره لمراهق لكان مقبولاً.

قالت: ـ وأنا معكم، لكننا ننظر بغير عيونهم.

* * *

أصبحنا نتحدث بتفاهم أعمق ومن دون تكلف، نلتقي في المقهى المجاور للفندق فقط من أجل أن نلتقي، نتحدث عما يهمنا وعما لا يهمنا، أحببتها وتعودت صوتها وعطرها حتى صارت باريس لا تعني شيئاً من دونها.

جلسنا ذات ظهيرةٍ تحت شجرتنا التي ألفنا ظلها.

قالت: ـ سأريك شيئاً ممتعاً. وراحت تنزع خفيها وجوربيها، ففعلت مثلها ورحنا نمشي حفاة على العشب الأخضر نحو بائع الآيسكريم، كان ممتعاً حقاً.

حدثتني عن والدها الذي هجر لبنان إلى باريس وهجر باريس إلى شقته ووحدته، لا رفيق له ولا أنيس إلا الكتب والذكريات، حدثتني عن بطولاته في الحرب وعن هزائمه وانكساراته في السلم، عن مرضه وعزلته بعدما خسر الحرب التي نذر لها كل ما يملك وبعدما أخرجوه كسيراً من وطنه.

تحدثت عن هجرة أخيها إلى أمريكا وانقطاع أخباره، قالت تصف تلك الظروف: ـ لم يكن أخي يجيد عملاً سوى القتال، ولا يحمل شهادةً أو ثقافةً سوى ثقافة الحرب، كان في الحادية أو الثانية عشرة عندما نشبت المعارك لأول مرة فشبَّ على أصوات القذائف وتشبعت روحه برائحة البارود، كان يشغل نفسه بالقتال لا لشيءٍ أحياناً سوى القتال، هكذا وجد نفسه عاطلاً عن العمل بعد توقفها، وشعر بالفراغ والضياع مثل بني جيله الذين فوجئوا بأبناء المغتربين والأغنياء المتسلحين بالعلم والمال يمسكون بزمام الأمور ويزيحونهم إلى الهوامش.

جميعنا شعرنا بالفراغ حين توقفت الحرب، كنا نقضي أيامها خلف النوافذ، نراقب تبادل المواقع وتراكض المحاربين في بقايا مدينة أشبه بمدن الأشباح، يتخلل هياكلها دخان الحرائق وتفوح من خرائبها روائح الموت، نقضي ليالينا الطويلة في الملاجئ على أضواء الشموع الخافتة نسمع الأخبار من دون أن نصدقها، كان من ثقافة الحرب ألّا تصدق شيئاً فالجميع يكذبون سوى القذائف، وحدها كانت صادقةً ووحدها كانت لا تميِّز بين من يحمل السلاح

وبين من لا يحمل سوى الدمى، بين من يحمل القرآن وبين من يحمل الإنجيل، تبتعد أصواتها حتى نقول ذهبت ويداخل النعاس عيوننا الخائفة المتعبة ثم تعود فتقترب حتى تمتزج بصراخ الأطفال وعويل الأمهات.

نخرج في الصباح لندفن موتانا واجمين لا نجد في مآقينا دمعةً نجاملهم بها، كان الموت يعيش بيننا، يعرفنا، يعدُّنا كل مساء ليختار من سيذهب بهم إلى المقابر صباح اليوم التالي بنفس الترتيب ومن نفس الطريق التي لم نعد نعرف غيرها.

نضبت أحلامنا فأمسينا نعيش اليوم من أجل اليوم، نتحسس بعضنا كل طلعة شمس لنرى إن كنا لا نزال أحياء، ولنضيف البارحة إلى رصيد أعمارنا، لم تكن لنا أحلام سوى أن نعيش، هكذا تعودنا وهكذا صار للحرب عاداتها وتقاليدها وإشاعاتها وأكاذيبها بل ونكاتها.

أصبحنا نشجع فرقاء الحرب مثلما يشجع الناس فرق كرة القدم، نسمع عن انتصاراتهم وعن هزائمهم ونبدل ولاءاتنا كما يفعل المشجعون، ومع أن والدي كان قائداً لأحدى فرق القتال إلّا أن ذلك لم يكن يعنينا كثيراً، ربما لأنه لم يكن يطلعنا على شيء أو لأننا لم نكن حينها سوى أطفال، أخي مازن يعرف عن والدي ما لا نعرف، يغيب معه، يقاتل إلى جانبه، يساعده ونادراً ما حضرا إلى البيت معاً.

يتسلل والدي مرةً أو مرتين كل أسبوع، يتفقد حاجاتنا ويطمئن علينا ثم يعود إلى معسكره في ذات اليوم، نعرف وقت حضوره عندما تتزين أمي، وحدها كانت تعرف المواعيد!.

ما زلت احتفظ بصورته في ذاكرتي حين دخل علينا ذات صباحٍ عاصفٍ بهدير الدبابات وأصوات القنابل، قوياً لا يذعن للوهن،

جباراً لا يعرف الخوف، يمشي واثقاً مثل ملكٍ متوَّجٍ بينما تتمزق البنايات من حولنا وتتطاير الأشلاء.

تجاوز نحونا الأسر المتراصة بقوامه المهيب ووجهه الرجولي وشاربيه الكثيفين مثل فارسٍ جبليٍ أصيل، فهمت نظرات النساء له، كم كان يأسرهن حضوره الطاغي وكبرياؤه، وأدركت أن المرأة تحتفظ بنوازعها حتى والموت لدى الأبواب.

تحدثت عن والدها بالكثير من الفخر قبل أن تتذكر أصل الحديث عن أخيها فتنسحب على وجهها علائم الأسى.

استأنفت: ـ دب الخلاف بين والدي وأخي منذ موت أمي في آخر أعوام الحرب.

قلت: ـ ماتت أمك؟.

قالت: ـ بل قتلوها مع أختيَّ الصغيرتين.

غيَّرت مجرى الحديث سريعاً كمن يتلافى موقفاً محرجاً أو محزناً، فركت كفيها ببعضهما وأجالت نظرها في الفضاء ثم جمعت قبضتيها تحت ذقنها وراحت تتحدث عن مازن من دون أن تنظر في وجهي: ـ كان شاباً وسيماً يحمل الكثير من صفات والدي لا سيما الهيبة والوقار، وكان بينهما الكثير من الحب والكثير من العمل لكن خلافهما بدأ يشتد لأسبابٍ ليست كلها مصرع والدتي أو الفراغ الذي خلفته الحرب، ثمة أمور لم أجرؤ على السؤال عنها أحدثت الجفوة وربما الكراهية بينهما.

كان مازن قليل الكلام كثير الغياب لذا لم نكن نعرف كيف يفكر أو على الأقل لم أكن أنا أعرف حتى وصلتنا رسالته من الولايات المتحدة يخبرنا عزمه على البقاء.

فقد والدي برحيله السند الأخير في بلد لا ذاكرة له، يقدِّم من أداروا نوادي الليل على من خاضوا غمار المعارك، وجد نفسه لا

مكان له في عالم أسماه «عالم الصغار» بعدما أنفق شبابه وثروته على حربٍ عقيمٍ لم يخرج أحدٌ منها بشيء.

كانت حرب خاسرين، وحدهم تجار الحروب ومن رقصوا على أطراف جحيمها وحاربوا عبر الإذاعات ربحوها مرتين!.

كنت أتأمل ملامحها بينما تستغرق في أحاديث وذكريات الماضي، تقطب حاجبيها الرقيقين، تجيل النظر فيما حولها، تنظر إلى ملابسي، إلى يديَّ وقليلاً ما لامست نظراتها عينيَّ، من عادتها أن تعبث بما بين يديها حين تستغرق في الحديث، وكثيراً ما كان فنجان قهوتها.

وصلت في اليوم التالي عند التاسعة صباحاً، موعد ذهابنا إلى متحف اللوفر، راشد وناجي ما يزالان نائمين، وكنت أحب أن نكون وحدنا. أخذنا مجلسنا حول مائدة الإفطار فبادرتني وهي تفرش المنديل: ـ لا تبدو اليوم في مزاج جيد؟.

قلت، وأنا أحاول تصيُّد ابتسامة: ـ أبداً، سهرت البارحة قليلاً.

أبعدت كوب الشاي عن فمها: ـ تحب أن نلغي موعدنا؟.

قلت: ـ لا، لا أقصد، كلٌّ شيءٍ سيكون على ما يرام.

ساد قليلٌ من الصمت قبل أن تغلبني الرغبةُ في الحديث: ـ صبرا، لاحيت صديقي ناجي البارحة.

قالت، وهي تبتسم: ـ لذلك أرقت؟.

قلت: ـ نعم، فهو غاضبٌ مني.

قالت بعد فترة صمت: ـ أنت مرهف الإحساس، لعل الموضوع لا يستحق.

قلت، ملتمساً تأييدها على ما يغالبني من الشعور بالذنب: ـ كان يتحدث مع فتاة من بائعات الهوى.

قالت: ـ من أجلك؟.

قلت: ـ بل من أجله هو.

قالت: ـ فما شأنك أنت، ما الذي يغضبك؟.

قلت: ـ إنه صديقي، وهؤلاء الفتيات موبوءات.

قالت مستغربه: ـ ألا يعرف؟.

قلت: ـ بلى، لكنه متهور.

قالت: ـ وماذا فعلت؟.

قلت: ـ أبداً، أفشلت محاولته فغضب منِّي وسبَّني.

سكتت، لم تتحدث ولم تنظر إليَّ.

حملت حقيبتها على ظهرها وانطلقنا عبر الشانزليزيه، لم نتبادل سوى القليل من الكلمات، بدت شاردة الذهن.

توقفت عند الهرم الزجاجي في وسط الباحة وشعرت أنه غير منسجم مع كلاسيكية البناء، قد يكون شيئاً جميلاً لكنه جاء من عصر آخر غير عصر اللوفر، المعضلة أنك تشك في ذوقك ولا تعلن انتقادك لأمرٍ يراه الجميع حسناً، وإلّا فكيف وافقت علية الجمعيات والنخب السياسية والفكرية للأمة الفرنسية.

مررنا بلوحات ومنحوتات كثيرةٍ لم أسمع عن أكثرها رغم ما أدَّعيه من اطِّلاع، استوقفتني أعمال مايكل أنجلو ولوحات رينوار، ثم طلبت من صبرا أن تذهب بي إلى الموناليزا واسطة العقد في المتحف الغني بالجواهر.

ها هي الملكة أخيراً في إيوانها الزجاجي يزدحم في بلاطها السياح كأنهم السفراء من كل البلاد، توقفت أتأملها وأعجب كيف صارت حلماً من أحلام الناس تستقطبهم ابتسامتها من أطراف الأرض يخلِّدون لحظات وقوفهم إلى جانبها كالمنتصرين، يتبادلون المواقع فوجاً بعد فوج، وتبتسم الموناليزا بينهم بهدوء، لا أدري مجامَلةً لهم أم سخريةً من عنائهم.

قالت، حين جلسنا في أحد المقاهي الصغيرة في طريق عودتنا بينما تتفقد كاميرتها: ـ ألا تعتقد أنك تفرض نوعاً من الوصاية على أصدقائك، ألم يكن من الأفضل أن تتركه يفعل ما يريد، ألا ترى أننا نتجاوز أحياناً في تقدير التزاماتنا تجاه أصدقائنا.

قلت، وقد أراحتني عودتها إلى الموضوع فما يزال في نفسي شيء: ـ من مقتضيات الصداقة أن أنهاه عن الخطأ.

قالت: ـ لا أعرف قوانين وحدود الصداقة عندكم، على كل حال لكل صداقةٍ قانونها الخاص، لكني أكره تلك التي تقيِّد حريتي أو توجد نوعاً من الالتزام لا يقنعني، الاختلاف لا يعني الكراهية، فإذا وجدت من تشترك معه في قاعدةٍ معقولة من الأفكار والمبادئ ونشأ بينكما التفاهم والارتياح فذلك كافٍ لبناء صداقةٍ جيدةٍ ترسم الأيام معالمها وحدودها، إنما علينا أن ندع مساحةً كافيةً للاختلاف الذي قد يكون نوعاً من التكامل، ثم ألا تعتقد أنه من الواجب أن نتمتع بشيء من السلبية وألّا نفرض آراءنا التي نظنها جيدة على أصدقائنا، فربما لا يراها الآخرون كذلك أو ربما أحبوا أن يجربوا الأخطاء، دعهم، فليست نهاية العالم يوم يخطئون.

ليس معنى الصداقة أن يفعل الصديق ما يرضينا بل هي الثقة والمساحةُ المشتركةُ التي تشغلها عواطفنا وقناعاتنا والالتزام الذي نشعر به تجاه بعضنا لا أكثر، نقرأ ونعرف الكثير من الأشياء لكننا لا نفهمها إلا من تجاربنا الخاصة.

بدت واثقةً كأنما تتحدث عن مسلَّمات، واضحٌ أنها نهلت ثقافتها من مصادر أخرى غير التي ألفتها.

لم أستوعب فكرتها عن السلبية وإن بدت مريحةً تختصر المسافة بيننا وبين الآخرين، ثمة شعورٌ قويٌ منعني من تقبلها ربما كان

الإحساس بالمسؤولية تجاه صديق جمعتني به سنوات الزمالة في المدرسة والعمل في البريد.

لم أكن أدرك أن ما أفعله يشبه الوصاية، ربما سمعت هذا من قبل لكنك تفهم من قائل ما لا تفهمه من آخر، وعلى رأيها فالناس يحكمون على ما نفعله لا ما نفكر فيه.

سكتُّ لبقية الطريق فلم أكن متعوداً على غضبه، قلت في نفسي سأصالحه وليذهب إن شاء إلى الجحيم! لكن الشعور بالمسؤولية عاودني وأدركت أن لكلٍ منّا طريقته في التفكير، وأن ذات المسميات قد تعني لكلينا أشياء مختلفة وسأبقى مثلما علمني أهلي أتعرف إلى الكثير من المعاني، أمرُّ قربها لكن لا أحمل شيئاً منها!.

وجدناه جالساً في البهو كأنما ينتظرني أو يحمل من القلق مثلما أحمل، تقدمت إليه وعانقته من دون كلام.

جاءت صبرا متأخرة قليلاً لتجلس على طرف الأريكة وقد لمعت في عينيها ابتسامة الرضا بينما يواصل راشد تهريجه ومزاحه.

تأسف كلانا لصاحبه وألقى على نفسه باللوم.

تذكرت كلامها تلك الليلة وفكرت فيه كثيراً قبل أن يأتيني هاتفها:

ـ عمار، عندي خبرٌ طيب.

كان الانشراح يبدو واضحاً في طبقات صوتها حين تفرح. قالت إن والدها سمح لها بالذهاب إلى الحفل مع أنه لا يسمح عادةً بالخروج إلى وقتٍ متأخر، وأضافت قبل أن تغلق: ـ أرجو أن لا يكون في نفسك شيءٌ من حديثنا اليوم، فقد قلت قناعتي لأنك صديقي.

أقفلت الهاتف راضياً منها بما يشبه الاعتذار ومغتبطاً بالصداقة، أما خبر السهرة فشأن آخر أنساني ما مر بي اليوم، وبتُّ سارحاً في الأماني إلى حيث لا حدود..

أخذني النوم حتى أيقظني هاتفها في الصباح تخبرني أنها لن تراني قبل التاسعة مساءاً وقت موعدنا المأمول.

حضرت زاهيةً يبعث حضورها في النفس ما يبعثه الربيع في الأرض اليباب، فأزهرت براعم الحب في صحراء قلبي، جاءت تتهادى في فستانها الأسود الأنيق مثل حوريةٍ لا تعرف إلا في الأحلام والقصص يسبقها عطرٌعميقٌ مثل عينيها.

قلت: ـ يا له من عطر رائع.

قالت مبتسمة: ـ شانيل 5، ورثت حبه عن أمي.

قلت ضاحكاً: ـ لم أكن أعرف أن حب العطور يورَّث!.

شعرت أنها ليلتي لأعيش، لأخرج من نفق وجومي إلى حيث الحياة، تمنيت لو توقف الزمان عند ذاك المساء، ليس سوى قلبي وعينيها، جلست طويلاً أتأملها ويذوب قلبي من وهج نظراتها مثلما تذوب الشموع.

سهرنا وحدنا لأول مرة، تدفع كلانا رغبةٌ خفيةٌ في مكان وزمان يغريان بالحب والأحلام، كانت مكتملةً تسرح فيها العين فلا ترى إلّا ما يسرها كما وصف الأول: ـ

يسهل القولُ أنها أجملُ الأشياءِ طُـراً ويـصـعـبُ الـتـحـديـدُ

قلت ممازحاً: ـ صبرا، إنَّ رجلاً ينظر مليّاً إلى عينيك سيصاب بالعشق أو بالجنون.

قالت ضاحكةً: ـ وبأيهما أصبتَ يا سيدي.

قلت: ـ بهما جميعاً!.

همست: ـ ألم تخبرني أنك تعلمت الفالس مع صديقة ناجي، هل تود لو نرقص قليلاً؟.

كم كان بودي لو تجرأت فأخذت بيدها ورقصنا مثل هذين العاشقين اللذين يدوران في المنصة كطائرين حالمين، كانا متناغمين

يعيشان عشقهما حد الجنون ولا يكترثان للعالم من حولهما!.

تسامينا تلك الأمسية عن قيود اللغة وأطواق التقاليد وأبحنا لأرواحنا حرية الحديث، شعرت كأنما أعبر بحر هواجسي وأكاد ألامس شاطئ قلبها، اهتمت بي ودللتني ما جعلني أمير ذلك المساء.

كم كان بودي لو طال الليل أو زيد له من صقيع العمر الممتد قبله أو بعده، سيّان.

ورغم فرحي فقد كنت أخشى في أعماقي اللذة واعتبرها نذير الألم.

أعطت السائق عنوان المنزل في مكانٍ لم أنتبه إليه، فلم تكن سوى دقائق لتطبع على خدي قبلةً ناعمةً وتنطلق نحو الباب مثل فراشة بينما يبتعد بي التاكسي في شارعٍ يدثره الضباب تحت الأنوار الصفراء.

عدت بصورتها تكسو جدران ذاكرتي وبصوتها الدافئ يتخلل أعماقي.

تجاهلت قِصْر معرفتي بالفتاة وخوفي من المجهول، وأصغيت لداعي الحب الذي ملأ قلبي وحلمت بأيام جديدةٍ غراسها الآمال، كنت أغطي رأسي عن كل ما يخطر لي وأتجاهل بحر العقبات الذي يحول بيني وبينها.

أصبحت لقاءاتنا أكثرحميميةً وأصبحنا نلتقي فقط من أجل أن نكون معاً، كثيراً ما شبكنا أيدينا ورحنا نجوب الشوارع، نأكل في المطاعم الصغيرة ونشتري الآيسكريم من الطرقات، نحمل الصحف لنقرأها في ذات الحديقة تحت الشجرة التي ألفنا، وزال تخوفي حين علمت أن رجلاً لم يطرق أبواب قلبها من قبل!.

حيرتني سرعة تآلفنا وتوارد خواطرنا، لو سمعت نقاشاتنا تحت

تلك الشجرة لقلت سيصلحان العالم!، ولو رأيت لهونا وغفلتنا لعلمت أن السعادة قد ملأت قلبينا.

«طفلينِ كنّا في تصرفنا وغرورنا وضلالِ دعوانا»

نلتفت أحياناً نحو الماضي رغم ذكرياته المؤلمة..

قلت ذات مرة: ـ صبرا، حدثيني عن والدتك.

كانت تجلس على الأرض مسندةً ظهرها إلى الشجرة وقد وضعت ساقيها الممدودتين فوق بعضهما، تلبس قميصاً وردي اللون قصير الأكمام وبنطلوناً أبيض يضاهي بياض قدميها الناعمتين.

أسندت نفسها قليلاً فلمعت في نحرها قلادةٌ فضية يتدلى منها قلب صغير على شكل فراشة، والتفتت نحوي قائلةً: ـ ماذا تريد أن أحدثك عنها؟.

قلت: ـ لا بد أن مشاهد أو مواقف معينة قد طبعت في ذاكرتك.

قالت: ـ أجل، كانت أمي امرأة عظيمةً في حبها وفي صبرها، كانت بيضاء جميلة، قرويةً تعتز بأرضها وبقومها..

وسكتت قليلاً ثم أردفت: ـ كانت امرأة صالحة لا تعرف رجلاً سوى زوجها ولا بيتاً غير بيتها، أحبته رغم صلفه وغيرته ورغم مغامراته العاطفية، تعرف عاداته ورغباته فتجدها دائبةً في خدمته من دون أن يأمرها كأنما حفظته عن ظهر قلب، كانت سعيدةً وفخورةً بزوجها القائد الوسيم.

فهمت ذلك من تعلقها به اللامحدود وأحاديثها إلى صديقاتها التي ما زلت أتذكرها على أضواء الشموع مع أصوات الأطفال ورائحة الأرض الرطبة بين أكداس البشر.

كل ذلك ما زال مطبوعاً في ذاكرتي، حديثها، ضحكاتها، بريق عينيها عندما تتحدث عنه بافتخارٍ لنساء الملجأ.

غضبت مني حين غبت ألعب مع ابن الجيران، أخبرتني أن الشاب

يحدث الفتاة عن الجنة بينما يأخذ بيدها إلى الجحيم، وقالت إنَّ الفتاة الصالحة لا تبتعد مع الشباب.

لم تزل أمي تحمل أخلاق القرية في روحها حتى آخر يوم، لم تغيرها مدنيَّة بيروت..

وسكتت قليلاً ثم أكملت بصوت متقطع بينما تعبث بياقة قميصي:

ـ أتراني فتاة صالحة وأنا أتحدث معك وأخرج بصحبتك كل يوم؟.

لم تسعفني قريحتي فقد كنت مشدوداً إلى حديثها!

أدارت وجهها تنظرنحو الأفق، وألقت بيديها المضمومتين بين ركبتيها وراحت تتحدث: ـ.. وبينما تشتد عليَّ الحمّى وتعاودني نوباتُ الهذيان «أبي، أبي، أحضروا لي أبي، أريد أبي»، كنت طفلةً صغيرةً تظن إنَّ والدها قادرٌ على قهر الحمّى أو انتشالها من بين مخالبها، تكمدني أمي بالماء البارد، تكتنفها بعض نساء الملجأ اللاتي اختلطت عليَّ أصواتهن، فلم أعد أعي ما يدور، غرق شعري المبعثر تحت ظهري من الماء ومن عرق الحمّى، أنظر في وجه أمي، لا أفهم ما تقول لكني أدركُ الحنان والخوف في عينيها وهي تمسح وجهي بيدها المرتجفة: ـ أمي، صبرا، أمي، حبيبتي.

هكذا كانت تناديني بصوت خائفٍ ما زال يسكن أعماقي.

لا أعرف كم من الوقت مضى قبل أن أفيق على صوت والدي ورائحته يقبلني ويضمني، يرفعني من الأرض ويسألها عن حالتي وحولنا الكثير من الوجوه، ألبستني معطف أختي يارا، لا أدري، لأن معطفي كان متسخاً أم لأنها لم تجده على ضوء الشمعة الكئيب، ولفَّت شعري بمنديلها الأزرق المنقوش الذي ألفته عليها، تُراها كانت تودعني به من دون أن تدري!؟.

أفقت قليلاً عند خروجنا من الملجأ فأفزعني دوي القذائف يمزق ليل بيروت، مددني إلى جانبه على الكرسي الخلفي ووضع رأسي في

حجره وثنى يده من وراء ظهري وراح ينادي بصوت متسارع عبر جهاز اللاسلكي: ـ الصقر يتحدث، من واحد إلى خمسة، لا تتركوا مواقعكم، انتبهوا من جهة الكرانتينا، الصقر يتحدث..

كان الصقر آخر ما سمعت حين أخذتني نوبة الحمى من جديد.

أفقت في المستشفى وقد أشرقت الشمس من شباك الغرفة المقابل، كنت متعبةً جداً وقد جف حلقي من العطش.

ناديت أبي، تلفتُّ من حولي، ناديت وناديت لكن أحداً لم يجبني، وكان في الغرفة أطفالٌ آخرون نيام.

غشتني الحمى فلم يوقظني إلا الضجيج يملأ جنبات المستشفى، قفزت من سريري ملهوفةً أركض على غير هدى أبحث عن والدي، فلم أشعر حتى مشيت حافيةً على الدم اللزج السائل بين الجثث التي كانوا يرصفونها في ردهة المستشفى بانتظار من يتعرف عليها، لم ينتبه أحدٌ لوجودي، فالجميع غاضبون منشغلون، كانت مجزرةً عنيفة حقاً.

قادتني خطاي المتعثرة نحو امرأة مستلقيةٍ كشفت تنورتها عن ساقيها المخضوبتين بالدماء، فلم أصدق ما رأيت، يا للهول، إنها أمي!.

جثوت عند رأسها ونظرت إليها بإمعانٍ كما لم أفعل من قبل، ثم ألقيت بنفسي على صدرها.

فقدت شعوري بنفسي وبما حولي فلم أستوعب ما يحدث لي، وضعت يدي على عنقها وشعرها المبعثر المختلط بالدماء، مسحت وجهها، ناجيتها وناجيتها لكنها لم تجب، كلَّلت صفرة الموت وجهها وأغمضت عينيها في صمت مهيب.

تسابقت الدموع على وجنتيها وهي تتحدث عن أختيها اللتين قضتا

في تلك المذبحة، وتسمرتُ مبهوتاً بين رهبة الحزن وعجزي حتى عن كلمة مواساة.

راحت تهذي: ـ. . . قتلوا أمي حين كنت في أشد الحاجة إلى رعايتها وحنانها، مِنْ أجل مَنْ قتلوا أمي، أتراهم شعروا بيتمي وضياعي من بعدها، أي بلادٍ لا يصلحها سوى قتل الأمهات؟.

لم تكن تعرف سوى الخير ولا تجيد سوى المحبة والمواساة، أبكاها مواء هرتي حين فقدت صغيرها، لم تكن أمي تحب الحرب ولا تؤيدها، فلماذا قتلوها؟.

مالت نحوي ووضعت رأسها على كتفي وراحت تبكي، فطوقتها بذراعي وربت على ظهرها بينما تخنقني العبرة.

عدنا باكرين إلى الفندق ودخلتْ غرفتي لأول مرة، جلست مقابل النافذة وكان ضوء النهار ما يزال قوياً يسطع على وجهها، عيناها النديتان بدتا أجمل وأعمق، لونها المخطوف وصوتها المتهدج، صورٌ ما زالت تسكن ذاكرتي.

تملكني مزيج من العطف والولاء وسرت محبتها في عروقي، يا لها من مشاعر دافئة ومريحة، قد لا تكون صبرا أجمل النساء ملامحاً لكنها ألطفهن روحاً وأحبهن إلى قلبي.

تناولنا الشاي وتحدثنا في أمورٍ غير ذات معنى، عن غرفتي وعن ملابسي، وتصفحنا مجموعة الكتب التي اشتريت مؤخراً حتى زالت غمامة الحزن وعادت الحياة إلى شفتيها من جديد.

ودعتها بقبلةٍ خفيفة عند مسقط الميترو المجاور وهي تسرع للحاق بقطارها.

ذهبت وما تزال يدي نديةً من ملمس يدها، وما يزال أثر كحلها ودموعها على ياقة قميصي، تعودت حضورها وضحكاتها وأحاديثها حتى بكائها كأنما أُبرم القدر وجاء بي حبها من بلادي.

عاد الشباب ذلك المساء من رحلتهم وراحوا يقصون مغامراتهم كأنما غابوا لشهور، سحر موناكو، جوها الجميل ونساؤها الفاتنات، كنت أحاول الاستماع لحكاياتهم غير أن صورتها تعود وتسرقني، فما زال تأثير بكائها وحزنها يسكن قلبي.

يلوح لي هاجسٌ يهمس بي بين حين وآخر: ـ وماذا بعد، إلى أين أنتما ذاهبان؟ لكني أتجاهله وأشرع أبواب قلبي للحب آملاً في أن أعيش حلم السعادة الذي تمنيت.

لا أدري إن كان في تصرفي ذاك شيءٌ من الأنانية لكني أحببتها صادقاً كما لم أحب أحداً، ولم أكن قادراً على مقاومة فرحي واندفاعي.

* * *

التقينا عدة مرات قبل حفلة نجوى كرم التي ستقام في الفندق الذي نسكنه، واتصلت أحد تلك الأيام بصديقي سلمان الذي اشتقت إليه وافتقدته، فلم يسبق أن انقطعنا عن بعضنا كل هذا الوقت، أجاب سريعاً كأنما ينتظرني على الجانب الآخر.

قال ضاحكاً بعد السلام: ـ هاه... ما هي أخبار القلب؟.

قلت بغبطة: ـ جيدة، ليتك ترى يا سلمان.

تحدثنا عن صبرا وعن باريس، فللحديث عن الملذات لذةٌ أخرى يستعيدها القلب ويجترها من جديد.

سألني ضاحكاً: ـ ما الذي أقنعك بصحبة الجميلات؟.

قلت: ـ ثمة أشياء أكبر من قدرتنا على المقاومة، لم يكن لي خيار، فقد كانت مستوى آخر من النساء لم أصادفه من قبل، لا تلمني يا سيدي.

تمنيت عليه لو يأتي لأسبوع أو أسبوعين، لكنه اعتذر بالعمل وأقفل الخط بعدما تمثل: ـ

ما دمتَ من أرب الحِسانِ فإنما روقُ الشباب عليكَ ظلٌ زائلُ
إنعم ولذَّ فللأمورِ أواخرٌ أبداً إذا كانت لهنَّ أوائلُ
للهو آونةٌ تمرُّ كأنها قُبلٌ يزودها حبيبٌ راحلُ

اكتظَّ بهو الفندق بجماعات من العرب ينتظرون وصول من تأخر من أصدقائهم أو عائلاتهم ويترقبون افتتاح القاعة.

جاءت صبرا متألقةً كعادتها تسبقها الابتسامة المشرقة، فقمت إليها وأجلستها إلى جانبي.

لبست لتلك السهرة ثوباً بنفسجياً واسع الصدر شفاف الأكمام مطرزاً بدوائر ذهبيةٍ، وتزينت بعقد من الذهب الأبيض وقرطين متدليين ينتهيان إلى فصين من اللؤلؤ.

انحدرت الجموع حين أشرعت القاعة فأمسكت بيدها، وطلبت من صاحبيَّ أن ينتبها لمكانينا، نظرا إلى بعضهما وابتسما وهما يغادران مع الآخرين.

طلبت القهوة قبل أن أجيب عن تساؤلها لماذا نتأخر؟.

قلت: ـ أريد أن نكون وحدنا لبعض الوقت.

قالت: ـ كنا معاً البارحة وقبل البارحة، هل من جديد؟.

قلت: ـ نعم، أريد أن أهديك هذه القصيدة. وأخرجتها من جيب سترتي.

قالت: ـ آه، قصيدة!. ومدت يدها لتأخذها وهي تبتسم.

قلت: ـ دعيني أقرؤها لك أولاً، يقال إن رجلاً طلب من صديقٍ له أن يكتب رسالة لأهله في الشام، فأجاب الصديق: ـ لكني لا أستطيع السفر إلى الشام.

قال الرجل: ـ لا أريدك أن تسافر، فقط أريدك أن تكتب لي الرسالة.

قال: ـ لكن لا أحداً سواي يستطيع أن يقرأ خطي.

ضحكت بينما أصلح جلستي واستجمع مهارتي:
آنستي الجميلة.
يسحرني بريق عينيك الناعستين.
يحملني من صهوة الزمان.
ينشرني على مشارف النجوم
كالدخان.
وتحضرين من بعيد.
وتعبرين نحوي زحمة الظنون.
ناعمةً، كرعشة النعاس في الأهداب.
تجاورين القلب في هدوء.
ما بين رقَّة الضمير والحجاب..
وتوصدين من ورائك الأبواب.
وتسرقين النوم من عيني
وترقدين!.
أميرة الأحلام
تسافرين في شراييني.
تفتشين في عناويني.
تلاحقين كل همسةٍ شاردةٍ تغالب الحياء في دواويني.
وتغرقين في عينيَّ تبحثين عن لواعج الحنين.
وترحلين.
مثل نجمةٍ دريةٍ لامعة الجبين.
وعطرك اللطيف..
ما يزال يملأ المكان.
يجيش في خاطرتي..

ينضح من ذاكرتي.
يعبرني لذيذاً بين نشوة الغرام وانتباهة الآلام.
يمطرني.. يغرقني.
يتركني أذوب مثل الملح في مواسم النسيان.
وتشرقين من جديد..
وتنفثين الحب في الحقول.
لتستفيق الروح في السنابل.
ويورد القلب على كفيك من جديد..
زهرة أقحوان.

أنصتت باهتمام ثم أسندت ظهرها وراحت تدير كوب القهوة مطرقةً بينما أنتظر تعليقها، رفعت بصرها بعد فترة: ـ عمار، ألا تعتقد أنك تبالغ قليلاً.

سكتُّ فلم أجب لكنها سرعان ما استدركت: ـ آسفه لا أقصد.. وأضطرب الفنجان بين يديها.

ساد الصمت لبعض الوقت قبل أن تستأنف بلهجةٍ هادئةٍ أقرب إلى الشكوى: ـ أنت تعبث بأحلامي.

قلت: ـ آسف، لم أكن أعرف أن هذا يؤذيك.

قالت: ـ لا تسئ فهمي، كلامك يسعدني ويفرحني إنما أخاف عليك وعليَّ من تهورنا، أخاف أن يجرفنا التيار إلى ما يرفضه الواجب، أنسيت أنك متزوج وأبٌ لطفلين؟.

قالت تلك الكلمات كأنما تلومني أو تذكرني بعالمي الذي نسيت، وعاد الصمت ليلفنا من جديد.

عادت بعد قليل وأمسكت بيدي ضاحكةً: ـ أنت غاضبٌ مني؟، أنا فقط أردت أن أغلِّب العقل والحكمة، صدقني إنني أطير إليك

بكل مشاعري مثلما تطير الفراشة نحو النار، أعرف أنك ستحرقني إلّا أني لا أستطيع مقاومتك، وما الكلام الذي تسمعه سوى انعكاس للصراع الذي يشتعل في قلبي، أهرب منك أم أهرب إليك؟، أغمض عينيَّ وأقتحم نارك وما يكتنفها من الخوف ومن المجهول الذي قد لا يطيع أمانينا وأحلامنا، أم أعود إلى صقيع وحدتي وغربتي؟ وكأنما جئت بقصيدتك الليلة لتحسم هذا الجدل.

ثم قالت بلهجة ودودة، وهي تميل برأسها لتنظر في عينيَّ: ـ مَنْ علمك هذا الشعر الساحر.

قلت: ـ

عيناك يا صغيرتي علمتاني صنعة الكتابة.

أخرجتاني من تخوم النوم والإغفاء والغفلة والرتابة.

أغريتاني بالسهر.

ثم أردفتُ: ـ أردتها أن تلامس قلبك ومشاعرك وليس عقلك وواقعيتك.

قالت: ـ الله، الله، إنك تسحرني. وتناولت القصيدة من يدي: ـ هذه القصيدة الرائعة من أجلي!؟.

قلت ضاحكاً: ـ نعم آنستي.

قالت: ـ لي وحدي!؟.

قلت: ـ نعم.

قالت: ـ إذاً ما أسعدني بين النساء.

أضافت مازحةً ونحن نهم بالقيام: ـ لكن لماذا طلبت قهوة، شيء بهذه الروعة يحتاج إلى احتفال، يحتاج إلى شمبانيا وليس إلى قهوة.

قلت: ـ أردت القهوة لأنها توحي بالهدوء والتأمل، كنت خائفاً من ردة فعلك، على كل حال الشمبانيا تنتظرنا في القاعة.

التحقنا بأصحابنا في الصالة الفخمة التي اكتظت على اتساعها. كانت ليلة عربية بحق، جمهورها، غناؤها، طعامها، كل ما في تلك السهرة يعيدك إلى عالمك الذي تحب.

جلسنا إلى طاولةٍ ممتدة تحفل بأنواع المزّات اللبنانية والمشروبات على اختلاف ألوانها وحولها الكثير من الوجوة العربية المبتسمة، جلست وصبرا عند طرف الطاولة يقابلنا صاحبانا، وجلس إلى جانبي طبيب أسنان من لبنان مع زوجته الفرنسية وإلى جانب أصحابي عائلةٌ من الخليج.

يتبادل الناس التحية بالإشارات والابتسامات فأصوات الموسيقى عاليةٌ لدرجةٍ لا يسمع معها شيء، ومع ما يوحي به المكان من البهجة إلّا أن الشرود عاودني ورحت أفكر في كلامها وما جرى قبل قليل، أصحيح أني أعبث بأحلامها؟.

ومع أن مشاعري صادقة إلا أنها قد لا تعدو أن تكون العبث، إذ لا سند لها من المنطق.

استرجعتني بابتسامةٍ أضاءت ظلمة أفكاري وقصاصة ورق وضعتها بين يديَّ «الطيور ترحل عن مواسم أحزانها، ابتسم أرجوك، فليست هذه ليلةً للحزن». جمعت ما تشتت ومضيت أردد مع المطرب كلمات أغنيته. لفت انتباهي فتاتان خليجيتان ضمن العائلة المقابلة تصفقان بأطراف أصابعهما وترددان بهدوء كأنما تهمسان، تصورت من هيئتهما وملابسهما أنهما تنتسبان إلى عائلةٍ غنية أو مشهورة.

انضم أصحابي بعد قليل إلى جمع الراقصين ورحت أتأمل الفتاة الجميلة التي كانت ترقص قريباً منا، أعجبتني استجابة جسدها للموسيقى، تنهض حتى لا تكاد تلامس الأرض ثم تنثني حتى تهم بالإمساك بها، خُيِّل لي أنها في حالٍ من النشوة لا تشعر معها بوجود

الناس، يضرب الإيقاع على جسدها فيتماوج مثل غصن طريٍّ يداعبه النسيم.

استغرقت في النظر إليها، فلم يسبق أن شاهدت شيئاً كهذا حتى استعادتني قصاصة صبرا «لاتنظر إلى العالم من حولك، فإني أشتاق إلى نظراتك بجنون».

لم تقل لا تنظر إلى الفتاة بل إلى العالم، هكذا المرأة تريدك لها وحدها، أخفت غيرتها خلف العالم وإن لم تقصد سوى الفتاة، تجلِّي الغيرة مشاعر المرأة وتفضح أمرها «بجنون».

دخلت نجوى كرم من باب الجمهور، وعبرت صفوف الطاولات تصحبها الأضواء والموسيقى العالية وكلمات الثناء والإطراء من مقدم الحفل وتتابعها أعين الجمهور.

بدت متأنقةً فاتنة، خُيِّل إليَّ أنها أجمل منها على الشاشة، ربما كان تأثير الهالة، أتذكر أن صبرا صورت معها بينما تدندن: ـ يا حلو.. حظي حلو.. أنا شفت عيونك.

تخلت تلك الليلة عن تحفظها وأخذت بيدي نحو صفوف الدبكة، حاولت أن أتخلص وأقسمت أنني لا أجيدها لكنها أصرت: ـ قف إلى جانبي وافعل مثلما أفعل. عدت منتشياً من تلك المعمعة حين مضى الأمر بسلام ولم ينتبه أحد إلى سوء ما فعلت!.

تحدثت في الاستراحة مع الدكتور اللبناني فوجدته مهذباً معسول الكلام كما هم اللبنانيون.

أتذكر أنه اشتكى من غلاء المعيشة: ـ الحياة هنا مريحة والجو كما رأيتم، كما أن لنا مجموعةً من الأقارب والأصدقاء لكن المشكلة أننا لا نوفر شيئاً مما نكسب، فإغراءات الشراء والإنفاق كثيرة، الناس في الخليج يملكون المال لا يدرون ماذا يفعلون به ونحن هنا نجد الكثير مما يغري لكننا لا نجد المال!.

سألته: ـ هل تفرقون بين طوائف اللبنانيين كما تفعلون في لبنان؟.

أجاب ضاحكاً: ـ صدقني لا نفعل، نحن متضامنون في المهجر إلى حدٍ بعيد، ينهض الجميع لمساعدة من تميل به الأمور ويعتنون به حتى قبل أن يعرفوا إلى أيِّ الطوائف ينتمي، كأنما لا تستيقظ عداواتنا إلا على أرض وطننا.

قلت: ـ وهل تعانون من التمييز العنصري الذي نسمع عنه؟.

قال: ـ لا يخلو الأمر، لكنه لا يطال أصحاب الأموال والوظائف الجيدة.

تحدثنا معه وزوجته الجميلة مدة الاستراحة بينما ذهب الأصحاب في حديث باسم مع العائلة الخليجية.

استمتعنا بالسهرة وبالصحبة اللطيفة حتى أواخر الليل وعدت بعدما ودعتها عند باب التاكسي لأستغرق في التفكير، نجوى وتألقها، الخليجيات والرفاهية والدلال، الدكتور وزوجته الشقراء الجميلة، صبرا، آه صبرا كأنما نسيت للحظة!، يبقى حس المسؤولية يقظاً عندها بينما تذهب بي الأنانية أو الأحلام إلى أبعد مما يجب.

استغرقنا صباح الأحد في النوم والاسترخاء وتأخرت في غرفتي إلى المساء حتى جاء هاتف راشد: ـ انزل بسرعة، هناك ضيوف يودون التعرف إليك.

فوجئت بالفتاتين الخليجيتين اللتين كانتا معنا في سهرة البارحة، يبدو أن صاحبيَّ قد باتا يحادثانهما على الهاتف، شيخة ولطيفة صاحبتي الحديث الودود واللهجة المحببة إلى قلوبنا، شيخة فتاة جريئة وتلقائية، تهتم بجمالها وزينتها، أما لطيفة فأنيقة واثقة من نفسها، أكثر اتزاناً وأعمق ثقافةً من صاحبتها.

تبدأ جلسات التعارف في مجتمعاتنا بأن يطوف المتحدثون كأنما في دوائر واسعة، يتكلمون بأفضل ما يعرفون، يتلمسون أفكار

واتجاهات جلسائهم فما تلبث الدوائر أن تتصاغر وتأخذ الأحاديث في الميل نحو الدفء والهدوء.

استأذنتا بعدما حضرتا معنا جزءاً من سهرة الجاز، فذهبنا بصحبتهما إلى مدخل فندق الكونكورد المجاور حيث تقيم عائلتهما وودعناهما بعدما تأكد موعد لقائنا القادم.

* * *

ليس في دراستنا صعوبة تذكر سوى ما يعانيه راشد من أمر اللغة، ولم تكن تشغل من وقتنا أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام في الأسبوع، ولا تستحق أكثر من شهرين إلى ثلاثة لكنها مددت لغايات لا نعرفها، ولم نسأل عنها فقد كنا في سياحةٍ مدفوعة التكاليف!.

كنت انتظرها في المقهى المجاور ذات صباح مفعم بالتفاؤل، أتسلى بقراءة الجرائد ولا أشعر بالقلق، صار حضورها جزءاً من يومي مثلما هو طيفها جزء من ليلي، انتظرتها، أعبر أعمدة الجريدة بحثاً عن خبر يسترعي الانتباه أو صورةٍ تستدعي التوقف، أتمهل حيناً لأستعرض وجوه المارة وليعود عجبي: كم من الاختلاف تحتويه هذه المدينة، كم من الأجناس وكم من الألسن وكم من الأشكال.

حضرت متأخرةً قليلاً عن موعدنا، لا أدري كيف تتجدد فتاتي لتأتي كل صباح بنضارةٍ جديدة وبروح أخف من أرواح الفراشات، أم أن تعلُّقي بها يزداد كل يوم و«حسنٌ في كل عين من تود».

قضينا معظم النهار في حديقة لكسمبورج، المكان الذي سبق أن وعدتني بزيارته، وجدته أجمل مما تخيلت، لم يكن ليبلغه خيال رجلٍ مثلي لم يعرف سوى الصحراء بعناصرها البسيطة.

تشبه لوحةً باهرة غنية بالألوان أو جنة وارفة الظلال، لا يعيبها سوى أنها لا تدوم لأهلها أو أن أهلها لا يدومون لها.

قادتنا الخطى إلى شجرة سرو كبيرةٍ اتخذت لنفسها مكاناً متنحياً،

قلت، وأنا أعدل الكرسي بعد فترة تأمل: ـ صبرا، ما أروع المكان.

قالت: ـ ذلك يعتمد على أحوال الناس وطريقة تذوقهم للحياة وتناولهم لمتعها، فلو سألت روادها اليوم لصادفت من لا يجد من جمالها ما تصف، أو لوجدت المكتئب الحزين أو حتى من يفكر بالخلاص.

قلت: ـ لا أدري، ربما تكونين محقة لكنها جميلة، وهي اليوم أجمل لأنك تشرقين في ربوعها.

ضحكت وهي تستخرج «الهيد فون» من حقيبتها وقالت، بينما تبحث عن شيء آخر ظننته الكاسيت: ـ هل يسعدك حقاً أن نكون معاً؟.

قلت: ـ يسعدني أكثر من أي شيء في العالم!.

قالت، وهي تناولني قطعة حلوى: ـ أصدقك، لكن العواطف تستعر وتهمد سريعاً مثل النار، فللإنسان ذاكرة وعواطف وقتية!.

قلت: ـ لا أدري، لكن شعوري حقيقيٌ وصادق أكاد ألمسه أو أكاد أراه، لماذا نكمم عواطفنا؟.

قالت، وهي تنظر نحو الأفق: ـ صحيح، يبدو أن الخوف يستولي على عقولنا، خوف ألّا نتمكن من مواصلة الطريق.

وسكتت قليلاً ثم أضافت: ـ ما أروع أن تجد من تحب، وما أروع أن تقول في نفسك أنك تحبه حقاً، وأنه تماماً الشخص الذي تمنيت.

قلت: ـ وما أروع أن يبادلك نفس المشاعر.

قالت: ـ وما أحزن أن يكون كل ذلك بعد فوات الأوان، يبدو أنّا عاقلين أكثر مما ينبغي!.

كلانا كان يخاف ألا يكون مؤهلاً لصاحبه، هكذا بقينا نحوم حول الحقيقة، نقترب منها لكن لا نلامسها.

قالت: ـ ما رأيك بالأثر القائل «طيب النفس من النعيم».

قلت: ـ يعجبني، فاز طيبو النفوس بهدوء البال ومحبة الناس، وإذا كانت الأعمار تنتهي سريعاً وإلى نفس المآل، فلماذا نضيعها في الغضب والخصومات، قد يدرك الإنسان كل ما يفوته سوى أيام عمره!، قرأت للمتنبي قريباً من هذا المعنى: ـ

ومن ينفقِ الأيامَ في جمع مالهِ   مخافة فقرٍ فالذي فعل الفقرُ

قالت: ـ صحيح، كانت أمي تجد سعادتها فيما تملك، تحدث قناعتها ورضاها شعاعاً من الأمل والتفاؤل لمن كانوا يشاركونها الحياة، ليتك تدري يا عمار كم كانت تسعدنا أحلامها عن أيام الرخاء، ترسم لنا المستقبل الزاهر بينما لا نرى في الأفق سوى الدخان ولا نسمع غير أصوات القذائف، لم نكن وحدنا من أصيب بانطفاء نورها بل كل من سكن ملجأنا الكئيب.

أربكني الحديث عن أمها وأعاد لي صورة حزنها ودموعها التي لم تندثر من خيالي، عبرت الموقف بصعوبة وتجاوزت بها إلى أحاديث بعيدةٍ عما قد يثير العواطف حتى جاء موعد رجوعنا.

ودعتها عند الميترو القريب، لم تسألني عن برامجي للمساء ولم أتبرع أنا بإخبارها، تحب المرأة أن تجدك حيث تركتك آخر مرة.

جاءت الفتاتان متأخرتين قليلاً كأنما تعمدتا أن تشعلا نار الانتظار، شيخة، عربية الملامح بعينيها السوداوين الواسعتين وشعرها الفاحم، ترتدي حلةً خضراء داكنة تسبقها الابتسامة الجذابة ويباريها عطر شرقيٌّ يلامس الحواس كقصيدة عشق، لطيفة الناعمة وشعرها الكستنائي الطويل المعقوف بعنايةٍ خلف رأسها، نظراتها الخرساء وابتسامتها الخجولة.

يأخذك بريق الفتيات في اللقاءات الأولى ثم ما تلبث الأمور أن تأخذ شكلها الصحيح لتكتشف أن الفتاة لم تعد تحمل الهالة التي

حضرت بها أول مرة، ولتقول مثلاً أن شيخة جميلة رغم أنها سمراء وضخمة أكثر مما ينبغي لشابة، وأن لطيفة ناعمة رقيقة لا يعيبها أنفها الكبير بعض الشيء وشفتاها الواسعتان.

وجد راشد من يفهم مفردات القرية ويشاركه حالة المرح الدائم بعدما زالت الكلفة وانطلق لسان شيخة التي بدت وأختها مأخوذتين بتلقائيته وخفة روحه، أتذكر أن لطيفة سألتني هامسةً: ـ أهكذا هو دائماً؟.

قلت: ـ نعم يا آنسة، صديقنا يعتقد أن الوضوح والتلقائية أقرب الطرق إلى القلوب، ويرى أن للناس مظاهر مختلفة وحقائق متشابهة، باختصار هو لا يحسبها كثيراً كما يقال.

استقرت أحاديث تلك الليلة قريباً من بلاد الخليج كأنما حضر في عيني شيخة وأحاديث لطيفة.

تشعر بانجذابٍ غريب حين تصادف أحداً من أبناء الوطن في الغربة، تدندن لهجته الخليجية على مسامعك كتقاسيم العود، وتجد في حضوره دفء الوطن ورائحة الحناء.

تسربتا بعد السهرة اللطيفة نحو فندقهما المجاور، ووقفنا نودعهما حتى غابتا خلف أبوابه الزجاجية.

صباح مفعمٌ بالنشاط يطبعه عطر ناجي الجديد الذي يرفض أن يخبرنا عن اسمه أو مصدره، لا أدري لماذا تصورت أنه يوم للفرح والتفاؤل، ربما بسبب الطقس الجميل والعطر الفواح القريب من رائحة الليمون والتوابل، يشعرك العطر الجيد بالانشراح ويساعدك على التفكير!.

التقينا قرب قوس النصر، وقضينا أول النهار نتنقل بين معالم المدينة، لكن ابتهاجي لم يدم طويلاً فسرعان ما شعرت بالحاجة إلى وجودها.

ملابس شيخة الزاهية ومكياجها أخرجاها عن السياق في أماكن لا يرتادها سوى السياح، طريقة مشيها ونظراتها إلى الناس، بدت كأنما هي معجبة بنفسها تحاول لفت الانتباه وما كان ذلك يروق لي، شعورنا بالنقص وعقدنا النفسية تجعلنا نحاول التعالي على الآخرين بجواهرنا وأموالنا، ربما تبين فيما بعد أن انطباعي كان خاطئاً، لكن ذلك ما أوحت به هيئتها.

للإنسان حقيقةٌ لا تظهرها الملابس ولا الجواهر، كم تمنيت لو بقيت على طبيعتها وأدركت أن ما تفعله يذهب بها في الاتجاه الآخر بعيداً عن قلوب الناس، المهم أني تعلمت الدرس واحتفظت بهدوئي أمام إغراءات الحديث.

سار راشد إلى جانبها يتشاركان المزاح والتعليق على المارة وذهب ناجي ولطيفة في أحاديث جادةٍ رصينة بينما اتخذت لنفسي مساراً متنحياً قليلاً، هكذا وجدت الفرصة للاستئذان والعودة قبل السادسة، موعدي مع صبرا.

المكان هادئ، والمصابيح الجدارية خافتة، السقف العالي مزينٌ بالرسوم والألوان، وحواف النوافذ المقوسة مطرزة بنقوش بنفسجية وفيروزية نسجت بأنامل فنان، داخلتني الحيرة، أهو مطعم يعرض التحف أم متحف يعتني بالطعام، للأصالة عبيرٌ متدفقٌ وللطعام مذاقٌ لا ينسى في ذلك المكان الفريد.

لا أعرف الحي ولا الشارع، كل ما فعلته أني ناولت سائق التاكسي العنوان الذي أملته صبرا على الهاتف، وتهت بين الشوارع وإشارات المرور حتى وجدتني أقف أمام الباب وهي وصاحبتها تشيران لي من خلف الشباك.

تعرفت على الفنانة التشكيلية سارا التي سبق وحدثتني عنها، قلت في نفسي لا بد أن يكون هذا المكان الملهم من اختيارها، فللفنانين

اختياراتهم الخاصة. زانت أحاديثها عن الفن التشكيلي وتطوره عبر العصور وخفة ظلها جلستنا تلك فلم ننتبه إلّا وقد انحدرت الساعة نحو التاسعة موعد انصرافها الذي رفضت أن تتفاوض حوله بلباقة فنان.

ودعناها عند الميترو القريب وأخذنا الاتجاه المعاكس صعوداً نحو كنيسة القلب المقدس.

يشبه الجو الاحتفاليُّ هناك أجواء المهرجانات، أنوارها المتلألئة، جموع الناس من حولها، فرقٌ من الممثلين والمهرجين والرسامين والعازفين في الهواء الطلق، جوٌّ يبعث على البهجة.

ترتفع أبراج وقباب الكنيسة عالياً في السماء كجبل من المرو الأبيض يدثره لحاف من السحاب المتماوج تتخلله الأضواء.

قضيت وقتاً طويلاً أتأمل معمارها الرائع وأتعجب من دقة وجمال بنائها.

انتابتني في ذلك المجتمع حالةٌ من الهدوء رغم الصخب والضوضاء من حولنا، توقفنا عند الحافة المشرفة على الدرج اللامنتهي نزولاً نتأمل الزمان والمكان، فليست كل الأماكن تستحق التوقف عندها ولا كل الأزمان، أماكن وأزمان محدودة تحتل المساحات العريضة في ذاكرتنا بينما نطوي الأعمار والديار لا نتذكرها وربما هي نفسها لا تتذكرنا في زحمة العابرين، أماكن قليلة في سجل الزمن الممتد تحتفظ بصورنا وابتساماتنا لنعود يوماً فنتوقف عندها أو نفتش عنها في خبايا الذاكرة.

طال بنا الوقوف ممسكين بكفي بعضنا، يلامس جسدها الناعم جسدي، أشعر بدفئها، أنتشي عطرها، قريبةٌ هي دائماً أحلامي، على بعد خطوة أو همسةٍ تحير عندها قدمي ولا ينطلق لساني.

في خضم الجو الممتزج بالأضواء والأصوات والممزوج بسلام

وسكينة روحي تلك الليلة، داهمتني صبرا: ـ عمار، أين ذهبت؟.

قلت: ـ غريق في بحر عينيك، هل تعلمين أن لعينيك بريقاً آخر في هذا المكان.

قالت ضاحكة: ـ أعتقد أن روح الشاعر قد استيقظت. وتنفض شعرها عن وجهها.

قلت: ـ أنت من أيقظها.

همست: ـ أتزعم أني ملهمتك؟.

قلت: ـ نعم، يخيل إليَّ أحياناً أني أعرفك قبل أن ألتقيك، ففي قلوبنا بذرةٌ للحب نخبئها في انتظار الظروف الملائمة، كثيراً ما حلمت بامرأة تحبني، تعرفني حين أجهل نفسي وتحفظني في ثنايا قلبها.

قالت: ـ أتعتقد حقاً أني تلك الفتاة؟.

قلت: ـ ليست سواك.

قالت: ـ ما يدريني أنك لم تقل هذا الكلام أو لن تقوله لامرأة أخرى؟، كم يود قلبي لو يصدقك!.

قلت: ـ ما الذي يمنعه؟.

قالت: ـ لا أدري، ربما الخوف من المجهول، الخوف من مواجهة الحقيقة، عمار، أنت رجلٌ متزوج وأب لطفلين، من عالم آخر لا أنتمي إليه ولا أعرف عنه شيئا، لا تعبث بأحلامي أرجوكً، قد اندفع إليك وقد أضعف معك فلا تترك تيار العاطفة يجرفنا عما يحتمه الواجب وتقتضيه الفضيلة، سأكون كاذبةً إن قلت إني لا أحبك أو لا أنتظر لقاءك، وربما أكون كاذبةً أيضاً إن قلت إني قادرةٌ على المضي معك إلى آخر الطريق، في الحقيقة لم أعد أعرف أين أقف بالضبط.

لمعت في ذهني أبيات لكثيِّر عزة بينما نتجه صوب الدرج الآخر، وما تزال كفَّانا متشابكتين، فأنشدتها: ـ

سيهلكُ في الدنيا شفيقٌ عليكمو إذا غاله من حادث الدهر غائلهْ
ويخفي لكم حباً شديداً ورهبةً وللناسِ أشغالٌ وحبكِ شاغلهْ

كان حبنا ينمو وحده ويسخر من كل تمائم العقل وقيود الحكمة، هكذا يجد المرء نفسه في دوامة الحب، يحب من دون أن يفكر.

أخذتنا الأحاديث الشجية فلم نشعر إلا ونحن نسير في شارعٍ عريضٍ تتجمع في زواياه المظلمة عصاباتٌ من الشباب الأفارقة، بقاماتهم الطويلة وملابسهم الرثة وصدورهم وأذرعهم العارية. علت صاحبتي علائم الرهبة وهمست في أذني بخوف: ـ عمار يستحسن أن نخرج سريعاً من هنا.

قلت متجاهلاً: ـ لماذا؟ ما الأمر؟.

قالت: ـ جئنا إلى المكان الخطأ، قد يقتلوننا من أجل ساعاتنا أو من أجل نقودنا، أو حتى من أجل لا شيء!.

تسارعت خطواتنا على طول الطريق وكنت أطمئنها بينما أسترق النظر إليهم: ـ لا تخافي سأموت قبل أن يمسوك بسوء!.

تقترب مني أكثر، تضطرب خطواتها وتهذي: ـ يا رب ما الذي جاء بنا إلى هذا المكان المخيف.

قلت: ـ لا تخافي، ليس هناك ما يستدعي كل هذا الخوف.

كانت مجموعةٌ منهم في الزاوية المقابلة يتشاجرون بأصوات عالية، ويصعد دخان سجائرهم نحو الضوء كالخيوط المتماوجة.

قلت: ـ هذا مسقط ميترو.

صاحت: ـ لا، لا تفعل أرجوك، الموت المحقق في هذه الأماكن.

سكت بينما نحث الخطى باتجاه إشارة المرور البعيدة، وفي داخلي رجل يرتعد من الخوف.

اقتربت فجأةً سيارةٌ سوداء عليها مصباحٌ صغير، إنها تاكسي، رجوت ربي أن تكون فارغة، وهكذا كانت.

فكرت تلك الليلة بما حدث وقلت في نفسي، لم لا أخبرها قصة زواجي المتعثر وماكنت عازماً عليه قبل أن ألتقيها، علَّ ذلك يخلصها من عقدة الذنب، لماذا لا أخبرها الحقيقة كما هي؟، لكني قررت التمهل، ظانّاً أن الوقت ما يزال باكراً.

استمرت قلوبنا وأرواحنا في التقارب يوماً بعد يوم، أحسب الوقت للقائها لنمضي النهار في التسكع بين الشوارع والمقاهي والمتنزهات.

أما الأصحاب فكثيراً ما خرجوا بصحبة شيخة ولطيفة رغم أنهما لم تكونا تبتعدان عن أسرتهما لوقتٍ طويل.

* * *

ممتعةٌ صحبةُ راشد، سخريته من كل شيء وأسئلته التي لا تنتهي، ها أنا اليوم ألبي رغبته في الذهاب معه إلى السوق ليختار بعض الهدايا رغم أنه ما يزال أمامنا وقت طويل قبل العودة.

قال ضاحكاً: ـ لا بد أن نشتري من باريس.

قلت: وما الحكمة أفادك الله؟.

قال: ـ أبداً، سيقدرونها عندما نقول إنها من باريس من المحل المشهور أو من الماركة المعروفة.

قلت: ـ أتمزح؟، صدقني، هذا واقع حالنا، نفعل الكثير من الأشياء التي لا تقنعنا أو حتى لا نحبها، نشتري أحياناً ما لا يلزمنا فقط من أجل أن يشير الناس إلينا أو يتحدثوا عنا، إنها الرغبة في أن نكون محط الأنظار أو مثار الجدل.

سألني عن رأيي بشيخة، بينما يفتش سطراً طويلاً من القمصان من دون أن ينظر إليَّ.

قلت: ـ لا بأس بها، فتاةٌ جميلة، وغنية، ليست هناك امرأة كاملة على كل حال.

قال: ـ ألا تلاحظ أنها تميل إليك؟.

قلت: ـ لا أبداً، وكيف ذلك؟.

قال: ـ تسألك أكثر منّا، تحاول التعرف عليك بشكلٍ أعمق..

قاطعته ضاحكاً: ـ لا، صدقني لا، ربما تسألني في مواضيع تعتقد أني ملمٌ بها، أمّا التعرف فربما كنت غامضاً في نظرها فأحبت أن تكتشفني، قد تشعرها المعرفة بمزيد من الثقة، أنت تعرف أنها تميل إليك لكن أردت أن تسمع ذلك مني، أليس كذلك؟.

تصنع الاستغراب وترك القميص قائلاً: ـ تمزح!، لي أنا؟. يشير بكلتا يديه إلى نفسه وينظر إليَّ كمن ينتظر التأكيد بينما تغالبه ابتسامة.

قلت: ـ نعم يا صديقي، أما من جهتي فليست أكثر من معرفة أو صديقة في أفضل الأحوال.

قال ضاحكاً: ـ قلبك مشغولٌ بصبرا!.

قلت: ـ المهم قلبها هي.

قال: ـ بحق عمار، أخبرني هل تعرف أنك متزوج؟.

قلت: ـ نعم، تعرف كل شيء.

قال: ـ يا للخيبة، لماذا أخبرتها، على الأقل لوصبرت الآن.

ضحكت وأنا أنظر إليه يبادل أكياس الهدايا بين يديه، فلم يكن له من جوابٌ أفضل من الضحك.

لا يطلعني صاحبي على بعض الهدايا التي يشتريها للنساء وعذرته إلى حدٍّ ما، ذلك أنه من قومٍ يكادون ينكرون وجود النساء في

بيوتهم، ما زلت أتذكر المشهد حين عنف الرجل ابنه حين قال عمتي فلانة، وسماها باسمها، لا أدري من أين جاءوا بذلك، من قال إن أسماء النساء عورات أو أسرار يجب إخفاؤها.

قال، ونحن عائدان إلى الفندق: ـ عمار، هل سمعت بالحديث الذي يقول «أحب الأعمال إلى الله سرورٌ تدخله على قلب مسلم».

قلت: ـ لست ضليعاً في الحديث ولا أعرف إن كان صحيحاً، ولكن هات من الآخر!.

قال مبتسماً: ـ أحاول التقرب من شيخة لكني لا أعرف كيف أصل، تختلط أوراقي كلما قابلتها فلا أدري ماذا أقول.

قلت: ـ أوراقك لم تنتظم مذ عرفتك، لكن لا عليك.

قال: ـ عمار، بالله عليك دعك من المزاح.

قلت: ـ لا أمزح، كنت في عهدة أمك حتى سلمتك إلى الجامعة فالوظيفة، لم تختلط بعالم النساء، لا تحسب نفسك وحيداً، فأغلبنا يعاني مشكلة التواصل هذه، على كل حال يقال إن المرأة مثل اللغة لا يمكنك أن تتعلمها بيوم.

قال متذمرا: ـ يا إلهي، ما أكثر فلسفتك، لا أحتاج إلى كل هذا، فقط أخبرني كيف أتقرب إلى الفتاة بما أنك عارفٌ بشؤون النساء. ويضحك.

قلت: ـ كن على طبيعتك، لا تتصنع شيئاً.

قال: ـ وإذا فشلت؟.

قلت: ـ ليست نهاية العالم، حاول مرةً أخرى إن كنت تشعر أنها لا ترفضك.

قال: ـ وإن أساءت معاملتي؟.

قلت: ـ لن تفعل طالما كنت مهذباً، تذكر دائماً أنك أنت من يختار الطريقة التي يعاملك بها الآخرون.

اتصلت صبرا وأخبرتني أنها مشغولة وقد لا تستطيع الحضور لبعض الوقت، شعرت بالتعب أو الحزن في صوتها لكنها أكدت أن كل شيء على ما يرام وأنها ستنشغل ببعض الالتزامات.

سألتها إن كان بإمكاني المساعدة، فضحكت وقالت: ـ أبداً، الدعاء، لا شيء غير الدعاء.

زادتني عبارتها الأخيرة حيرةً، وأغلقت السماعة من دون أن أعرف كم سيستغرق غيابها، وعدت إلى دوامة الانتظار من جديد، وبدافع التعب من رحلتي مع راشد أخلدت باكراً إلى النوم.

وجدت أصحابي على مائدة الإفطار مع ليزا، صديقة ناجي وصديقتنا إلى حدٍ ما.

سألتني مبتسمةً بعد التحية: ـ كيف هي صديقتك الجميلة؟.

وكانت قد صادفتها معنا مرةً أو مرتين.

اشتكى راشد في تلك الجلسة من عدم وجود نشرات أو إرشادات لما زاره من معالم المدينة باللغة العربية رغم وجودها بلغات أخرى كثيرة.

قال ناجي: ـ نحن من أعطاهم الحق في إهمال لغتنا بتطفلنا على اللغات الأخرى.

قلت: ـ وليست هناك جهةٌ تتحدث باسم العرب، تشرح احتياجاتهم وتصرخ في وجوه الناس نيابةً عنهم إذا استلزم الأمر.

قال راشد: ـ أعتقد أننا أموال تأتي إلى الغرب لتُجنى من دون عناء.

قال ناجي: ـ نحن من فعل ذلك بتفرقنا وتشرذمنا حتى في المصالح والأمور العامة التي تهم الجميع، ألم تسمع: ـ

ما يبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ما يبلغُ الجاهل من نفسه

قالت ليزا، بعدما ترجم لها ناجي بعض حوارنا: ـ سأتحدث

كصديق، أعتقد أن أمتكم ما تزال نامية في بداية الطريق.

أرادت أن تقول متخلفة لكن هذبتها المجاملة.

قال راشد: ـ التعليم عندنا إلزامي منذ سنين طويلة، لا تكاد تجد اليوم في بلادنا شابة أو شاباً غير متعلم.

قالت: ـ ما أقصده هو استيعاب الحضارة والمدنية الحديثة، أسلوب الحياة والتفاعل بين أفراد المجتمع، تنظيم العلاقات وترتيب الأولويات، أقصد كل نشاطات الحياة وليس مجرد التعليم، لا أدري إن كانت طريقتي في الحديث مفهومة، لكن ما أقصده هو كيف تستطيع الأمة نقد ذاتها وتطوير إمكاناتها والاستغلال الأمثل لقدراتها وثرواتها.

قال ناجي: ـ هل تعتقدين أن الأمريكيين أو الأوروبيين أفضل منا؟.

سكتت قليلاً ثم قالت، وهي تعرك أنفها: ـ نعم أعتقد أنهم أفضل.

قالتها وهي تجمع يديها على الطاولة وتنظر إلى ناجي كأنما تستعد لإجابةٍ أخرى.

قال، مبتسماً: ـ بالصفات الموروثة أم المكتسبة؟.

قالت: ـ أسئلتك جيدة، أعتقد أنهم أفضل بالإثنتين معاً.

هنا أحببت التدخل لكن ناجي أشار بيده يستوقفني وقال: ـ أفضل بصفات مكتسبة كالخبرة والممارسة والبيئة الحضارية والثقافية ربما، لكن بصفات موروثة، مثل ماذا؟.

قالت: ـ مثل القدرات الجسدية والذهنية أحياناً، ألا تصدق أن ما تراه من إنجازات باهرة وتقدم عظيم هو انعكاس لقدرات الأمم الغربية ودليلٌ على تفوقها.

قال ناجي: ـ ربما، لكن أعتقد أن انطلاق الحضارة المادية

عندكم قبلنا بخمسة قرون، وتراكم التجارب قد صنع البيئة التي تتحدثين عنها، دشنت بلدية لندن قبل مئات السنين بينما عملت أول بلدية في الخليج قبل خمسين أو ستين سنةً لا أكثر، انطلقت الجامعات ودور البحث في الغرب قبل قرون بينما لم نعرف مراكز البحث والتطوير، ولا تستحق أغلب جامعاتنا اسم جامعة حتى اليوم، يذهب الناس في أوروبا الغربية إلى صناديق الاقتراع منذ خمسة أوستة أجيال، ألا تؤمنين أن هذا هو ما يصنع الفرق؟.

قالت: ـ يصنع بعض الفرق، ربما، لكن الآخرين قدموا لكم التجربة والمثال، فلماذا لا تختصرون المسافة.

استعجلت هذه المرة قائلاً: ـ هذا ما نفعله الآن، في بضع سنوات سنكون مثلكم أو حتى أفضل منكم، لأننا سنحتفظ بالأشياء الجميلة التي فقدتموها على طول الطريق.

ضحكت وقالت: ـ أشياء جميلة!، مثل ماذا؟.

قلت: ـ أشياء كثيرة تنقص مجتمعاتكم الآن، بالتأكيد ليست في جانب المادة، إنما التواصل والتكافل الاجتماعي والنظام العائلي والقيم الدينية والاجتماعية.

قالت ضاحكة: ـ إنها موجودة لكن بصورة مختلفة، هذه اختلافات مفاهيم لا أكثر، ولا عليك يا صديقي فعندما تلحقون بنا ستكونون مثلنا، هكذا تتطور المجتمعات.

قال راشد: ـ قلتم قبل قليل إن الحضارة انطلقت من الغرب، وتجاوزتم دور المسلمين والعرب وجامعاتهم في بغداد والقاهرة والأندلس وترجمة الكتب وتداول العلم وممارسة الطب، هل نسيتم أننا من صدَّر الحضارة إلى أوروبا؟.

قال ناجي ضاحكاً: ـ جامعاتٌ للعلوم الدينية منغلقةٌ على مذاهبها الضيقة، أما العلوم والطب فلم تكن مبنيةً على المناهج التجريبية

الصحيحة ولا مؤصلة ومثبتة، كانت مختلطة مع السحر والأساطير، لا يستحق أغلبها الحفظ ولا التدوين، لا أعتقد أننا ساهمنا بشيء له قيمة في الحضارة الحديثة.

قلت: ـ لكن البشر جميعاً إخوة، من أبٍ واحد وأم واحدة، يحبون ويكرهون، يضحكون ويتألمون بنفس الطَّريقة، ما الذي يفضل عرقاً على آخر، تدَّعون التقدم الاجتماعي بينما لا نرى بعض تقدمكم سوى انحراف وتحلل أخلاقي.

قالت: ـ وأنتم تدَّعون المحافظة والتدين، وليست بعض محافظتكم سوى رجعية وتخلف وخوف من مواجهة العالم المتغير من حولكم.

استمرت مناقشاتنا إلى وقت الظهيرة فانصرفت أكثر احتراماً للفتاة، ربما لم أقتنع ببعض طروحاتها لكني احترمت صراحتها ووضوح رؤيتها.

كثيرون من يتبرأون من قناعاتهم ليجاروا المجموعة وليتسقوا مع التيار ما طبع على قلوبهم قناعاً من الزيف يحول بينهم وبين رؤية الحقائق.

اكتشفنا في تلك الجلسة جانباً آخر من شخصية ليزا غير التي عرفناها في السهرات أو في نادي الرقص، ترسم الصراحة معالم وحدود العلاقات بشكلٍ آمن!.

كنا ندعو طوني للخروج معنا ومشاركتنا النزهات حين لم يكن لنا أصحاب ولم نكن على معرفة بالمدينة، أما الآن فقد تباعدت زياراته ولم نعد نراه كثيراً.

* * *

مضى أسبوعٌ طويلٌ قبل أن تتصل صبرا، كان صوتها يحمل نسائم الفرح: ـ صباح الخير عمار.

قلت: ـ صباح الأنوار عزيزتي، أين كنتِ؟، قلقت عليك.

قالت: ـ أبداً، كنت مشغولة مع والدي.

قلت: ـ أهو بخير، طمئنيني.

قالت: ـ نعم، هو بخير، الحمد لله، أخبرني هل اشتقت إليَّ.

قلت: ـ أكثر مما يمكنني أن أصف، لكن كم من الصبر يلزمني لأراك؟.

قالت بنبرة سعيدة: ـ قريباً ستسمح الظروف.

هكذا كانت، لا تحصل منها على يقين.

بعد يومين أو ثلاث، كنا نجلس في بهو الفندق بعد الإفطار، وكان ظهري إلى الباب حين فوجئت بصوتها تلقي التحية، نهضت فرحاً بحضورها بينما تبدت علائم الحياء على وجهها واحمرت وجنتاها. عرَّفتها إلى الفتاتين اللتين ذكرتا سهرتنا، جلست إلى جانبي بينما راحت شيخة تكمل سرد نكتتها، وكانت تجلس على الأريكة المجاورة تتحدث بعفوية وتضحك بصوت عال.

استأذناهم للخروج بعد أحاديث ضاحكة، وما كدنا نتجاوز الباب حتى قالت: ـ أرجو أن لا أكون قد ضايقت أحداً.

قلت مستغرباً: ـ تضايقين من!؟.

قالت: ـ أبداً، كنتم تجلسون مع بنات بلدكم وحضرت من دون موعد.

قلت: ـ صبرا، كنا نجلس في البهو، ثم إنهن معارف لأصدقائي، ومتى كنا نتقابل بمواعيد؟.

نظرت إليَّ مبتسمةً وقالت: ـ لكن السمراء كانت تنظر إليك طول الوقت.

قلت: ـ لم ألاحظ، كانت تتحدث إلى الجميع.

قالت: ـ بل كانت تتحدث معك، وتحدق في عينيك.

شعرت ببعض النشوة لكني تجاهلت: ـ صبرا، لا بد أنك تمزحين، هل أنت غاضبة؟.

قالت: ـ لا أبداً، أنا فقط أذكر ملاحظاتي كامرأة.

ثم أردفت: ـ يبدو أنهما ثريتان.

قلت: ـ دعينا من ذلك وتعالي نكمل فرحتنا بحضورك، أين سنذهب اليوم؟.

قالت: ـ لا أدري.

قلت: ـ لكن إلى أين نمشي الآن؟.

قالت ضاحكةً: ـ أيضاً لا أدري، أم م م، ما رأيك بالحي اللاتيني؟.

قلت: ـ جيد، جيد، عدة مرات كنت أريد أن نذهب إلى هناك لكني أنسى عندما أراك.

تبسمت وقالت بصوت رخيم: ـ تضحك عليّ؟.

قلت: ـ أبداً والله، هذا ما يحصل كل مرة، واليوم أراني مفتوناً بهذا الثوب الجميل.

قالت: ـ ألا يمكنك أن تغض النظر!؟.

قلت متمثلاً: ـ

إطراقُ طرْفِ العين ليس بنافعٍ إنْ كان طرفُ القلبِ ليس بمطرقْ

قالت: ـ عمار، أرجوك، إنك تحرجني.

شعرت أن ما قلته أسعدها ونفى ما قد يكون خطر ببالها، على كل حال تحبك المرأة أن تتغزل بها، وإن اعترضت فما عليك سوى أن تتمادى، إذ لا يعدو اعتراضها أن يكون تساؤلاً، هل أنت جاد!؟.

تعجبني الأماكن الشعبية والأثرية، أجدها أكثر دفئاً وأقرب إلى

النفس من أماكن التكلف والاستعراض، لها نكهتها الخاصة وتزينها البساطة والأصالة، كنا سعيدين ومنسجمين مع سيل السياح المتدفق في كل اتجاه، لا أنسى تلك النافورة العظيمة حين سرحت أفكاري مع شلال المياه، توقفت هناك لا أشعر بمضي الوقت ولا بهذه الواقفة إلى جانبي حتى شدتني من ذراعي: ـ عمار ألا يجب أن نذهب؟، لقد أطلنا الوقوف.

جلسنا في مطعم مكسيكي ضيقٍ ومعتم يقع في زقاقٍ لا يزيد عرضه عن عشرة أقدام، ولأن المشي قد أخذ منا ما أخذ كنا مرتاحين لمجرد الجلوس، وكذا حال الطعام فقد سوغه الجوع لا أكثر!.

سألتني، ونحن نأكل، إن كنت سعيداً؟.

قلت: ـ ما دمنا معاً فأنا أسعد الرجال في هذا العالم.

ضحكت وهي تزيل خصلات الشعر عن وجهها وتجمع مرفقيها على الطاولة ثم تنحني إلى الأمام: ـ أعني تعتبر نفسك سعيداً في الحياة؟ تفهمني، لكنك تحب المشاكسة، أعرفُ ذلك.

نظرت في داخلي وسألت نفس السؤال، فلم أجد إجابة.

قلت: ـ انظري آنستي، إن كان مقياس السعادة هو المادة أو الوضع الاجتماعي أو الوظيفي أو حتى الصحة فأنا سعيدٌ من دون شكٍّ، لكني لا أشعر بالسعادة، ثمة عاطفةٌ عطشى بداخلي، ثمة حاجة لا أعرف كيف أصفها، ربما بسبب بعدي عن أمي أيام صغري ونشأتي بين أطفال يتمتعون دوني برعاية أمهاتهم، كأنما يذكرونني حاجتي لها كل لحظة، تزوجت أملاً فيما قد يعوض ما فاتني، لكنها بقيت غريبة وبعيدةً عن قلبي، ثمة أشياء لا يمكن التحايل عليها، أنا لا أمزح حين قلت إنك تبعثين في قلبي مشاعر لم أعشها من قبل، لم

أشعر بارتواء عاطفتي يوماً قبل أن ألتقيك وأعرفك وأعرف ما في قلبك رغم تحفظك وكتمانك.

امتقع لونها ووجمت قليلاً وهي تدير كوب الشاي بين يديها، ثم قالت: ـ

دعِ المقاديرَ تجري في أعنَّتها   ولا تبيتنَّ إلّا خالي البال

دعنا من هذا الحديث الآن، فلكل شيءٍ أوانه، ألا تعتقد أن السعادة شعورٌ داخلي لا يتعلق بشيءٍ قدر تعلقه بطبيعتنا وبطريقة رؤيتنا وفهمنا للأحداث من حولنا؟، قد تكون السعادة موجودة ومثمرة فقط تحتاج إلى من يستشعرها ويقطف ثمارها، ثمة من يرحل طلباً للسعادة وهي موجودة بين يديه، أعماه عنها سوء حظه وتطلعه إلى ما في أيدي الآخرين، أما الممتلكات والأموال فلا تجعلك سعيداً بالضرورة، أعرف شاباً فرنسياً، حين كنت في الجامعة، ربط يديه وألقى بنفسه في السين، رغم غناه ورغم وسامته، وعرفت في الماضي أقواماً سعداء رغم الفقر ورغم الحرب ورغم المستقبل المجهول، لا تحلم بأكثر من الممكن وإلا ستعيش حياة قلقة متوترة ولن تهنأ بما في يديك، أعمارنا لا تتسع أحياناً لكل أحلامنا.

قلت: ـ صبرا، أعتقد أن الحب يمنح من السعادة ما لا يمنحه شيء آخر، يغرينا بالحياة، يزودنا بالصبر والأمل ويصنع لنا أحلاماً جميلةً كل ليلة.

قالت: ـ قد يكون ذلك صحيحاً لكني أعرف أن الإيمان هو ما يبعث الأمن والرضى في النفوس، قرأت لأحد العارفين «إن في القلب شعثاً لا يلمه إلا الإيمان، وفي الروح وحشةً لا يؤنسها إلّا الإيمان، وفي النفس فاقةً لا يسدها إلا الإيمان».

جربنا كسر الأطباق لأول مرة وألصقنا على الجدار ورقة عملةٍ

خليجية نقشنا عليها اسمينا كما يفعلون، ثم مررنا في طريق العودة بمقهى كان يرتاده بعض أعلام الأدب الفرنسي.

قالت، وهي تشير إلى المكان: ـ هنا كان يجلس جان بول سارتر.

قلت: ـ زعيم الوجودية؟.

قالت ضاحكة: ـ هو بعينه، هل قرأت له؟.

قلت: ـ قرأت بعض ما كتب، أتذكر «أزهار الشر».

قالت: ـ كيف وجدتها؟.

قلت: ـ لم أستطع إكمالها، أصابتني بالقلق والتوتر، لذلك أتذكرها.

قالت: ـ ما تقول في فلسفته؟.

قلت: ـ لا أظنني قادراً على تقييمه، لكن تعجبني أحياناً جرأته على طرق المواضيع المحظورة وطريقة صياغته لشخصياته ومناقشة المسلمات من دون اعتبارللقيود، يعجبني تنبهه لجوانب دقيقةٍ من المنطق يكثر تجاوزها عند الآخرين، وبالتأكيد هناك ما لا أطيقه من أطروحاته لعل لها الجانب الأكبر.

قالت: ـ لا أعتقد أن ثمة مشكلة إذا عرفنا ماذا نأخذ وماذا ندع.

مررنا بأحد المشردين عند مدخل الميترو فقلت، وأنا أشير إلى الرجل العجوز الجالس على الأرض: ـ بحق، صبرا من يعتني بهم؟.

قالت: ـ لا تقترب منه كثيراً فقد يؤذيك، أكثرهم مدمنون. ثم أردفت: بعض الجمعيات الخيرية تساعدهم، لا أعرف بالضبط، لكن البلدية تهتم بهم حين يموتون.

قلت: ـ أليس لهم أبناء أو أقارب؟.

قالت: ـ لا أعتقد، وإلّا لما كان هذا حالهم. ثم استدركت: وحتى إن كان، فالأمر يختلف عمّا تعودناه، يعيش الإنسان في بلاد الغرب لنفسه وقلما يلتفت لأحد، يعتبرون من يعول طفلين أو ثلاث، ومن يلتزم بعائلته وحياته الأسرية شخصاً مميزاً . .

استكملنا حديثنا حتى دخلنا مسقط الميترو حيث يمكنك التعرف على نظام نقلٍ من أكفأ أنظمة النقل وأكثرها دقةً وتطوراً في العالم، وحيث لا يحبون الثرثرة ورفع الصوت.

كانت صبرا متآلفةً مع النظام، تسير بخطى حثيثة لتدرك خطها بينما أقف أو أسير متأنياً لتحديد الاتجاه ولون القطار، مما يضطرها لمناداتي أو الإمساك بيدي كل مرة متجاهلةً رغبتي في التعلم.

قالت: ـ أنت هنا معي وسأكفيك هذه المهمة.

قلت: ـ حسناً وإذا لم أكن معك؟.

قالت: ـ مع من ستكون؟.

قلت: ـ وحدي أو مع أحدهم.

قالت: ـ تقصد مع إحداهن!.

قلت: ـ وليكن، ستمنعينني!؟.

قالت: ـ لا أبداً. ثم دنت قليلاً وصكت أسنانها وهمست مع ابتسامةٍ واثقة: سأقتلك!

ضحكنا بصوت منخفض ساد بعده الصمت، وسرحت أتأمل تبادل الناس على المقاعد في كل محطة وكأنها الحياة، جيلٌ من القادمين يأخذ أماكن من غادروا، يجلس شيخ ثم يجلس شاب لتأتي من بعده امرأة، ويذهبون جميعاً ليعود المقعد مثلما جاء خالياً في الصباح.

وجدنا الموسيقيَّ المسن الذي تعودنا رؤيته عند مخرج الميترو يحتضن الأوكرديون الأسود المطعَّم بالكروم ويعزف لحناً خفيفاً يلائم

حال الاستعجال السائدة في المكان، وقد فرش منديله لفرنكات المارة. طريقة للتسول والمتعة في آن واحد!.

طلبت منها أن تحضر معي لحظات الغروب حين وصلنا متأخرين إلى الفندق.

قالت: ـ كيف تشعر وقت المغرب؟.

قلت: ـ أحس بحاجةٍ إلى قرب من أحب، تصيبني في حالات الوحدة نوباتٌ من الضيق تقترب بي من البكاء فأفضِّل النوم أو لزوم الصمت حتى تمر بسلام، لا أعرف كيف أفسر الارتباط بين نشرتي النفسية وبين لحظات الغروب، ربما الخوف من الأعمال السيئة في لحظات الصفاء والحضور.

قالت: ـ لا أعتقد أن لك أعمالاً سيئة.

قلت: ـ لا بد من الخطأ والتقصير!.

قالت: ـ إذا لم نخطئ يا سيدي فلماذا شُرِّع الاستغفار!؟.

على كل حال «لا أخاف عليك أن تخاف، إنما أخاف عليك ألّا تخاف» ألم تسمع بهذا؟.

* * *

لا أنسى الليلة الأولى التي حضرت فيها مجتمع المقاهي الصيفية، لا تكاد تلمح في بعض المقاهي غير الوجوه العربية ولا تسمع سوى اللهجات الخليجية، مقاهي الشانزليزيه مزدحمة لدرجة أني صدقت ما يقال من أن بعض الأثرياء يحجزون الطاولة مقابل آلاف الفرنكات ريثما يصلون متأخرين!.

ثمة مهرجان يقام هناك كل ليلة، يبدو المكان مثل مسرح كبير، الجميع يمثلون والجميع يشاهدون، يتخلل الحشود مجموعات من المهرجين والعازفين والباعة المتجولين ومن فتيات الليل يتنقلن من مقهى إلى آخر يتصيدن الأثرياء.

حافظت الفتاتان على قدرٍ من الوقار، الذي عللته لطيفة: ـ مكان عام يقصده الكثير من أهل الخليج ولا نأمن أن يكون بينهم من يعرفنا. قلت في نفسي إن كان ما نفعله خاطئاً فلماذا نفعله من البداية وإن لم يكن فلم الخوف؟ ما الذي يجعلنا نخشى الناس كأنما ينظرالله إلينا بعيونهم!.

لاحظنا كثرة المرافقين الأجانب والخدم مع بعض العائلات، وكان واضحاً جانب الاستعراض والمباهاة.

أراهن أن أموالاً طائلةً تراق في كازينوهات وفنادق ومقاهي أوروبا بينما الملايين في بلاد العرب يطحنهم الجوع والجهل والمرض.

بدت ملابس شيخة أكثرانسجاماً هذه الليلة، تخلت عن ألوانها البراقة ولم نلبث نحن أن تخلينا عما كنا نعتبره وقاراً. راشد والهدوء لا يجتمعان بمكان، ويبدو أن شيخة من نفس التركيبة إذ ما لبثت أن أطلقت العنان لضحكاتها وسط زحمة أحاديث السمّار من حولنا.

جلس إلى جانبنا رجلٌ مشهورٌ من أهل الخليج مع مجموعةٍ من مرافقيه، يتحدث إليهم بتكلف، يزم شفتيه ويشير من أعلى كأنما هو أرفع درجةً من الناس أو كأنما الجميع في حاجته، غريبٌ أننا لم نشعر بكراهيته قدر شعورنا بالشفقة عليه مما هو فيه، وعلى الجانب الآخر مجموعة نساء متوسطات الأعمار يواصلن ما بدا أنها ثرثرة الضحى في بيوتهن عن الأولاد والخدم والمسلسلات التلفزيونية وصولاً إلى الحناء والبخور.

أتذكر من أحاديث تلك الليلة قول لطيفة: ـ أحسدكم على الألفة والتواصل بين عائلاتكم وعلى فرحكم بالأشياء الصغيرة، قلما نفرح بالملابس أو بالمجوهرات أو حتى بالسيارات الجديدة، صار الفرح عزيزاً!.

قلت: ـ هكذا هي الأشياء التي تأتي من دون مشقةٍ وانتظار.

قال ناجي: ـ ليست الأشياء والممتلكات هي ما يجعلنا سعداء، المشي بين المحتاجين وتلمس حاجاتهم، المسح على رأس اليتيم وتفريج كرب المكروبين، هذا يا سيدتي ما يجعل المرء سعيداً.

قالت شيخة: ـ صحيح، ولو كنا نتصدق فقط بثمن الساعات والأحذية التي نشتريها لكنا بخير، لكن صدقني ناجي، إننا نحب عمل الخير..

قاطعها: ـ المحبة وحدها لا تطعم الجياع يا شيخة، لا تشعرك بلذة العطاء ولا تمنحك ذاك الشعور الدافئ بالرضى.

انسحبت نحو من أحبها قلبي وتمنيت لو كانت هنا، إذاً لكنت أسعد الحضور، كل ما في هذا المكان سيصير أجمل فقط لو كانت حاضرة!.

بدا الانسجام واضحاً بين ناجي ولطيفة وبين راشد وشيخة، ودار الكثير من الأحاديث الهامسة على طول طريق العودة.

اتصلت بسلمان عند عودتنا لكني عدت وأقفلت الخط حين انتبهت لتأخر الوقت، ولأني لم أكن متعوداً على السهر أخذني النوم فلم أفق إلا على جرس الهاتف، وكانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة.

قالت: ـ صباح الخير، هذه أول مرة أجدك نائماً في هذا الوقت!.

قلت: ـ صباح الأنوار، يبدو أن النوم قد استبد بي.

قالت: ـ أنا قادمة في الطريق، هل أنت جاهز؟.

قلت: ـ سأكون جاهزاً في الحال.

أخذتني الغفوة حتى أيقظني هاتفها مرةً أخرى من الاستقبال: ـ عمار أما زلت نائماً، هل تشعر بتعب، أم تحب أن نؤجل نزهتنا اليوم؟.

قلت: ـ لا، لا، أنا آسف سأكون عندك حالاً.

أنجزت أقل ما يجب من عاداتي الصباحية، ثم لبست ما وجدته أمامي وأسرعت ماراً بغرف أصحابي الذين سينامون إلى آخر النهار. ساد الصمت بينما نتناول إفطارنا قبل أن تسألني عن سر النوم الثقيل ونحن خارجان، يبدو أنها فقدت شهيتها للمرح والمزاح، كانت تخطط، على ما يبدو، ليومٍ استثنائي.

جلسنا على رصيف السين مقابل كنيسة نوتردام تحيطنا الورود صامتين، أنا من أثر النعاس وهي من العتب، لم يقطع صمتنا سوى أصوات الطبول المتدفقة من جهة الجسر حيث تعزف فرقة الهواة.

أمسكت بيدها وقبلتها قائلاً: ـ صبرا هل غضبت مني؟.

التفتت إلي بابتسامةٍ هادئة: ـ لا، أبداً، لماذا أغضب؟.

وسكتت قليلاً ثم أردفت: ـ يمكنك أن تفعل ما يحلو لك.

قلت: ـ ما يحلو لي هو أن أكون معك.

قالت: ـ إذاً فلماذا تخرج مع هؤلاء الفتيات؟.

قلت: ـ أبداً، إنهن معارف، سبق وأخبرتك.

قالت: ـ عمار، أنا امرأة وأعرف النساء، لا تخرج المرأة مع رجلٍ لا تُمَنِّي نفسها منه بشيء.

قلت: ـ تقصدين علاقة حب؟.

قالت: ـ نعم، في حالتكم، حب أو مشروع حب.

قلت: ـ صدقيني صبرا، إن كان هناك من حب أو مشروع حب فمع راشد وناجي، أما أنا فلم أكن أكثر من ضيف أو مشاهد، حتى أني تمنيتك البارحة أن تكوني معنا.

قالت ضاحكةً وهي تنظر إلى مراكب السياح العابرة: ـ واضح،

واضح. ثم أضافت، وقد بدا أن الغمامة شارفت على الانقشاع: ـ لماذا لا يذهبون وحدهم؟.

قلت: ـ أشعر أنه نوع من اللياقة أن أكون مع أصحابي، قد لا يريحنا أو لا يلائمنا الالتزام لكننا نفعل الواجب لأنه واجب ونأتي على أنفسنا من أجل من نحبهم.

قالت: ـ لا أدري كيف أقول، تغلبني كل مرة وكأني المخطئة.

قلت: ـ لست مخطئة، كم تسعدني غيرتك؟.

قالت، وكأنما انتبهت للتو: ـ ماذا تقصد؟.

قلت: ـ أقصد أن الغيرة هي آكد طباع المرأة، تغار المرأة على من تحب.

قالت: ـ مهلاً، دعني أصحح لك هذا المفهوم، تحب المرأة أن يكون الرجل لها وحدها لترى إن كانت تحبه حقاً.

كان لكلامها وقعه في نفسي رغم قناعتي أن نار الغيرة ومزاحمة النساء يدفعان بالمرأة لفضح مشاعرها وللتخلي عن تحفظها.

انتبهت من شرودي وهي تلوِّح للأطفال في المركب السياحي الذي يعبر قربنا.

قلت: ـ صبرا، بصدق، لا أشعر أن امرأة أقرب إليَّ منك، ولا أدري إلى أين ستذهبين بقلبي.

وضعت يدها على عنقي وراحت تبعثر شعري بين أصابعها ثم مالت برأسها على كتفي، فأحطتها بذراعي وكان ذلك أبلغ من أي كلام.

كم وددت لو توقف بنا الزمان أو نسينا عند ذلك الرصيف، لكنه تسرب وذهب بأيامنا الجميلة فلم يبق منها سوى الذكريات كآثار الكلوم.

أكملنا جلستنا في مطعم البيتزا القريب الذي تعودت أن تمر به،

كأنما أرادت أن أشاركها الأشياء والأماكن التي تحب، لا أزال أتذكرها تعاتبني ضاحكةً حين مازحت النادلة التونسية.

سهرت بعد ذلك مرتين أو ثلاث مع الأصحاب، وكان كل شيء في تلك السهرات يعجبني، الجو، الحضور، المهرجين، العابرين من حولنا والجالسين معنا سوى أني لم أكن متعوداً على السهر ما سبب لي الإعياء، فبينما ينام الأصحاب أيام العطل إلى آخر النهار لم أكن أتخطى العاشرة صباحاً في السرير، لذا آثرت البقاء مع الكتب والتلفزيون.

جاءني هاتفها، حين آويت إلى فراشي بين الغفوة واليقظة، تخبرني أنها ستحاول المرور غداً صباحاً، ثم أخبرتني قبل أن تغلق الهاتف أنها سألت عني البارحة ولم تجدني.

قلت: ـ سهرنا في المقهى الذي ذكرت لك.

قالت: ـ مع نفس الفتيات؟.

قلت: ـ نعم.

قالت: ـ أرجو أن تكونوا قد استمتعتم!.

استغرقت في النوم بعد التعب الذي سببه سهر الليالي الماضية ولم أفق إلا على هاتف راشد يدعوني للإفطار.

قلت: ـ ما الذي أيقظكما باكراً هكذا؟.

قال ضاحكاً: ـ أنزل بسرعة للإفطار مع الضيوف.

وجدت أصحابي مع شيخة ولطيفة ينتظرونني في البهو، كانوا على اتفاق ربما من البارحة ليذهبوا إلى قصر فيرساي أما أنا فما كنت لأذهب من دونها.

بدا الحديث مرحاً ضاحكاً ومتداولاً بين شيخة وراشد بينما لا نزيد نحن الباقين على الضحك والتعليق، كان ظهري مما يلي الباب وإلى جانبي شيخة تميل برأسها أو تضع يدها على كتفي كلما تحدثت

أو ضحكت في حركاتها العفوية التي ألفناها، مضى الأصحاب ومضى الوقت وبقيت وحدي مترقباً قدومها.

سألوني، كما هي العادة حين عادوا في المساء، عن يومي فأخبرتهم أني متضايق لأن صبرا وعدتني بالحضور ولم تحضر ولم تتصل.

قال ناجي: ـ إذاً كنت تنتظرها؟.

قال راشد: ـ يا الله كيف نسيت!، رأيتها تدخل وتقترب ثم تغير وجهتها نحو الاستقبال، ظننتها ذهبت لاستعمال الهاتف.

قلت: ـ متى كان هذا، كيف لم أنتبه؟.

قال: ـ في الصباح قبل أن نخرج بقليل، كنا مشدودين لأحاديث شيخة.

لزمت الصمت واستمعت لأحاديثهم المطولة عن فيرساي من دون تعليق، ثم ذهبت مع راشد أساعده في اختيار ملابس السهرة وعقد ربطة العنق.

قلت: ـ ستذهب وحدك؟.

قال: ـ نعم، سأذهب للعشاء مع شيخة.

قلت: ـ ثمة مشروع حب؟.

قال ضاحكاً: ـ من جهتي المشاريع كثيرة.

قلت: ـ لا تهيء أفراحك يا صديقي.

قال مستغرباً: ـ ماذا تقول!؟.

قلت: ـ كما سمعت، قلَّما تدوم المسرات.

قال: ـ عمار، لا تفسد ليلتي أرجوك، ليس هذا مقام الفلسفة والتشاؤم.

قلت: ـ أنا لا أخوِّفك ولا ألومك، إذهب واستمتع بليلتك.

قال كمن يستمد التشجيع: ـ كم أنا سعيدٌ بها، أخيراً تستيقظ أحلامي ويتذكرني الحظ، أنا الذي لم ألامس جسد امرأة ولم أحضر لقاءات العشاق أكثر من مشاهد.

قلت: ـ كن على سجيتك، لا تحاول أن تصطنع شيئاً ليس منك، فإما أن تقبلك كما أنت وإما أن تذهب بسلام.

ندمت على بعض ما قلت حين ذهب، يبدو أنه تأثير المزاج السيء.

قضينا المساء نتجول في الشوارع حتى استقر بنا المطاف في مقهى صغير قرب دار الأوبرا.

قال ناجي، بينما نأخذ مكانينا: ـ أراك واجماً منذ الصباح، لا أحب لك أن تكون حساساً إلى هذه الدرجة، تتطلب ظروف الحياة أن نكون أقل اكتراثاً وألّا نتوقف عند عثراتنا وإخفاقاتنا العاطفية.

قلت: ـ كل شخصٍ منا هو حالةٌ قائمةٌ بذاتها يرى الأحداث ويتفاعل معها بطريقةٍ مختلفة، لا نستطيع إعادة صياغة أنفسنا ودرجة تأثرنا بما حولنا، ولو استطعنا لانتهت مشاكلنا ولانطفأت الصراعات الأزلية المشتعلة بين ما تهواه القلوب وبين ما تمليه الضمائر والعقول، بين ما تقتضيه أعراف العائلة والمجتمع وبين قناعاتنا وفهمنا الخاص للحياة، في النهاية ما نحن إلا نتيجة هذه المتناقضات والتيارات المتداخلة.

قال: ـ لا تذهب بي بعيداً أرجوك، أتحدث عن علاقتك بالفتاة التي ستحبها من كل قلبك بينما قد لا تستطيع الوصول إليها، أخاف أن يأتي اليوم الذي لا تستطيع فيه الفكاك!.

قلت: ـ لم أذهب بك إلى أي مكان، ما قصدته أن الإنسان كلٌّ لا يتجزأ، أمّا الحب فهو يأتي حين يأتي من دون أن يستأذننا، ولو كان لنا أن نختار من نحب ومتى نحب لكان الأمر هيّناً.

قال: ـ دعني أخبرك بقاعدةٍ مفيدة في العلاقات النسائية، إذا أقبلت المرأة التي تعجبك فاغتنم إقبالها، وإن أعرضت فافسح لها الطريق ولا تلتفت، أعتقد أن من يعيشون على شفا تجاربهم أفضل حالاً وأقرب إلى النجاة ممن يغرقون وتتمزق قلوبهم.

قلت: ـ ألم تسمع «من يحب لا يفكر»، يا سيدي، قرأت مرةً لأحد الحكماء «إذا بدأت تعمل ضد مصلحتك الشخصية فأنت واقعٌ في الحب لامحالة».

قال: ـ أنت تصعِّب على نفسك الأمور، لعله إغراء التجربة الجديدة، ربما تكون الفتاة جميلة ومثقفة لكن أمثالها ومن هن أجمل منها كثير، وإن كنت ستتركها في النهاية فلِم كل هذا العناء؟.

بدا صاحبي عاقلاً بعدما عركته التجارب والأسفار، يتحدث بهذا الفيض من الواقعية وما يسميه الحكمة، بينما سرحت استعرض أياماً خلت من مراهقته وشبابه المبكر، كم كان متهوراً!، تطرأ له فكرة السفر أثناء السهرة فلا يصبح إلا مسافراً.

روى لي قصة صديقته الأمريكية وكيف بكى وتألم من هجرانها زمناً طويلاً، وكيف يضحك اليوم من بكائه وألمه.

قلت: ـ يعيدنا هذا إلى ما قلناه آنفاً، عليك أن تؤمن بالاختلاف.

قال: ـ أعرف والله، لكني أخاف عليك من حمى العبث، أخاف أن ينمو حب الفتاة حتى يحول بينك وبين ما يجب عليك تجاه نفسك وأسرتك، اقضِ معها وقتاً ممتعاً وأكرمها لكن لا تغرقها في الحب، لا تدعها تتمكن من قلبك ولا تمنِّها فتكسر قلبها.

قلت: ـ أتمنى أحياناً أن أكون مثلما تقول لكني ومنذ زمن عجزت أن أكون الرجل العابث.

بدت الصباحات حزينةً على غير ما تعودت، وبدأت أفقد الأمل في أن تعاود الاتصال، ترى غيرت رأيها في صحبتنا أم أن شخصاً

آخر أقرب مودةً مني قد ظهر في حياتها، أشغلت الهواجس تفكيري حتى لاحظ الأصدقاء والمعلمون في المعهد شرودي.

رحت أذرع الشوارع بعدما عنفتني المعلمة كرستينا أمام الزملاء بسبب تقاعسي في الدراسة، اهتديت بعد تطواف طويلٍ إلى شجرةٍ في الحديقة المجاورة للمقبرة كنا قد جلسنا تحتها وتناولنا الأيسكريم وضحكنا وبكينا ذات يوم، امتلأ قلبي بالظنون وبالمشاعر التي تغلب على التفكيرحين يكون المرء مظلوماً لا يعطى فرصة الدفاع عن نفسه، عندما يقع ضحية عفويته وسذاجته.

ترى هل تعمدت شيخة إفساد صحبتنا؟، هل كانت تراها وتعرف غيرتها حين مازحتني ووضعت يدها على كتفي، أم أنها مظلومة وساذجة مثلي؟.

راودتني فكرة الاتصال لكنني رأيتها غير مناسبة فهي التي تركتني من دون سبب، وهي التي يجب أن تعود على الأقل لتعرف الحقيقة. بدا لي أن اتصالي سيكون نوعاً من الهوان، وإذا فعلت فسأظل محرجاً مع كرامتي، لذا قررت ألا أفعل، من يدري فقد تعود من تلقاء نفسها. كان من طبعي تعليق مشاكلي وتأجيلها بانتظار أن تحل نفسها أو تحلها الأيام.

لم ألبث طويلاً حتى عدت للتفكير وعاد الشعور بالفقد ليؤلمني من جديد، لا أدري، بسبب التعود وما يسمى وجود الآخر في حياتنا أم هو الحب؟. كنت أشم عطرها مع كل نسمة هواء وأتوقع أن أراها بين كل اثنين يمران من خلف سياج الحديقة، تأكدت في ذلك المكان أن حبها ينمو ويجتاح قلبي مثل الأقدار التي لا يمكن تلافيها ولا منع حدوثها، لم يكن شيئاً آخر سوى الحب!.

عدت مكتئباً ولم أجد علامة الرسائل التي رجوت أن أجدها على

الهاتف بينما وضع الأصحاب إشارات عدم الإزعاج على مقابض أبوابهم وغطوا في النوم كمن لا قلوب لهم.

قضيت فترة المساء متململاً في الفراش متوسلاً النعاس تارة ومتقلباً بين أعمدة الجرائد أخرى، ومستعرضاً محطات التلفزيون ثالثة حتى أنقذني هاتف راشد يدعوني إلى الطعام في غرفته، حضرت مع ناجي في وقت واحد لنجد ساندوتشات الجبنة والشاي، حينها فقط تذكرت الجوع، يا إلهي!، ماذا دهاني!؟.

استعرضنا مشاريع الغد بعد العشاء الخفيف، وكانت ضحكات الأصحاب وتعليقاتهم مسموعةً عبر الممر، ماذا سوف نلبس وإلى أين سنذهب بعد عرض الليدو، وكالعادة احتدم بينهما النقاش وانتظرت النتيجة لأصفق مع الفائز، لا تختلف خياراتهما كثيراً لكنهما تعودا هذه الطريقة الصاخبة في الجدال حتى صارا يستلذانها، استأذنتهما لأرتاح ما تبقى من الوقت، فرجت عنّي تلك السهرة بعد يوم كئيب!

❊ ❊ ❊

بدت الفتاتان فاتنتين حين استقبلناهما على رصيف الليدو، الجو المنعش لا ينقصه سوى حضورها، ولأننا وصلنا باكرين عن موعد البداية اغتنمنا الوقت للتمشية بين أفواج السائرين على طول الشارع، فمجرد المشي في هذا المساء متعة.

حضرنا العرض الباهر في المسرح المشهور، وجدته أكثر سحراً وإثارةً من كل ما توقعت وما وصف لي، ربما كنت مهيئاً للتأمل فلا شيء سوى العرض يشغلني وأنا خياليٌ بطبعي متحفزٌ ومنتظرٌ لما هو فوق العادة، شدني منظر الجميلات يسبحن في سماء المسرح في أرديتهن البيضاء الشفافة، ورفرفة المنديل يتحول إلى حمامة تطير فوق رؤوس الجمهور، تتبدل المناظر والخلفيات لتبدو كل مرة وكأنها

الحقيقة بكل أبعادها ومؤثراتها ثم تتغير إلى أخرى أكثر إتقاناً وروعة، تتصاعد نوافير المياه في فضاء العرض حتى تتحسس رذاذ الماء على شعرك أو على سترتك، الفتيات الصغيرات بالملابس الشفافة يتراقصن بحركات بهلوانية متقنة، تخيلت لأول وهلة أنها صورة فتاة واحدة أعيد نسخها، هالتني قدرتهم على التنظيم والتناسق في أدق الأمور كما في أصعبها، ومن هنا جاء الفرق.

من الأشياء الصغيرة تكون البداية، الأمة كيانٌ وزخم واحد، ومن أبدعوا مثل هذا الفن سيبدعون في مختلف فنون الحياة.

أما نحن فتقطع حساباتنا المتضاربة سبيل بعضها وتشدنا إلى الوراء في عالم يتسارع من حولنا، متى سنتوقف لنرى أين نحن وإلى أين نمضي؟.

نبهتني موجة التصفيق إلى انتهاء العرض الجميل.

وجدنا أنفسنا في ذات المقهى الذي ترددنا عليه الليالي الماضية من دون أن نتشاور، جلسنا وطلبنا مشروباتنا كأنما هو تواطؤ داخلي، هكذا اتسقنا مع التيار، وأذابنا قانون التعود في دوامته حتى أصبحنا جزءاً منه نتكلم بمنطقه ونفكر بمفهومه، ذلك ما يجعل الناس يألفون بل ويدافعون عن بيئات رديئة وعن أنظمة حياة قد لا تستحق سوى الازدراء.

تظاهرت بعدم المبالاة لغيابها مع أن قلبي كان يتوجع كل لحظة، فضلت أن أحمل ألمي وحدي فلا صبرلي على اللوم أو النصح، لو كان سلمان قريباً لشكوت له حرَّ ما ألاقي من هجرها، كنت مؤمناً بضرورة الشكوى، على رأي من يقول «كيف يقال للصديق صديقاً إن كان لا يُفضى إليه».

لاحظت محافظة لطيفة على ارتداء طرحتها السوداء الناعمة، فلم أرها من دونها مذ تعارفنا، تجرأت وسألتها فأجابت: ـ أبداً، إنه

التعود، لا أشعر بالراحة من دونها، كأنما هي جزءٌ مني..

أكملت شيخة ضاحكةً: ـ حتى عندما تنام تضعها قريباً منها، وإذا حدث وافتقدتها فسوف تضيء المصباح لتفتش عنها وتعيدها إلى مكانها قرب وسادتها، أعتقد أنها حالة نفسيةٌ تحملها في اللاوعي.

قلت: ـ للمجتمع دورٌ في هذا التعود، يحب الناس أن يروك على الصورة التي ألفوها عنك.

قالت لطيفة ضاحكةً وضاربةً كفيها ببعضهما: ـ أمسيت الليلة حالةً للبحث، لا حول ولا قوة إلا بالله!.

قالت شيخة وقد أعدلت قليلاً في جلستها: ـ من الضروري أن نراعي تصورات الناس وأحكامهم لأن رأيهم هو ما يصنع سمعتنا، قرأت مرةً لأحد الأدباء «من يسرق محفظة نقودي إنما يسرق شيئاً تافهاً لا يغنيه، قد كانت لكثيرين من قبله وستكون لكثيرين من بعده، إنما من يسرق اسمي الطيب هو من يجعلني فقيراً حقاً». سمعة الفتاة هي تاج عزتها، لذلك تجدنا نتناول المتع البريئة بشعور من يرتكب الجريمة مخافة أن يساء فهمنا.

قال ناجي: ـ الغريب أن الجميع يتمسكون ببعض العادات في العلن ويمقتونها في السر.

قالت شيخة: ـ ذلك تأثير ما يسمى العقل الجمعي، على كل حال هو يتغير باستمرار، وأظنكم توافقونني أن كثيراً من عاداتنا تغيرت خلال العشرين سنةً الماضية، أليس كذلك؟.

قال راشد: ـ بلى، جلستنا هذه وأحاديثنا وطريقة فهمنا لمتغيرات الحياة لم تكن هي نفسها، العالم يتغير ونحن جزءٌ من العالم.

كنت أستعيد خيالي من طريقه إليها كل مرة، أحاول الاندماج مع نكات راشد وحِكم لطيفة، كانت جلسةً أنيسة لكن للقلوب رغبات لا تقبل الإقناع.

فتحت باب الغرفة ونظري معلق على الهاتف، لعل رسالةً طال انتظارها قد وصلت، لكن من دون جدوى.

صبرت بعد ذلك يومين بديا طويلين جداً قبل أن أفتش عن رقم هاتفها، لم أكن متعجلاً فقد تتصل في أية لحظة، كانت فترات المساء هي أصعب أوقاتي حين نعود من المعهد فينام الأصحاب وأبقى وحدي في مهب أطيافها تستهلكني ساعات الانتظار.

تقبلت فكرة الاتصال أخيراً، ها هو رقم الهاتف في يدي، وها هي مقاومتي تتلاشى أمام الأعذار والمبررات، فعندما نرغب في شيء سنجد له من المنطق ما يسوغه!، ماذا لوكانت مريضة أو مسافرة أو محتبسةً حزينة إلى جانب والدها المريض، كررت تلك الأحاجي مع أنه لم يكن سوى الشوق العارم الذي استعصى على الصبر والمقاومة.

في لحظة اشتياق وبعدما أصبحت على بعد مكالمة لم يعد يهمني إن كان ما أفعله صحيحاً، بل لم تعد تهمني كل حسابات المنطق المقيت، لحظات حاسمة كنت أسمع قرع قلبي في انتظار صوتها.

ردت امرأة أخرى ظننتها الخادمة فأخبرتني بهدوء أنها نائمة من دون أن تسألني من أنا، أو إن كنت أريد تبليغها رسالةً أو خبراً.

ترى أكان عذراً مسبقاً، أكانت تعرف أني المتصل وتهربت مني؟.

لَمَ لا تتصل وتنهي الأمر إن كانت لا ترغب في رؤيتي، تذكرت أن الغيرة هي سبب ما يحدث وأن الغيرة من الحب، لكني تذكرت قولها «تريد المرأة أن يكون الرجل لها وحدها وإن لم تكن قد أحبته بعد»، أزعجتني تلك الخاطرة فتجاهلتها.

قلت للسيدة بعد بعض الوقت على الهاتف: ـ أبلغيها من فضلك أني اتصلت.

قالت: ـ هل من شيءٍ آخر.

قلت: ـ لا، شكراً.

انتبهت وأنا أغلق الهاتف، شيءٌ آخر!مثل ماذا؟ ما الذي كانت تنتظرني أن أقول؟، أكانت تعرفني؟، لم لا، فبعض النساء يقمن صداقاتٍ جيدةٍ مع الخادمات والمربيات.

تقاطعت الأفكار في رأسي، أذهب بعيداً إلى برد القطيعة ووحشتها ثم أعود إلى دفء الوصال وفرحته، ما إن ترتسم ابتسامات الأمل حتى تعود الخيالات المزعجة من جديد، شعرت بالصداع الشديد ولم أعد قادراً على مجرد التفكير.

عاودت الاتصال في الليل منتظراً صوتها الذي ما زال يتردد في مسامعي.

يمكنك أن تعرف حالتها النفسية من نبرات صوتها ومن طريقة تحيتها، فصباح الأنوار تؤشر إلى الابتهاج والمرح، وصباح الخير تشير إلى المنطقة الرمادية، أما إذا قالت يا سيد عمار فهي جادة أو غاضبة.

أخبرتني ذات السيدة بلكنتها المغاربية، وبعد لحظة صمت، أنها خرجت. قلت: ـ أنا فلان، بلغيها من فضلك عندما تعود. لم أسألها إن كانت قد أخبرتها عن اتصالي الأول.

خرجت هذه المرة، ترى مع من؟.

أتراه حضر من هو أقرب مني، أتراني كنت رجل المرحلة التي مضت وكل ما ينبغي الآن هو الانسحاب بهدوء.

لم تكن ليلتي طبيعيةً أبداً، توقعت أن أراها في كل مكان ذهبنا إليه، مع الجالسين في المقاهي وبين أفواج المارة، كنت أخشى رؤيتها مع رجلٍ أغنى مني أو أكثر وسامةً أو أقرب قرابة أو أكثر ملائمةً من ظروفي أو ببساطة أوفر حظاً، فقد لا يحتاج الأمر إلى أكثر من الحظ، ورغم كل هذا فقد تشبث بها قلبي أكثر من أي وقت

مضى، ورغبت أن أعيش حبها حتى لو لم يكن سوى الوهم.

مضت أيامٌ عصيبةٌ ما يزال أثرها في نفسي تصدت لي خلالها السيدة بجوابين لا ثالث لهما، فإما أن تكون نائمة وأما أن تكون قد خرجت، ثمة تجارب تصبح خالدةً في وجداننا، تحتل المساحات الشاسعة من ذاكرتنا وتطبع شخصياتنا بطابعها ولونها، هكذا تأكدت أنها غاضبة أو متغيرة لكني لم أفقد الأمل في الوصول إليها، أردت في بعض لحظات الغضب أن تتضح الحقيقة وأن أصدر منها عن يأس يريحني، وظل يراودني شعورٌ بأنها تريد أن تتبين مقدار شغفي بها وأن المسألة لا تعدو أن تكون دلع الجميلات.

قررت في النهاية أن أذهب إلى حيث تقيم لتأخذ الأمور شكلها الصحيح في العلن، ليس ثمة ما نخجل منه لنخفيه، ولن أتركها لمجرد الوهم، لا بد من إجابةٍ تحيي قلبي أو تكسره إلى الأبد.

آه.. صحيح، لا أعرف عنوان بيتها!، أوصلتها مرةً بالتاكسي لكني لم أنتبه للطريق.

خامرني شعورٌ قويٌ بأنها لن تكون لي إن لم أقدم وأزيل شكوكها، وصار واضحاً ألّا بديل عن الزيارة، إنما عليَّ أن أحضر العنوان وعذراً أو مبرراً لزيارتي غير المتوقعة، لم أعد أفكر كثيراً، فلا يمكنك أن تكون عاشقاً وحكيماً في آن واحد، كما يقال.

اتصلت بالسيدة وطلبت منها العنوان فأجابتني: ـ من أنت؟.

أعطيتها اسمي وأخبرتها أني أريد زيارة السيد، وتعجبت لسؤالها، كنت أظنها تعرفني، استدركت في نفسي، ربما تسأل من باب التأكد لا أكثر.

قالت: ـ هل أنت معرفة لأهل البيت.

قلت: ـ نعم.

دونت العنوان على عجل، كأنما خفت أن تتراجع.

قالت: ـ متى ستحضر؟.

قلت: ـ غداً عند السادسة مساءاً، هل يناسب السيد؟.

تركتني على الهاتف لبعض الوقت ثم عادت فأجابت أنه مناسب وأضافت: ـ عليك أن تتصل من عند حارسة البناية.

تغيرت فكرتي عنها فقد بدت أكثر من خادمة، مديرة منزل مثلاً أو مديرة أعمال، بقي الآن الانتظار كل هذا الوقت وشيء آخر لا يقل أهمية، ما حجة زيارتي وبأي صفة سوف أقدم نفسي؟.

أمضيت الوقت أقلب أفكاري، ماذا أقول وماذا أفعل، وهيبته تملأ قلبي مما حدثتني عنه.

اهتديت أخيراً إلى أفضل الطرق وأقصرها، طريق الحقيقة رغم ما يراودني من تردد، هل سيقبل مثل هذا الطرح؟.

سهرت مع أصحابي لكنا لم نتأخر، والتقينا على مائدة الإفطار مع شيخة ولطيفة، ففاجأتني شيخة حين مالت تهمس: ـ عمار، آسفة إن كنت قد تسببت بمشكلة.

ارتبكتُ قليلاً ثم أصلحت جلستي وقلت متصنعاً الضحك: ـ أية مشكلة، ليست هناك مشاكل، ولم تتسببوا إلّا بالخير.

قالت: ـ علمت أن الفتاة اللبنانية قد توهمت أشياء..

قاطعتها: ـ شيخة، لم تخطئي، لذا ليس عليك أن تعتذري، وإن كانت قد توهمت شيئاً فذلك شأنها.

قالت: ـ إذا لم تكن غاضباً مني فذلك ما يهمني.

قلت: ـ أبداً ولماذا أغضب!؟.

لم يعجبني تجاهلها لصبرا وكم وددت لو لم تفعل.

مضى الوقت بطيئاً ونحن نتجول بين المتنزهات والمقاهي، وأخيراً

ها هي السادسة تقترب ولم يبق سوى أن أعود لأرتب ملابس الزيارة ولأرتاح قليلاً.

لم تكن شقتهم بعيدة من الفندق، عشر دقائق لأقابل الحارسة، تلك السيدة الممتلئة ذات الصوت الرفيع والنظارة السميكة، تحدثت معهم من الهاتف المعلق قربها على الجدار ثم عادت فأشارت بيدها أن تفضل.. دخلت من الباب نصف المفتوح بينما تفحصني بنظراتها الحادة، ومضيت إلى المصعد يضرب قلبي كمن سيقابل الملك!.

ضغطت جرس الباب وانتظرت قليلاً لتفتح لي على مهل سيدة بيضاء طويلة ذات تقاطيع دقيقة عقدت شعرها المجعد خلف رأسها، تخيلتها مديرة مدرسة أكثر منها مدبرة منزل، لم أتوقف عندها طويلاً فقد جاءت صبرا من خلفها بثوب منزليٍّ أبيض رقيق تنظر بخجلٍ قد صبغ على وجنتيها، رحبت بصوتٍ خافتٍ تخلل قلبي ودعتني للدخول بعدما تنحت السيدة.

مررت بصالةٍ أنيقةٍ رصفت أرضيتها بالخشب المصقول وعلقت على جدارها المقابل لوحتان جميلتان، لمحت نفسي في مرآة مقابلة بينما أصل إلى الغرفة تسبقني السيدة وتمشي إلى جانبي صبرا الجميلة.

كدت أتوقف لأميل إليها معاتباً: ـ أين أنت أيتها القاسية؟.

لكن الموقف لا يسمح، رمقتها بنظرة عتاب ودخلت.

* * *

للمقابلات الأولى وقعها وانطباعاتها التي لا تتغير، كانت تلك أوضح صورة يحتفظ بها خيالي للسيد عدوان حتى اليوم.

استقبلني في وسط الغرفة بابتسامةٍ مرسومة وملامح جامدة لكهلٍ قد جاوز السبعين، رتب شعره الأشيب بعناية وصبغ شاربيه، رجلٌ أسمر طويل القامة حاد النظرات سمح الوجه طويل الأنف قليلاً، يمسك

بيده اليسرى عصا مطعمةً بالعاج ويمد اليمنى للسلام.

قال: ـ أهلاً، زارتنا البركة، تفضل. ويشير بيده إلى الكرسي القريب نصف المقابل بعد طاولة الشاي الرخامية.

انتظرته ليجلس أولاً وأظنه قد لاحظ، ثم بادرت لتقديم نفسي باختصار، وسألته عن صحته بينما أحاول إيجاد المدخل المناسب.

قلت: ـ سيدي، سمعت عنك من السيدة أختك ومن الآنسة كريمتكم وجئت اليوم من أجل السلام والتعرف إليكم.

لم أسمع الكثير من أخته كما ادعيت لكني توقعت أن معرفتي بها ستوحي له ببعض الثقة.

قال: ـ أهلاً وسهلاً يا بني، ألست الشاب الخليجي الذي ساعد لبنى حين مرضت وحفظ لها أغراضها؟.

قلت، وقد أشرق قلبي بالفرح: ـ بلى يا سيدي.

قال: ـ نحن مدينون لك بالشكرعلى شهامتك، على كل حال لا يستغرب الشيء من معدنه، الشهامة والكرم درجا من جزيرة العرب.

قلت: ـ العفو يا سيدي، لم أفعل شيئاً يستحق..

قاطعني: ـ حدثتني عنك صبرا.

وينظر إليها بابتسامة وهي تجلس على كرسي متنحٍ قليلاً.

أسعدني علمه بقصة السيدة واستقباله لي وترحيبه فانزاح شبح الإحراج.

قلت: ـ وأنا فخورٌ بمعرفة فتاةٍ بأخلاق وثقافة صبراً.

كانت السيدة ما تزال تقف في منتصف الغرفة مما يلي الباب تنتظر التوجيه، طلب لي قهوتي الخفيفة ولنفسه التركية المضبوطة وأسدل العصا على طرف الكرسي وأراح ظهره إلى الخلف، كان يلبس روباً

مزخرفاً فوق قميصٍ حريري أزرق وبنطلوناً واسعاً من القطن وخفين مغربيين أبيضين.

لم أجده مثلما وصفت وفخّمت، ولا ألومها فكل فتاةٍ بأبيها معجبة، كما يقال.

أعاد الترحيب بعد وصول القهوة، ورحنا نتجاذب أطراف الحديث.

قال بعد فترة الصمت: ـ كيف هي الأوضاع عندكم بعد الحرب.

قلت: ـ ما زالت أبواب الحرب مشرعةً، قد تستأنف في أي وقت ولأي سبب، هكذا هم الغربيون يتركون بعض الملفات معلقة لوقت الحاجة.

قال: ـ صحيح ولن يربح منها أحد، ليس في الحروب رابحون إنما هناك خاسرون وأكثر خسارة، ثم تمثل: ـ

وما الحرب إلّا ما علمتم وذقتموا ... وما هوعنها بالحديثِ المُرجَّمِ

أكملت من نفس القصيدة: ـ نعم

متى تبعثوها تبعثوها ذميمةً ... وتضرَ إذا أضريتموها فتضرمِ

قال ضاحكاً: ـ أحسنت، أخبرتني صبرا أنك مطّلعٌ على بعض الآداب.

قلت: ـ ليس كثيراً.

قال مبتسماً: ـ ما دمنا نتكلم عن الحرب فأخبرني بأحسن ما تحفظ في الجلادة.

لم تحضرني سوى أبيات قديمة لم أتذكر قائلها: ـ

معاذ الإلهِ أن تنوحَ نساؤنا ... على هالكٍ أو أن تضجَّ من القتلِ

قراعُ السيوفِ بالسيوفِ أحلّنا ... بأرضٍ براحٍ ذي أراكٍ وذي أثلِ

وما أبقت الأيامُ ملمالَ عِندنا ... سوى جذمِ أذوادٍ محذفةِ النسلِ

ثلاثةَ أثلاثٍ فأثمانُ خيلنا ... وأقواتِنا أوَ ما نسوقُ إلى القتلِ

بدا الاستحسان واضحاً على محياه وهو يردد: أحسنت، أحسنت.

تناولنا القهوة وتجولنا في الأحاديث الودودة، بدا لي الرجل سمحاً كريماً مثل عربي أصيل، وبدا أثر العمر والمرض واضحين على وجهه الشاحب ويديه المرتجفتين.

لم تتدخل صبرا في حديثنا إلا بعبارات محدودة، تعليقاً مقتضباً أو رداً على سؤال، كانت تنظر إلى والدها معظم الوقت.

قلت في معرض حديثي، بعدما زال التكلف: ـ أحببت التعرف إليكم لما وجدت من أدبها وحسن تربيتها.

قال: ـ لا نملك سوى قيمنا وأخلاقنا، ربيناها على الثقة بنفسها وبمعرفتها، لن تفيد القيود ما لم تكن من ذات الإنسان وقناعته.

بدت سعيدةً بهذه الشهادة.

استأذنت للانصراف بعد مسامرةٍ ممتعة، وبعدما أمضيت أكثر مما كنت أتوقع من الوقت، فخرج معي يتوكأ على العصا ويمسك بيدي طالباً مني معاودة الزيارة، كانت صبرا تقف خلفه تنظر إلى ارتباكي حين أصر على مرافقتي إلى الباب.

نزلت إلى الشارع وقلبي ممتلئٌ بالفرح، يا لها من زيارةٍ موفقة!.

ما إن عدت حتى بادرني أصحابي بالأسئلة حتى قبل أن آخذ نفسي.

ذهبت باكراً إلى غرفتي، كنت أتوقع اتصالها، فثمة الكثير مما يقال.

وتسارعت إلى جرس الهاتف الذي لم يفاجئني.

قالت: ـ ألو، مساء الخير، كيف أنت!؟.

قلت: ـ مساء الأنوار، كيف أنت، الله ما أحلى صوتك.

قالت ضاحكة: ـ كنت تعرف أني سأتصل؟، أيها المغامر، كيف تجرأت، لم أكن أتصور أن تفعل.

قلت: ـ صبرا، لن أتخلى عن حبك ولن ابتعد عنك، صحيح أني كنت محرجاً ومتردداً لكن والدك استقبلني بحفاوة ومودة، ولو كنت أعرف عنه ما عرفت الليلة لزرته منذ البداية.

قالت، وهي تضحك: ـ هذه أول مرة أراك وأنت محرج ومضطرب، يا للمسكين.

قلت: ـ ماذا أصنع، أنت من حملني على هذا، لكن لا عليك، جميلٌ كل ما صنع الحب.

قالت: ـ ليتك تدري كم أثنى عليك بعدما ذهبت.

قلت: ـ حبيبتي، لقد أفرحتني، ماذا قال؟.

قالت: ـ سأخبرك فيما بعد. وضحكت.

كانت في مزاج جيد تغالبها الرغبة بالضحك وتعيش نشوة المرأة المنتصرة، ها قد تبعتها إلى بيتها وطرقت الباب رغم ما تعرفه من ترددي وحيائي.

قلت: صبرا، هل توقعت مجيئي؟.

قالت، بعد لحظة صمت: ـ في الحقيقة كنت أتمنى أن تأتي، ولكي أكون أمينةً معك شعرت كأنما وضعت نفسي في القيد، اشتقت إليك وإلى خروجي معك، كان والدي متفائلاً بانشراحي وانطلاقي، ولكم حزن حين لزمت البيت وعاودتني الرغبة في العزلة.

قلت: ـ أيتها القاسية، إذاً كنت تعذبينني، ليت قلبي يستطيع أن يظلمك مثلما تفعلين، لكن كما قال الأول: ـ

أنتَ على أنكَ لي ظالمٌ أحب خلقِ اللَّهِ كلاً عليَّ

صبرا، فلنترفع عن هذا وليعلم قلبك أني لا أقارنك بامرأة أخرى.

قالت: ـ أية امرأة؟. وتضحك.

قلت، وفهمت قصدها: ـ أية امرأة.

قالت، وقد لبس صوتها نبرته الرخيمة كأنما داخلها النعاس: ـ وأنا كذلك، اقتربت منك بقدر ما ابتعدت، أدركت كم أنا متعلقة بك، وبقدر ما يسعدني اليوم هذا الشغف بقدر ما يخيفني، لكن يبدو ألّا حيلة لي، فلا رجل سواك يرتضيه قلبي، دعك من تصرفاتي الصبيانية ومن جنون وأنانية النساء وانظر في العمق لتجد صورتك وحدها، يرضيك هذا الاعتراف؟.

شعرت أنها تعتذر عن القطيعة بطريقتها وأن هذا الفيض من الرومانسية قد يبكينا معاً ويفسد فرحتنا، فاستدركت: ـ ماذا قلت لوالدك عني؟.

قالت: ـ قلت له أنك عاقل ومثقف، وقلت له أشياء كثيرة لا أتذكرها فقد تحدثنا لوقت طويل، لماذا تسأل؟.

قلت: ـ أبداً، شعرت أنه يعرفني.

قالت: ـ والدي يثق بي، ثم إنه قد فرح بتقبلي للحياة واهتمامي بنفسي وبمظهري، سبق وأمضيت فترةً طويلةً لا أخالط أحداً، ولك أن تتخيل مشاعر الوالد في مثل حالتي، أنت دخلت بيتنا وشربت قهوتنا ومن حقك أن تعرف عنّا.

قلت: ـ لكن لماذا كنت في عزلة؟.

لم تبدُ مرتاحةً للسؤال لكنها أجابت بتمهل: ـ لا أدري، ربما الغربة، وربما مقتل أمي ومرض أبي، المهم أنني انتزعتُ من مجتمع طفولتي ومراهقتي الذي أعرفه وآلفه، فانقطعت صلتي مع العرب بينما لم أستطع التواصل مع الفرنسيين رغم المحاولة ورغم سنوات الدراسة، كانت دائرة الوحدة تتضايق عليَّ إلى أن وجدت نفسي حبيسة عالمي الخاص، لا أحب الحديث ولا الاختلاط مع الناس

حتى جاء شابٌّ أسمر من الصحراء العربية فتسلل إلى قلبي وأعادني إلى أفراح الحياة.

ضحكنا وتحدثنا عما عانيناه فترة انقطاعنا، وعن السيدة المغربية التي تهتم بالمنزل، وأخبرتني بعض تعليقاتها على ما دار بيني وبين والدها. أسعدني كل ما حدث وشعرت بالرضا يملأ قلبي فأغمضت عينيَّ واندفعت بكل عواطفي، لحظات السعادة أثمن من أن نبددها في حسابات الخوف والمنطق.

هاتفتها صباح اليوم التالي فأخبرتني أنها غير متهيِّئة للخروج وستتصل بي عند عودتي من المعهد.

صادفت شيخة ولطيفة على الغداء ففرحت لرؤيتهما، كنت أتمنى لو فهمت حقيقة علاقتي بهما، ولم تكلفني كل هذا العناء.

خرجنا إلى متحف الشمع بعد الغداء وتهنا عن بعضنا في دهاليزه الضيقة الطويلة، كانت لطيفة تسير إلى جانب ناجي بينما تتهامس شيخة مع راشد، أما أنا فانصرفت أتأمل المعروضات من تماثيل الشخصيات التاريخية والعالمية، لاحظت شغف الفرنسيين بحضارتهم وتاريخهم وكيف يدَّعون لأبطالهم تأثيراً حاسماً في تاريخ الإنسانية.

جلسنا للعشاء في مطعم الهارد روك المجاور للمتحف، واستمتعنا باستعراض العاملين هناك ورقصهم على إيقاعات الموسيقى الصاخبة مع الجمهوركجزء من الخدمة والترفيه، رقصنا معهم بأكفنا على الطاولات وأرجلنا على الأرض، ربما أحب بعضنا مواكبتهم والقفز معهم لكن احتشام المجموعة لم يكن ليسمح!.

عدنا فرحين نتبادل النكات والتعليقات ونحمل تذكارات الهارد روك من القمصان والقبعات.

قالت شيخة وهي تودعنا أنها ولطيفة تدعواننا للعشاء في مطعم باريسيٍ شهير، وأنها تريدني أن أدعو صبرا باسمهما، قبلنا الدعوةً

بعد تردد وبعدما حاولنا ثنيهما عن المطعم المكلف، لكن شيخة أصرت.

قلت: ـ إذاً أفضل أن تقومي بدعوتها بنفسك.

قالت: ـ بكل طيب خاطر، فقط قل لي كيف أراها؟.

قلت: ـ ستحضر صباح الغد.

قالت: ـ إذاً إلى الغد، تصبحون على خير.

* * *

عادت متألقةً في ذات الثوب الذي رأيتها به أول مرة حين جاء بها القدر من أجلي كأنما تزور عمتها، ما إن لمحتنا حتى أقبلت تتقدمها ابتسامةٌ رقيقة تفسح لها طريق القلوب.

سلمت على الجميع وقبلت الفتاتين ثم جلست إلى جانبي فلفحني أريج عطرها الصباحي الخفيف.

هي امرأة يسعد بقربها من لم يعرف السعادة، تشعر بالزهو حين تكون بصحبتها كأنما أنت أحسن حظاً من الآخرين.

ومن يُعْطَ في الدنيا قريناً كمثلها   فذلكَ من عيشِ الحياةِ رشيدُ

سرحت أتأمل براءتها وكيف تحاول أن تبدو طبيعية ومتآلفةً مع الجو رغم كل ما لها من المعرفة والثقافة، يبدو أن ثقافة الكتب والنظريات لا تغني كثيراً في معترك الحياة!.

قالت شيخة، عندما أردنا الخروج: ـ صبرا، أود دعوتك مع الأخ عمار والشباب للعشاء في مطعم الكوبول مساء الجمعة القادم.

بدا عليها الارتباك وهي تبتسم وتنظر إليَّ.

قالت، وتصنعت ابتسامة: ـ لقد فاجأتني، لا أدري؟، هل تعفينني؟.

قالت شيخة: ـ لا، لا بد أن تحضري، وجودك يشرفنا.

قالت، وهي تجيل نظرها بين المجموعة وتبتسم مجدداً: ـ حسناً، يبدو أنكم متفقون، سأجيبك غداً، وشكراً مقدماً على دعوتك اللطيفة.

قالت شيخة: ـ نحن بانتظار أن تقولي نعم. وترمقني.

قلت: ـ سمعتِ عن هذا المطعم صبرا؟.

قالت: ـ سمعت أنه فخم ومكلف.

قالت شيخة: ـ الأمور مرتبة، ما عليكم سوى أن توافقوا.

أكبرت تصرف شيخة، صحيح أنه لا يخلو من بعض الاستعراض إلّا أنه موقفٌ طيبٌ تجاهي وتجاه صبرا، ثم أين يمكنك أن تجد الخير محضاً لا شر فيه؟.

راح الأصحاب يتسكعون في الأسواق والمتنزهات كعادتهم، ومضيت معها إلى حيث أرادت، ويا لها من مفاجأة، مسجد باريس، كم أنا سعيدٌ بزيارته. بناؤه الأندلسي الفخم ومئذنته المنقوشة الجميلة، لوحات الموزاييك الرائعة تغطي جدرانه، ومربعات ومثمنات الرخام تفترش أرضياته في صفوف تفصلها النوافير الأنيقة تتوسط صحن المسجد الفسيح.

عدت إليها في المقهى المغربي الملاصق للجامع، ذي السقوف العالية المنقوشة بالألوان والجدران المزخرفة على الطريقة المغربية، وتلك النوافذ الطويلة من الزجاج المعشق بالأزرق الفيروزي والأحمر يتماوج الضوء من خلالها.

جلسنا نحتسي الشاي المغربي ونستمع إلى فريد الأطرش يترنم «على شان ماليش غيرك». طربت لسماع تلك الأغنية وسرحت مع كلماتها، يبدو أننا نسمع ونرى بقلوبنا، وأن مزاجنا المعتدل يمنحنا أفضل اللحظات لتذوق الفنون الراقية.

كم من الأشياء الجميلة تمر بمحاذاتنا وتمضي كل يوم من دون أن نعيرها الانتباه!.

جلستنا في ذاك المكان الملهم المزدحم بالرسامين والشعراء والكتاب وقد انكب كلٌّ منهم على عالمه الخاص بين يديه، سماعنا لتقاسيم العود وصوت فريد الأطرش الشجي، وتأملي في عيني صبرا العائدة متعةٌ أعجز عن وصفها..

عبرنا الشارع بعد طول جلوس نحو حديقة الورود حيث يغري كل شيءٍ بالحب، تجولنا بين أحواض الزهور اليانعة حتى تعبنا، فأسندت ظهري إلى جذع شجرةٍ عالية أستريح.

اقتربت ووضعت يديها على منكبيَّ ونظرت في عينيَّ طويلاً ثم قالت بنبرةٍ خافتة، وهي تتكئ على كتفي: ـ عمار، أنت تجلب لي الأمل والخوف، لن أتمكن من العيش معك، وقد لا أتمكن من العيش من دونك، فأخبرني كيف أصنع؟، لم تكن حياتي قبلك سوى مواسم للحزن، فهل ستكون أنت موسم الفرح المقبل؟.

قلت: ـ صبرا، لا تفسدي فرحتي بك، صدِّقي أني أحتاجك أكثر مما تحتاجينني، ولن ابتعد عنك.

قالت كأنما استعادت تعقلها الذي أعرف: ـ لا تعد بأكثر مما تستطيع فقد لا تساعدك الظروف، ولا تذهب بعيداً يا عزيزي فما زلت أتذكر ظروفك وقد لا تخرج عن قاعدة كل ما تمنيت من قبل..

قاطعتها: ـ صبرا، الظروف أعذار الفاشلين، ولن يقف شيءٌ في طريقي إليك، نحن من يصنع الظروف ونحن من يتجاوزها حين يريد.

كم كان بودي لو طلبت يدها يومذاك وتركنا ما نخشاه وراء ظهورنا، لكن شجاعتي خانتني فتمهلت وما كان تمهلي سوى إهداري لفرصتي في الحياة.

فرحت بحبها حتى طار قلبي في صدري كالعصفور وحتى غالبتني

الدموع، دنت في لحظة انتعاشي وهمست: ـ إن لم تكن قادراً على تبعات حبي فلا توقظ قلبي النائم.

داخلتني رعشة خفيفة من أثرعبارتها الأخيرة فسكتُّ.

واصلنا المشي حتى صادفنا في الممر الطويل بين الأشجار العالية رجلاً يقبل امرأة، كنا قريبين منهما لدرجة أن علت وجهها حمرة الخجل، تجاوزناهما من دون تعليق، فما كان من شأننا أن نحرج أخلاقنا.

سألتني عن رأيي بموضوع الدعوة فطلبت منها الحضور، وسألتني عن شيخة سؤالاً لمحت فيه الرضا.

قلت: ـ شيخة من الناس الذين لا يمكنك أن تعرفهم من اللقاء الأول لكنك تحبهم كلما عرفتهم أكثر.

زرت السيد عدوان منتصف الأسبوع وقضيت معه بعض ساعات المساء، وجدته فائضاً بتجارب الحياة وعبرها التي جاءت بعد فوات الأوان كأنما للحسرة!.

اكتشفت صورته التي كادت أن تخفيها التجاعيد، اعتزازه بنفسه وبمعاركه، ولمحت الجراح التي يواريها وخوفه على مستقبل ابنته الوحيدة.

سكنتني صورته وطبع صوته الأجش في مسمعي، ونما بيننا ما يشبه الألفة حتى أني رغبت في زيارته بعدها بيوم أو يومين.

الليلة موعد العشاء، سوف ينتظرنا الأصحاب في المقهى المجاور للفندق بينما أمر لأصطحبها من البيت، شعرت أن ذلك سيمنح علاقتنا بعض المشروعية، ثم إني أحببت لقاء والدها، ثمة رغبة تشدني للجلوس مع هذا المحارب القديم خصوصاً بعدما أخبرتني أنه يرحب دائماً بزيارتي، كان عليَّ الإسراع في ترتيب ملابسي لأبدو مكتمل الأناقة، فثم نوع من التباهي في حفلنا!.

استقبلني السيد عدوان في منتصف الصالون، رحب بي وأمسك بيدي فرافقني حتى أخذت مقعدي ومازحني كأنما يعرفني منذ زمن، يبدو أننا من مزاجٍ واحد.

أصبحت الآن أكثر ارتياحاً بعد ترحيبه وتصرفه العفوي، أعتقد أنه قصد ذلك بينما بدا في مزاجٍ أفضل ـ ربما ـ من المرة السابقة، أحضرت فاطمة القهوة واستأذنت صبرا لتتركنا وحدنا.

قال: ـ أخبرتني صبرا أنكما مدعوان للعشاء.

قلت: ـ نعم، أصدقاء وصديقات من الخليج ينتظروننا على العشاء، وتعمدت ذكر الصديقات.

قال بعد أحاديث المجاملة: ـ أعلم أن ابنتي ستكون آمنةً مع شاب عربي شهم مثلك، صحيح أنها متعلمة وعاقلة لكنها تبقى فتاة.

قلت: ـ أفهم ما تريد وأقدره، فلا تقلق يا سيدي.

قال: ـ أعرف أنك تدرك الأشياء بالإيماء وهذا يعجبني، لكن دعني أحدثك بصراحة، سمعت عنك منذ مدة وجيزة من أختي لبنى ومن صبرا ثم ارتحت إليك حالما زرتني وتحدثت معي، خبرتي في الرجال تنبئني أنك لا تخذل الثقة، من حقك أن تعلم أن ابنتي كانت منطويةً على نفسها لا تحب الاختلاط مع الناس، وقد فرحت وفرحت عمتها حين لاحظنا ارتياحها وإقبالها معك على الحياة.

قلت: ـ يشرفني يا سيدي ما ذكرت، وآمل أن أكون عند حسن ظنك، لكن أخبرني من فضلك ما سبب انطوائها؟.

قال: ـ هناك أسباب كثيرة لعلها حدثتك عن بعضها، منها مقتل والدتها وهجرة أخيها والغربة هنا بعيداً عن وطنها، ولا أدري فربما تكون هناك أسباب نفسية، فقد قضت أربع سنين في الجامعة من دون أن يكون لها أصدقاء مقربون يحضرون معها أو يسألون عنها، سيد

عمار هذه أسرار عائلتي أطلعتك عليها لما أتوسم فيك من الخير ولما أراه من ثقة صبرا وارتياحها.

أشعرني حديثه المفاجئ بالمسؤولية وبأني أصبحت مقرباً كثيراً من العائلة، وفي الحقيقة لم يكن شيءٌ من العبث يدور في ذهني إنما المحبة، لا شيء سوى المحبة، على الأقل فيما أدركه من مشاعري.

تشعرك كلماته بالمسؤولية وتلمح في نظراته انكساراً يحاول أن يخفيه.

قال إنه يتمنى أن تندمج في محيطها وأن تحب الحياة، وسكت برهة ثم أنشد: ـ

وإني لأرجو اللَّه حتى كأنما أرى بجميلِ الظن ما اللَّهُ صانعُ

أخذني جمال البيت فلم أنتبه إلا على قوله: ـ تحفظ شيئاً في الرجاء؟.

قلت مجارياً، بعد لحظات تذكر: ـ

أتاكَ على قنوطٍ منك غوثٌ يمنُّ به اللطيفُ المستجيبُ
وكلُّ الحادثاتِ وإنْ تناهت فمقرونٌ بها الفرجُ القريبُ

قال: ـ أحسنت. وجعل يهز رأسه، ثم أضاف: لا شيء أبلغ من الشعر العربي، تحفظ شيئاً لأبي فراس؟.

أنشدته: ـ

أراكَ عصيَّ الدمعِ شيمتُك الصبرُ أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمرُ
بلى أنا مشتاقٌ وعندي لوعةٌ ولكنَّ مثلي لا يذاع له سرُ
إذا الليل أضواني بسطت يد الهوى وأسبلتُ دمعاً من شمائِله الكبرُ
تكاد تضيء النارُ بين جوانحي إذا هي أذكتها الصبابةُ والفكرُ

جعل الشيخ عند ذلك يتمايل طرباً حتى بلغت قوله:

وإني لجرارٌ لكل كتيبةٍ معودةٍ ألّا يخل بها النصرُ
وإني لنزالٌ بكل مخوفةٍ كثيرٌ إلى نزالها النظر الشزرُ

فأظمى إلى أن ترتوي البِيضُ والقنا   وأسغبُ حتى يشبع الذئب والنسر

استعاد ملامح الهيبة وراح يغمض عينيه ويقطب حاجبيه كأنما ينظر إلى المعركة حتى عرق جبينه وارتجفت يده على العصا.

التفت إليَّ حين انتهيت قائلاً: ـ تعتقد أن في أشعار الآخرين شيئاً بمثل هذه الروعة والقوة؟.

قلت: ـ تراثنا مليءٌ بالكنوز من الجمال والشاعرية ولست أقل إعجاباً به منك، ربما يكون في آداب الآخرين وأشعارهم ما هو باهرٌ ومميز، لكن لا شيء يستفز أرواحنا مثل أدبنا الذي كتب بلغة قلوبنا.

قال: ـ تحفظ من أشعار الصوفية؟.

قلت: ـ قليلٌ منها، وأنشدت لابن الفارض.

سائقَ الأظعان يطوي البيد طيّ   منعماً عرِّجْ على كثبان طيّ
وبذات الشيحِ عني إن مررت   بجزعٍ من عُريبِ الحي حيّ
وتلطف أجرِ ذكري عندهم   علَّهم أن ينظروا عطفاً إليّ

إلى قوله..

علل القلبَ بذكر المنحنى   وأعده عندَ سمعي يا أخيّ
ذهب العمر ظلالاً وسدى   باطلاً إذ لم أفُز منكم بشيّ

ولما وصلت: ـ

لم يرُق لي منزلٌ بعد الحمى   لا ولا مستحسنٌ من بعد ميّ

قال: ـ حسبك، حسبك، وجعل يردد:

لم يرق لي منزلٌ بعد الحمى   لا ولا مستحسن من بعد مي

جاءت إطلالة صبرا لتأذن بنهاية اللقاء الممتع.

وصلنا في الوقت المعين، وتوجهنا مباشرةً نحو مكاننا المحجوز قريباً من قاعة الرقص، كانت تلبس فستاناً أسود عاري اليدين واسع الصدر يزينه عقدٌ من اللؤلؤ، وقرطين أنيقين يتدليان على جيدها التليع

وقد كورت شعرها خلف رأسها، أنوثتها وتلقائيتها هما أفضل ما يميزها.

أما صاحبتي الدعوة فقد لبستا الفاخر من الثياب والثمين من الجواهر، وحضرتا تباريهما الأبهةُ وتسبقهما العطور الأخاذة ومع كل هذا لم تكونا أكثر من وصيفتين، ثمة أشياء لا توجد عند الكوافير ولا تشترى بالمال.

خفتت الأنوار وبقيت أضواء الشموع على الطاولات تتماوج على وجوه الحسان، قام الراقصون أزواجاً واندمج الجالسون في الهمس والمناجاة.

كان صوت الموسيقى عالياً، فكتبت لها على قصاصة: ـ عاد إلى الحياة بهاؤها وجمالها يوم عدتِ فلم يكن للأحلام من بعدك قيمة.

أمالتها لتقرأها على ضوء الشمعة ثم وضعتها في حقيبة يدها وهي تنظر في عينيَّ وتبتسم كأنما لتريني كم هي مهمةٌ تلك الكلمات.

وبينما نستمتع بالجو الرومانسي وبالصحبة اللطيفة حركتني رائعة شتراوس «الدانوب الأزرق» من أعماقي حين عُزفت فنهضت بي من الكرسي، أشرت برأسي ففهمت وأعطتني يدها.

كانت تلك أول مرة أرقص فيها ضمن مجتمع، استحضرت ما علمتني ليزا، وتجرأت فطويت ذراعي حول خصرها النحيل ورقصنا بهدوء لبعض الوقت، ثم ما لبثنا أن نسينا نفسينا فتوحد جسدانا ورحنا ندور مثل فراشتين حالمتين أو مثل أصحاب الوجد حين يتسامون عن المشهود، نسينا المكان والزمان وارتقت أرواحنا عن كل ما حولنا.

لا أدري كم من الوقت الجميل مضى قبل أن تتوقف الموسيقى لنعود إلى أصحابنا الذين استقبلونا بالتصفيق، كنا متعبين كأنما رقصنا لوقت طويل، تسابقنا كؤوس الماء وجلسنا من دون حراك.

قالت لطيفة: ـ رقصكما جميل كأنما تعلمتماه معاً، بدوتما منسجمين.

قال ناجي معلقاً:ـ أبدعت معلمتك يا عمار.

ضحكت صبرا وقالت: ـ لم أكن أتوقع أن تكون بهذه المهارة، سوف أشكرها إذا قابلتها.

استمرت أحاديث الفتيات عن الرقص وفنونه، لا أزال أتذكرها تمثل خطوات الفالس بأصابعها على الطاولة.

ناجتها لطيفة ممازحةً ونحن نغادر بعدما أخذت العلاقة بينهن حميمية أكثر: ـ صبرا، هل الحب ضرورة للمرأة.

قالت ضاحكةً: ـ لا أدري، لكنني قرأت مرةً «المرأة التي لم تجرب الحب هي امرأة سقط منها كتاب الحياة».

أوصلتها إلى البيت متأخرين قليلاً، وكان مبعث ارتياحنا أن صارت علاقتنا علنية وواضحةً للجميع.

بعد يومين أو ثلاثة لا أدري، قالت على الهاتف إنها تتنتظر الصباح لتقول لي كلاماً مهماً فنقلت لي ذلك الاهتمام، بتُّ مفكراً ما عساه أن يكون!، لن يكون إلا خيراً، هكذا فهمت من حديثها ومن نبرة صوتها، فقد صرت أعرف حالتها النفسية من نبرات صوتها وأميز الحزن والفرح في طبقاته.

جلسنا صباح اليوم التالي على رصيف السين، في ذات المكان مقابل كنيسة نوتردام، قلت، وأنا أتصفح مجلةً اصطحبتها من أحد الأكشاك على الطريق: ـ صبرا أخبريني ما وعدتني، فأنا لا أجيد الانتظار.

قالت ضاحكة: ـ ماذا تظن؟.

قلت: ـ خيراً، نبرات صوتك البارحة، إشراقك وابتساماتك هذا

الصباح تنبئني بكل خير، ثمة أوقات وأمزجة تسبق الأخبار السعيدة يمكننا أن نشعر بها.

قالت: ـ لا أدري يا حبيبي، لكني سأخبرك الآن، تعمدت أن أعدك البارحة كي لا أتراجع كعادتي كل صباح، عمار أنا أحبك!.

اتضحت لي مشاعري تماماً خلال فترة انقطاعنا، كنت أتألم كل ليلة لأني لا أراك، وأعد نفسي أن أتصل بك أو أذهب إليك حالما تطلع الشمس، لكني أعود في الصباح التالي رجاء أن تأتي أنت أو تتصل، ولو تأخرت يوماً أو يومين لجئت أبحث عنك، نحتاج أحياناً إلى الأزمات لنكتشف حقيقة مشاعرنا، أشعر اليوم أن طريق العودة قد أوصد من ورائي ولم يعد من خيار سوى المضي في حبك إلى آخر الطريق، أحببتك ورأيت في عينيك أحلامي وعوضي عمن فقدت من أهلي.

فاجأتني رغبةٌ بدائيةٌ في الصياح ملء حنجرتي: ـ أحبك أيتها الصبية التي فتنت قلبي!، أحبك وأشعر بأطرافي المتجمدة في أصقاع الماضي تترامى على ثرى قلبك الدافئ، أحبك أيتها النار التي تحرق قلبي!، تراودني رغبةٌ غجريةٌ في الرقص حتى تذوب كل تفاصيلي في بحر عينيك الناعستين.

رحت أدور حولها وأهذي كالمحموم وهي تكتفي بالمتابعة والضحك.

قالت، بعدما جلست وهدأت الأمور قليلاً: ـ عمار، أنت من استعادني بعدما كدت أفقد الأمل في أن أعيش حياةً سوية كالأخريات، أعدت لي الرغبة في المحاولة والأمل في النجاح، أشعر اليوم أني سأجتاز معك خوفي وترددي، لا أجيد كلاماً مثل الذي تقول، ولا أملك ما أعدك به سوى قلبي، لكني أريد أن أعلن اليوم ميلادي كامرأة وأفجر عواطفي في وجه العالم.

تسابقت الدموع من عينيها فاقتربت وجلست إلى جوارها، قبلت جبينها وضممت رأسها وتركت لدموعها العنان، كنت أعرف أن البكاء سيريحها بعد موقفٍ شاق.

انتزعنا أنفسنا بعد فترة صمت وتأمل من المكان، وذهبنا نتسكع على ضفاف السين حتى هدأت نفوسنا والتقطنا أطراف الحديث من جديد. يا للخيبة، نسينا المجلة التي اشترينا ولم نقرأها بعد.

قالت: ـ نعود إليها فما يزال المكان قريباً.

قلت: ـ لا، أظنها ستمطر.

راحت تدندن أغنية فيروز «حبيتك تنسيت النوم وياخوفي تنساني..».

شاركتها الغناء، ورحنا نتمايل على الرصيف، حتى قطع المطر المنهمر أغنيتنا الجميلة.

لجأنا إلى المقهى، فانشغلت أترقب النادل بينما تنفض حبات المطر من على سترتها وشعرها، سألتها في طريق العودة: ـ صبرا، لماذا اخترت هذا المكان وهذا الوقت.

قالت: ـ أردت أن أصنع طقساً يصعب نسيانه لموقف قد لا يتكرر العمر، ألا تراني محقة!؟.

قلت: ـ بلى، خصوصاً أنك أخبرتني البارحة فبتُّ مفكراً ما عساه أن يكون؟.

قلت بعدما قطعنا بعض الطريق، وكنت أحاول التقريب بينها وبين شيخة ولطيفة: ـ كلمتك شيخة البارحة؟.

قالت: ـ نعم، كانت تسأل، متى نراك؟، إنهما لطيفتان. وتنظر إلى النافورة التي نمر بمحاذاتها.

قلت: ـ وعدتها بلقاء؟.

قالت: ـ لا، أخبرتها أني سعيدةٌ بمكالمتها، وسوف أتصل بها لاحقاً.

قلت: ـ وهل ستتصلين؟.

قالت: ـ ربما، للمجاملة.

قلت: ـ ألا تشعرين أنك بحاجة إلى صديقات، وأنهما مناسبتان.

قالت: ـ ربما، لكني لا أفضل الاقتراب كثيراً من الناس، البقاء على الحياد أسلم!.

قلت: ـ الناس طيبون واجتماعيون بطبعهم.

قالت: ـ لم نقل أنهم سيِّئون، ولا تفهم أني أرفض صداقة شيخة ولطيفة، لكني أفضل التريث والإبقاء على مسافة بيني وبين الجميع، لن تعرف الناس قبل طول معاشرة، وأكثر من يؤذينا هم من كنا نظنهم أصدقاء، أليس كذلك؟.

قلت: ـ بلى.

قالت: ـ إذاً فلندع الحكم للأيام فهي التي ستؤكد أو تكذب مشاعرنا وانطباعاتنا، أحببتك أنت فدعني احتفل بحبك أرجوك.

قلت: ـ احتفل معك.

قالت ضاحكة: ـ لا، دعني احتفل على طريقتي.

قلت ضاحكاً: ـ أنا الشريك!، هل نسيت!؟.

قالت: ـ إذاً، فاحتفل به على طريقتك. ودخلت باب عمارتها.

* * *

كانت تلك أجمل الأيام وأكثرها إشراقاً في حياتي، كثيراً ما أسترجعها لأقول إنها كانت نصيبي من سعادة الدنيا لا قبل وربما لا بعد.

توثقت علاقتي مع السيد عدوان وأصبحت أتردد عليه كثيراً،

نقضي الساعات في مداولات الأدب أو لعب الشطرنج، أتذكر أنه أغتبط عندما طلبت منه أن يباريني، لم يكن جاداً في البداية لكنه بدأ ينتبه ويلعب بحنكة حين رآني أبلي حسناً، استفدت من خبرته ومن نقلاته المفاجئة الجريئة لكني لم أغلبه إلا قليلاً رغم ما حاولت!.

كان يلعب بروح هجومية وعزيمةٍ لا تعرف الكلل، يفكر، يناور، ولا يمكنك أن تتوقع ما سيفعل، ينتشي إذا انتصر ويضحك بصوت مجلجل وينادي: ـ فاطمة، فاطمة، سيجارة يا فاطمة.

تتردد فاطمة في إحضار السيجارة فينهرها: ـ السيجارة يا فاطمة، دعيني أتذوق طعم الفوز.

ترد بصوتٍ أقرب إلى الشكوى: ـ لكن يا سيدي الطبيب قال..

يقاطعها: ـ الطبيب، الطبيب، فليذهب إلى الجحيم. ويزمجر السيد لينتهي المشهد دائماً بإحضار السيجارة، يدخنها بعشق، يكتمها في صدره ثم يرفع رأسه ويبقي عينيه نصف مغمضتين ليتمتع بطعم التبغ، وتتصاعد بقايا الدخان من بين شفتيه المزمومتين كالخيط الرفيع.

تحاشيت السؤال عن الماضي أو العائلة رغم زوال الكلفة إلا ما تبرع بالحديث عنه من تلقاء نفسه، وكثيراً ما فعل في ثنايا المسامرات أو في غمرات اللعب، كنت مقتنعاً أن جراحه ما تزال حية تنزف رغم ما يكابر، يمكنك أن تلاحظ تغير نبرته وتوتر مزاجه عندما يتحدث عن الماضي.

قلت له ذات مرة: ـ سيدي ألا تشعر بالملل حين تجلس لأوقات طويلة وحدك مع الكتب.

قال وهو يصوب نظره نحوي، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ واثقة: ـ يا بنيَّ، ليس وحيداً من كانت معه الكتب. ثم أردف بعد لحظة تأمل: كنت أشتاق أحياناً إلى من يزورني، إلى من يتحدث

معي أو يلاعبني الشطرنج، لكني أعود فأدفن رأسي بين الكتب متعللاً أن صحبة تولستوي أفضل وقصائد المتنبي أمتع، هكذا عليك أن تجد سعادتك وسلواك فيما تملك أو تستطيع، بدأت الآمال تذبل في قلبي حين طال الوقت ولم يعد مازن، وغلبت عليَّ السلبية وعدم المبالاة تجاه كل ما يحدث حتى أني لم أعد أحلم بشيء ولا أخاف من شيء، أذنبت بحق ابنتي وأهملتها في وقتٍ كانت أحوج ما تكون إلى رعايتي، فلا أم لها ولا أخت ولا حتى صديقة في هذا المهجر القاسي، كانت تجثو عند قدميَّ تكلمني وتحاول التقرب مني من دون جدوى، فما كنت أنتظرغير مازن ولا أقدر على رؤية أحدٍ سواه.

قلت: ـ يمكنك أن تكون الأب، لكن صبرا تحتاج لأكثر من ذلك.

صعَّد نظره نحوي وهو ينقل الجندي: ـ مثل ماذا؟.

قلت: ـ مثل صديقات وأصدقاء، مثل زملاء وجيران ومجتمعٍ تندمج فيه.

أطرق ببصره نحو الطاولة: ـ ربما، لكن لو قمت بواجبي لما كان هذا حالها!.

قلت: ـ سيدي، صبرا بخير، إنها صالحة، مثقفة وجميلة ولا تحتاج الفتاة إلى أكثر من ذلك.

قال: ـ لكنها حزينة ومنطوية على ذاتها. وسكت لبعض الوقت ثم استأنف: عمار، إكراماً لما جمع بيننا من المودة أخبرك، فأنا أعيش بين همين، إما أن تبقى سجينة وحدتها وانطوائها فكيف ستستقبل الحياة من بعدي؟ وإما أن أدفعها لتندمج في مجتمعٍ لا تحبه أصبحت المرأة فية سلعةً تعيش بجمال جسدها وفتنتها، وتتعرض لشباك ومكائد الغاوين كل يوم، أعرف في النهاية ألّا بد لها من مواجهة الحياة والسير في ركابها، أما ثقافتها التي تذكر فليست سوى قراءات

نظرية لم تقوِّمها التجارب ولم تمتحنها الظروف، لعل معرفتها بك ستساعدها على تجاوز محنتها والإقبال على الحياة.

قلت: ـ لماذا لم تبحث لها عن وظيفة؟.

قال: ـ كان هذا تخطيطنا وأملنا في الماضي لكنها تراجعت عن الفكرة بعدما أنهت دراستها، وآثرت الجلوس في البيت متعللةً بمرضي.

قلت بعد فترة تأمل: ـ

دع المقاديرَ تجري في أعنَّتها ... ولا تبيتنَّ إلا خاليَ البالِ

ما بين طرفةِ عينٍ وانتباهتها ... يبدلُ الله من حالٍ إلى حالِ

قال: ـ أحسنت، لا شيء أفضل من هذا، يبدل الله من حالٍ إلى حال!.

قال مرةً في معرض تعليقه على بيت المتنبي:

ومرادُ النفوسِ أهون من أنْ ... نتعادى فيه وأنْ نتفانى

تأتي الحكمة دائماً متأخرة، تعلمت من سنوات التأمل هنا أننا كنا نتقاتل ونفني بعضنا من أجل لا شيء، كنا أشبه بأحجار الشطرنج التي يحركها لاعبان متشاحنان، يموت بعضها أو تموت كلها لا يهم، أهداف عبثية تحركها نوازع طائفيةٌ بغيضة لا تفضي إلى خير.

لا أتصور اليوم أنه يوجد ما يبرر ظلم وقتل الإنسان ويتم الأطفال وفجيعة الأمهات، كثيراً ما أشعر بالعار والندم من أجل من قتلت وكنت فخوراً بقتلهم، أكره نفسي وأحتقر تصرفي، كنت مثل الحصان الذي يجري لغايةٍ لا يعرفها وهدفٍ لا يفهمه، هكذا خضنا حربنا خمس عشرة سنة لنعود إلى مربع البداية من جديد.

هُزمت مرتين يا عمار، مرةً يوم خذلوني وقدموني كبش فداء فأخرجوني من بلدي مع من أخرجوا ثمناً لصلحهم الزائف، ومرةً يوم فهمت أن الأمر كان عاراً وخطيئةً برمته، شيش ملك!.

قلت، مرفهاً عنه في جلسةٍ طبعتها العاطفة حين علمت أنه يعاني من تليف الكبد ولا أمل له بالشفاء: ـ

كم من مريضٍ قد تخطاه الردى فنجا وماتَ طبيبُه والعوَّدُ

قال، وهو يرفع بصره نحوي وما تزال يده على الحصان: ـ هيهات يا بني «فإن لكل سارحةٍ سكون»، أخذت حصتي وافيةً من الحياة، من كل ما في الحياة من مباهج ونجاحات، من هزائم وانكسارات، عايشت الكثير من ليالي الفزع والدم والقتال، وعشت ليالي الأنس والطرب، عرفت من الجميلات والمعجبات ما لم يعرف أرباب القصور والأموال، أما اليوم فقد خرجت من المسرح ولا رغبة لي بالعودة.

قالها بهدوء وثقه، ثم واصل: ـ أنا قلقٌ فقط على هذه الفتاة إلى أن تجد طريقها.

تجاهلت ما رفَّ في قلبي وقلت: ـ هل تعتقد أن ثمة جاذبية للموت.

قال: ـ لا، ليس بالضبط، كان نوعاً من التحدي وكنت أطارده في شوارع بيروت، أراه مرةً أو مرتين كل يوم، يخيل إليَّ أننا سنصطدم عند كل زاوية أو تقاطع ليضاف اسمي إلى قائمة شهداء العبث، كنت أُعدُّ نفسي للقائه قوياً متماسكاً لينتزع روحي من دون أن أنحني أو أضع السلاح، أما اليوم فقد ذهب كل ذلك ولن أكلف نفسي أيَّ عناء، هو سيأتيني إلى هذا السرير ليخلص روحي، صدقني لم أتشبث يوماً بالحياة كما يفعلون ولعل في ذلك سر بقائي، لا أحد يحب الموت لكنه قد يصبح خياراً مفضلاً حينما نفقد الأمل ونكابد الألم والحزن. وتمثَّل: ـ

كفى بكَ داءاً أنْ ترى الموتَ شافيا وحسبُ المنايا أنْ يكنَّ أمانيا

كنت أرجع محملاً بمودتهم كل ليلة حتى صرت منتمياً لهذا البيت

الذي قاسمني همومه وأسراره، وأعتقد أن السيد قد بادلني ذات المشاعر. يتحدث إليَّ حديث الصديق، يبيح بمكنونات نفسه من دون تردد، يتحدث أحياناً عن عصاميته وعن بطولاته بتلذذ، ثم يعود ليلوم القوى التي كانت تقتتل على أرض لبنان بأيدي أبنائه. كان رجلاً يعيش في الماضي، يقرأ الماضي ويحلم بالماضي، لم يكن ثمة مستقبل ليتحدث عنه أو ليحلم به، كان يشبه قطاراً أوشك على الوصول إلى محطته الأخيرة بعدما تجول بين كل المدن ومر بكل المحطات.

مملةٌ هي الحياة من دون أحلام، لكنها آمنة إذ لن تُقابِل ما تخشى!.

كان معيناً من التجارب والخبرات لشابٍ مثلي لم يجالس هذا الصنف من الرجال، نادراً ما تجد من قومي من يتحدث عن نفسه بهذا الوضوح وينظر إلى ماضيه بكل هذا التجرد، تتوارى التجارب عندنا خلف أبواب الكتمان والمواربة.

توثقت صداقتنا لدرجة أنني أصبحت أزوره من دون مواعيد مسبقة، وكثيراً ما تذوقت طعامه الخالي من الملح والدهون.

* * *

صباح منعش يعبق برائحة أزهار الربيع ونحن في طريقنا إلى قصر فيرساي القريب من باريس، تقترب الأشجار النضرة الكثيفة على طول الطريق من نوافذ الحافلة حتى تكاد تلامسها، الجميع منتبهون لشرح مرشدة الرحلة عمّا نمر به من معالم، يدانا متشابكتان بيننا، أنظر عبر النافذة إلى حيث تشير السيدة، وتسرح بنظرها بعيداً إلى حيث لا أرى.

هالني القصر حين رأيته أول مرة، وتعجبت من عظمة بنائه وسعة غرفه وروعة صالوناته، نقش السقوف بالغ الإتقان والجمال، الأثاث

المترف واللوحات والتماثيل الفريدة التي انتشرت في الأرجاء تضفي جواً من الفخامة وتزين الجدران المرمرية العالية.

قلت، وقد ملأني الإعجاب وحق لي، إذ لم أشاهد شيئاً أصيلاً وثميناً مثل هذا من قبل: ـ رأيت اليوم روعة البناء وعظمة الحضارة.

قالت، وهي تأخذ مكانها مقابلي على حاجز الحديقة المزخرف: ـ بني هذا القصر الرائع الذي تتأمله من موارد المستعمرات وعلى أكتاف الضعفاء من العبيد وأجراء السخرة، تعذب الآلاف في تشييده وتزيينه، وجيء بجواهره ومقتنياته الفارهة من الضرائب والمكوس التي امتصت دم الفقراء لتنعم به أسرةٌ واحدة تنظر إلى الجماهير من أعلى كأنما خلقوا من أجلها، كأنما هي وحدها من يملك حق الترف والسعادة، يمثل هذا القصر يا سيدي رمزاً للدكتاتورية والتسلط اللذين حاربتهما فرنسا الثورة، ليس قصر فيرساي في نظري سوى شاهدٍ حي على تاريخ النهب والاستبداد، إنما يسليك أنهم تجاوزوا المرحلة وتعلموا منها، ثم أبقوا هذه الشواهد تدر المال وتجتذب السياح ليراها كل زائر من زاويته التي تروق له..

واصلت حديثها بينما رحت أتأملها والأزهار من حولها، ومنظر البحيرة الزرقاء من خلفها، يغيب بعضها في الغابة شديدة الاخضرار الملتفة حول المكان حتى يحجبها جدار القصر المهيب، كان مشهداً رائعاً وصورةً باقيةً تستحيل على النسيان!.

قلت للمرشدة: ـ سيدتي، ماذا حصل للقصر أيام الحرب الثانية؟.

قالت، وقد لمعت عيناها كمن يخبر بما هو جديد أو مثير: ـ الألمان أمةٌ متحضرةٌ تقدر الفن والتاريخ، أغلقوه ووضعوا عليه الحراسات حتى استعادته فرنسا المنتصرة.

قلت، مشيراً إلى صورة جوزفين المعلقة على جدار الغرفة الفخمة: ـ وهذه السيدة؟.

قالت: ـ آه، جوزفين، عاشت حياةً بائسةً بعد نابليون.

قالت صبرا هامسة: ـ يقولون لو بقيت جوزفين مخلصة لنابليون، لتغيرت خارطة أوروبا.

قلت: ـ خسرت بخياناتها!.

داهمتنا السيدة بسؤالها الودود: ـ أنتما عرب؟.

عدت مأخوذاً بروعة ما رأيت وبعمق ما سمعت من تحليلاتها. استلقيت على سريري فراحت تتراءى لي صور اليوم، صبرا بملابسها البسيطة الأنيقة التي تمنحك فرصة التجوال بنظرك بين ملامحها الناعمة، المرشدة وصوتها الخشن وقبعة السعف العريضة، جوزفين، نظراتها الحالمة وصدرها نصف العاري، نابليون يمتطي الحصان الجامح فيوحي بالقوة والطموح، لويس الرابع عشر ونظرة ملك الشمس الواثقة، ويستمر الخيال... فرنسا جان ماري لوبان العنصرية كارهة الأجانب، صورة الشاب المغربي يربط العنصريون يديه ورجليه ويلقون به في السين، فرانسوا ميتران يلقي في مكان غرقه بالورود تحتشد من خلفه فرنسا الثقافات المتعددة، فرنسا التسامح.

عندما تحدثت في لقائي التالي مع السيد عدوان عن قصر فيرساي ورويت له مشاهداتي، قابل إعجابي ببعض الفتور وقال إنه لا يرى عظمة فرنسا في البناء والفنون بقدر ما يراها في استيعابها لدروس التاريخ، وفي قدرتها على مصالحة ذاتها والتأقلم والتطور من ذات الحدث، وافقني على الإعجاب بنابليون وتحدث عنه حديث العارف. قال إنه معجب بذكائه وطموحه اللامحدود، حدثني عن علاقته بجوزفين وكيف كانت مفتاح شخصيته ونقطة ضعفه.

قال، في معرض الحديث تعليقاً على تلك العلاقة: ـ لا يحسن الرجل التصرف ولا يوفق في اتخاذ القرارات ما لم يتمتع بالأمن

العاطفي، ذلك أن في دواخلنا أطفالاً يتعطشون لعطف ودفء الأنثى، الفرق بيننا وبين الأطفال أننا نقلنا حاجتنا من الأم إلى الحبيبة.

كم هو مخيف شعورك بالغدر والخيانة، وكم هي مملةٌ أيامك وباردةٌ لياليك من دون امرأة تحبها وتأمن بقربها، كان نابليون مغرماً بها حد الهوس ومتذوقاً حد الجنون، يرسل إليها حين تنتهي المعركة «جوزفين أنا قادم بعد أيام، لا تستحمِّي!».

يستطرد السيد في حديثه الممتع: ـ عمار ـ وينظر إليَّ كمن يسترعي انتباهي ـ هزمتُ يوم قُتلت زوجتي، لم أشعر قبل ذلك بالضعف ولا بإمكانية الهزيمة، شعرت يوم ودعتها بالحاجة للبكاء، كنت أتوارى عن عيون رجالي لأفيض شيئاً من العبرة التي ما انفكت تخنقني، لم يكن ذلك سهلاً، فقد اقترنت الرجولة زمن الحرب بالقسوة والعنف حتى كادت أن تموت قلوبنا، كان الحدث أقوى مني ومن قدرتي على التحمل، ربما تضاعف حزني لأني لم أعرف كيف أحبها كما كان يفعل نابليون، كنت أؤجل العواطف لزمن السلم وأمني نفسي الأماني حتى جاء الموت من دونها، لا أتذكر اليوم أني تقربت منها بشيءٍ من كلام المحبين، ولا حملت لها وردةً طيلة السنتين الأخيرتين بينما تغرقني وأطفالي ببحر من الحب والرعاية، كانت معيناً من الحنان لا ينضب، أشعرأحياناً بالذنب فاعتذر لها بالحرب والمعارك التي لا تترك لنا الوقت، كم صبرت وكم تحملت من أجلي، كانت تحلم بالسلام بينما أعمل للحرب حتى قتلوها قبل أن أحبها كما يجب، أو ربما قبل حتى أن أعرفها كما يجب، أدركت مرارة الحرب وبشاعة القتل الذي أصابني لأول مرة ليلة قتلت مع ابنتي الصغيرتين وبدأت قناعاتي تتبدل منذ تلك الليلة، بدأت أحلامي

بالذبول حتى فقدت رغبتي في الحياة، أكان لا بد أن يقتلوها، أما كان الأمر ليستقيم من دون قتلها!؟ وتمثل: ـ

إنَّ من أكبر الكبائر عندي قتلَ حسناء غادةٍ عطبولِ
قتلوها من غير ذنب وجُرم إنَّ لله درها من قتيلِ
كُتب القتل والقتال علينا وعلى الغانيات جر الذيول

وأطرق قليلاً، ثم أردف: ـ فقدت حياتي من بعدها المعنى والمذاق، كانت بلسماً للجراح وملاكاً للرحمة، تواسي المصابات وتساعد المحتاجات من نساء الملجأ، يزيد اليوم من حزني أني لم أدرك فضائلها ولم أعرف قيمتها إلا بعدما فقدتها.

قلت: ـ كم أنت صبور يا سيدي!.

قال وهو ينظر عبر النافذة: ـ من قال إني صبور؟، بل أنا حزين ويائس، ليتني أستطيع البكاء، إذاً لبكيتها حتى تعلم أني لم أنسَ ولم أسلُ، ثم أنشد: ـ

أساكنَ حفرةٍ وقرار لحدِ مفارقَ أهله من بعد ودِّ
أجبني إنْ قدرت على جوابي بحق الله كيف ظللت بعدي
أما والله لو أبصرتَ وجدي إذ استعبرتُ في الظلماء وحدي
وهاج تنفسي وعلا زفيري وفاضت عبرتي عن صحن خدي
إذاً لعلمتَ أني عن قريب ستحفر حفرتي ويشق لحدي

أيها الشاب الطيب، هنيئاً لكم، لم تجربوا لوعات الحرب وويلاتها، تمتع من الحياة واغرف من مباهجها بكلتا يديك، لا تدعها تتسرب من بين أصابعك، فإن يوماً يمضي لن يعود، تمتع بشبابك فلا حياة بعد الشباب تستحق الانتظار!.

قربتنا تلك المسامرات حتى صار صديقي حقاً، رغم فارق السن والتجربة، كان كمن ينتهي من الحياة ويودعها، وكنت كمن يبتهج بها

ويحلم بأيامها القادمة، زودتني صحبته، رغم قصر عمرها، بالكثير من المعرفة، جمع بيننا الولع بالأدب العربي ولعب الشطرنج وحب صبرا!.

ربما جئت أول يوم من أجلها لكني أحببت صحبة هذا الأسد الجريح واحترمت آلامه وكبرياءه.

مليءٌ هذا العالم بمن يحملون نفس أفكارنا ويحلمون بأحلامنا، يمرون قريباً منا، قد يلامسون أكتافنا أو يصافحون أيدينا ويمضون من دون أن نشعر بهم أو نعيرهم الانتباه، تحول بيننا وبينهم كلمة أو خطوة لو خطوناها لتغيرت حياتنا إلى الأبد.

استأذنت حين دخلت فاطمة تحمل الدواء، ألقت صبرا بجهاز الريموت وقفزت من أريكة الصالة ترافقني نحو الباب وتذكرني بنظرةٍ باسمةٍ بالموعد.

صادفت ناجي مع لطيفة صباح اليوم التالي على الإفطار، كانت منطلقةً أكثر مما تعودت منها، عهدتها متحفظةً تبيح بنصف أفكارها، أعتقد أن الحب قد وجد طريقه إلى قلبها، شاب غني وسيم ومحبٌ للحياة، لا أظن أن امرأة تتمنى أكثر من ذلك.

بدا التغير جلياً في أحاديثها الناعمة ونظراتها، هكذا هي حال الفتاة الخليجية، تتوقف طويلاً، تكمم عواطفها وتكتم أسرارها في قلبها حتى ينفجر مثل بركان.

قلت لناجي، حين ذهبت لبعض حاجتها: ـ يبدو أن الفتاة معجبةٌ بك بينما لا تبدي استجابةً معقولة.

ضحك وهو يصب لي الشاي: ـ تعوَّد ألا تعطي كل ما عندك.

قلت: ـ آه.. ، ليتني أستطيع، أنا عاطفي يا ناجي، أستعجل الصباح أحياناً لأراها وأتحدث معها.

قال: ـ تحدث كما تشاء لكن لا تشعرها بقيمتها أكثر مما ينبغي،

واترك اشتياقاً للقاء القادم كل مرة، ألم تسمع أن المرأة تشبه الظل الذي يتبعك كلما ذهبت عنه.

قلت: ـ لا تهمني فلسفتك، ما يهمني هو هذا الشعور بالسعادة والصفاء الذي يغمرنا، أريدها ان تعرفني كما أنا، وبكل تناقضاتي وعيوبي لنستمر أو لننتهي من هنا. . .

قاطعني ضاحكاً: ـ يا لك من حالم.

عادت لطيفة فغيرنا مسار حديثنا، كان صاحبي مكتفياً من صحبة النساء بأخذ الأمور بطريقةٍ هينة كأنما لا يبالي، ويحسبها بروية مثلما يحسب صفقة تجارة، يؤمن كثيراً بالمتعة وقليلاً بالحب، جلست معهما معظم فترة الضحى ألاحظ إعجابها الذي ظننته سيذوب مع الأيام وينتهي، شأن الإعجاب ينتهي دائماً بالمعايشة!.

صادفتهما بعد ذلك كثيراً على مائدة الأفطار، أو داخلين إلى الفندق أو خارجين يتهامسان، كانت سعيدةً بصحبته لا تكاد تفارقه حتى يأتي الوقت الذي تتحسب فيه لسؤال أهلها، ورغم ما بدا من تعلقها فقد أبقت على بعض المسافة، كانت ناعمةً، خافضة الصوت عكس شيخة التي تذكرك ضحكاتها المجلجلة بنبيلة عبيد!.

قلت لها مرة ونحن نجتاز السين: ـ لطيفة، هل تؤمنين بالصداقة؟. فهمت أبعاد سؤالي وقالت، وهي تميط خصلات شعرها الشقراء عن وجهها وتلتفت نصف التفاتة: ـ نعم أؤمن بالصداقة وأكثر من ذلك أؤمن بالحب وبكل الغرائز والنزعات التي أوجدها الله، لكني أفضِّل تناولها على طريقتي، إذ لا أحتمل الشعور بالذنب أو العار، ولا أحب أن أكون موضع انتقاد ممن يعنيني أمرهم، ستجد إذا أمعنت النظر أن لكل حرام بديلاً من حلال، ولكل غاية طريقة ميسورة، إنما عليك ألّا تندفع خلف إغراءات الممنوع، ففي القناعة لذةٌ وراحة!.

قال ناجي: ـ

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبتها وإذ ترد إلى قليلٍ تقنع

كان في حديثها عبقٌ من مثُلنا وتعاليم أهلنا وكان منطقياً ومقنعاً، لكن من يقنع القلب المحب؟.

* * *

كم بين الليالي وبين النساء من الشبه، ليلةٌ مثيرة حافلةٌ بالمفاجآت وليلةٌ مملة كئيبة، وكم بين الرجال وبين الأيام من التشابه، يوم كريم حسن الطالع ويوم عاصفٌ هائجٌ مثل يومنا، حين دخلت تطوي مظلتها وتنفض المطر عن سترتها، تبحث بين أفواج الجالسين في الصالة الفسيحة وأنا أراقبها واقفاً عند كابينة الهاتف، تاهت قليلاً قبل أن تهتدي إلى إشارتي وتسرع نحوي قائلةً قبل أن تلقي التحية: ـ يا إلهي، الجو مخيف في الخارج!.

قلت ضاحكاً: ـ صباح الأنوار حبيبتي، ما هذا العطر الجميل؟.

قالت مبتسمة، وهي تشم طرف وشاحها: ـ حقاً يعجبك؟.

كنت أجد للعطور نكهةً أخرى حين تضعها، لا أدري أهي أحاسيس المحبين أم أن كيمياء جسدها تعطي للعطر بعداً آخر.

استعادتني قائلةً: ـ ماذا سنفعل؟.

قلت: ـ لا أدري، نجلس هنا أو نذهب إلى المقهى المجاور إن أحببت، سنرى بعد الإفطار فقد تتحسن الأمور.

جلسنا وحدنا حول مائدة الإفطار، الأصحاب نائمون بينما المكان مكتظٌ بالنزلاء الذين منعتهم العواصف من الخروج، الأطفال يتراكضون في الممرات تتقاطع صرخاتهم في فضاء الصالة الرحب.

صباحٌ يصلح لمشاهدة التلفزيون أو القراءة أو النوم، لا أكثر.

شربنا الشاي على مهل وتصفحنا الجرائد، جلسنا طويلاً، ولم يبق سوى محاولة الخروج التي فشلت عند الباب، فالجو لا يساعد على المغامرة.

عدنا للمحاولة بعد قليل، وعبرنا الشارع بمظلةٍ واحدة نحو المقهى الذي وجدناه ـ لسوء الحظ ـ مكتظاً، ولم نتمكن من إيجاد مكان. وقفنا لبعض الوقت قبل أن نعود فلا نجد مكاناً في البهو على اتساعة. كان الأطفال يجلسون على أيدي الأرائك وعلى الطاولات.

تجولنا قليلاً قبل أن نقرر الصعود إلى الغرفة لنستعرض الكتب التي اشتريت البارحة ونشاهد التلفزيون ريثما يتحسن الطقس.

انتابني شعور بالرهبة والتوتر يداخلهما الفرح الخفي ونحن نغلق علينا الباب بينما يعصف الجو في الخارج وتتطاير رشات المطر على زجاج النافذة، كان وضعنا المفاجئ كفيلاً بإثارة المشاعر المفرحة والمخيفة في آن واحد.

تناولت الهاتف أطلب القهوة ثم جلست على الكرسي المقابل للنافذة أتأمل الجو، أحضرت لها مجموعة الكتب فتصفحتها لبعض الوقت ثم أعادتها إلى مكانها على الطاولة الصغيرة قرب رأس السرير، وتناولت جهاز التلفزيون تقلب المحطات حتى استقرت على فيلم كان في بدايته، ألقت بالجهاز على السرير ونزعت حذائيها وراحت تتابع، ناولتها القهوة الخفيفة الممزوجة بالحليب وقربت كرسيي إلى جانبها مقابل التلفزيون، كنت من المعجبين مثلها بأداء كيفن كوستنر وعبقرية تمثيله.

قامت بعد قليل وأحضرت المكسرات والماء من الثلاجة الصغيرة ووضعتها على الطاولة مع القهوة، هكذا اكتملت أدوات المشاهدة واستمر فيلم الراقص مع الذئاب، ونسينا أننا وحدنا حتى جاء مشهد الزفاف المثير ودخلت إليه العروس في الخيمة وسط أهازيج الهنود الحمر، التقت هناك نظراتنا كالاعتذار لبعضنا عما نشاهده، واستمر مشهد الإغراء فعادت لتلتقي مرةً أخرى وأخرى، وكلانا يحاول أن يلمح شيئاً من عيني صاحبه.

امتدت المشاهد الملتهبة فتحاشت الإمعان في النظر وطفحت حمرة الخجل على وجنتيها، رحت أسرِّح يدي على عاتقها وكتفيها وأدنو منها لتتطاير خصلات شعرها من وهج أنفاسي المضطربة، قبلت خدها بلطف كأنما لا ألامسه، وانحدرت أرسم بشفتي معالم جيدها الناعم وهي ساكنة لا تبدي حراكاً سوى أنفاسها البهيرة ورعشة يديها مثل ريشتين في هواءٍ خفيف.

أمسكت يدها نحو الجزء الآخر من الغرفة، فلم نكد نجلس حتى بدأ العرق يتفصد من جبينها ويسيل فوق عينيها المغمضتين وتعلو وجهها صفرةٌ شاحبة.

انتفضت فجأةً وبدأت بالبكاء والصراخ: ـ ابتعد عني، ابتعد عني، لا تلمسني أرجوك!. عيناها شبه مغمضتين تملؤهما الدموع ويسيل الكحل على خديها وهي تمد يديها نحوي تصرخ وتنتحب: ـ أتركني، لا تلمسني أرجوك.

تملكني الذهول فلم أعد أفهم ما الذي يحدث. ارتعبت وخفت أن يخرج الموقف عن السيطرة حين أصبحت في حالةٍ هستيرية وصار صوتها عالياً مسموعاً.

جلست جانباً يملؤني القلق والحيرة، أنتظر هدوءها بينما وضعت رأسها على ركبتيها وانهمكت في نوبة بكاء طويل وقد تناثر شعرها على وجهها وكتفيها.

خطر ببالي، وأنا أنظر إليها بين الحين والآخر، أنها قد تكون مريضة أو أن عقداً نفسيةً مستعصية تتملكها، فلم يحدث ما يوجب كل هذا!.

بدأت الآن أفهم الكثير من الأمور التي كانت تحيرني، وبدأت معالم الصورة المبهمة تتضح لي!.

رفعت رأسها أخيراً وراحت تلملم شعرها المتناثر. عيناها

متورمتان ووجهها متغضن تملؤه آثار الدموع، وثمة بقع سوداء من أثر البكاء على بنطلونها السكري.

قامت نحو الحمام تغسل وجهها وتصلح من حال شعرها من دون أن تغلق الباب، ثم عادت وجلست على نفس الكرسي ويداها ما تزالان ترتعشان، عدلت وضع كرسيي فجلست مقابلها وساد الصمت..

كنت أنظر إلى التلفزيون من دون تركيز، ألاحظها من فترة إلى أخرى وهي تسرح بنظرها عبر النافذة وتستعيد هدوءها ببطء، شعرت بالحرج حين نظرت إليَّ أول مرة، لم يكن يجدر بي ان أفعل ما فعلت، أسأت لثقتها ولعلاقتنا العذرية ثم ازددت حرجاً حين تذكرتُ والدها، وراحت تتداولني الهواجس حتى أيقظتني بصوتها المتهدج المتعب: ـ عمار، أنا مريضة ـ وغلبتها الدموع من جديد ـ لم أجد الشجاعة لأخبر أحداً عمّا أعاني، لكن أعتقد الآن أنه يتوجب عليَّ إخبارك، فلا أحد سواك أستطيع البوح له خصوصاً بعدما حدث.

رفعت رأسي ونظرت إلى عينيها النديتين ووجهها المرهق ويديها المرتجفتين في حجرها، فانتابتني مشاعر غريبة لا أدري أمن الرحمة أم من الحب والحنان، كان بودي لو ضممتها إليَّ وخبأتها في قلبي لأحميها من كل ما يخيفها.

قلت: ـ صبرا، حدثيني، فلا أحد أقرب إلى قلبي منك.

قالت، وهي تمسك بأطراف أصابعي: ـ لا يعلم أحدٌ بهذا الأمر، فقد احتفظت به لنفسي سنين طويلة، عدني أن يبقى سراً بيننا.

قلت: ـ نعم، أعدك، ويمكنك أن تثقي بوعدي.

قالت، كأنما تروي قصةً حزينة: ـ كنت طفلةً صغيرة لا تعرف سوى اللعب، لا تدري أن في الدنيا أشراراً نذروا أنفسهم للأذى،

ووحوشاً عبدوا نزواتهم وغرائزهم أتاحت لهم الحرب فرصة العبث بأرواح الأبرياء.

أضعت قطتي ذات مساءٍ تائهٍ في أمسيات الناس وخالدٍ في حياتي، فذهبت أبحث عنها تحت السلالم وعلى مداخل الجيران ـ تتنهد ـ وعند بوابة العمارة، أناديها وأردد اسمها فيخيل إليَّ أني سأجدها أوأسمع مواءها عند كل زاوية مظلمةٍ أصلها باندفاع وجرأة الأطفال، حتى ناداني الرجل من خلفي: ـ تبحثين عن قطتك يا فتاة.

قلت: ـ نعم يا سيدي.

قال: ـ اسمها لوسي.

قلت: ـ نعم، هل رأيتها؟.

قال: ـ رأيتها قبل قليل، تعالي أدلك عليها.

أخذني بيدي وأدخلني الملجأ أسفل العمارة واستدرجني نحو الزاوية المظلمة البعيدة، ثم هجم عليَّ كالوحش يمزق ثيابي وأنا أصرخ وأستغيث بين يدي من لا يرحمني. كان وجهه أسود مظلماً وشعره طويلاً وكثّاً اختلط بشعر لحيته المنتنة، رائحته فظيعة أشعر بها كل حين، صرخت كثيراً وأنا أقاوم كعصفورة ضعيفة حتى أغمي عليَّ لأفيق في المستشفى بين أيدي أهلي المكلومين.

أجهشت بالبكاء من جديد وأكملت بصوت متهدج: ـ لولا الإغماء لمتُّ بين يديه أو لجننت وذهب عقلي، ربما لو مت لكان خيراً لي مما أعاني.

بقيت صامتاً يعقد الذهول لساني أمام رهبة مأساتها، تركت لها حرية البكاء رجاء أن يذهب ببعض ألمها، فقد عرفت للبكاء فضله قبل اليوم.

قلت: ـ هل يعرف أحدٌ من أهلك مقدار الضرر الذي لحق بك؟.

قالت: ـ أمي كانت تعرف كل شيء، لكن الموت شحَّ بها لتتركني

وحدي أحمل أسراري. وخنقتها العبرة فسكتت، ثم أردفت، بعد قليل: ـ فهموا حينها أن الناس عاجلوه قبل أن يتمكن مني وأيدهم الأطباء، لكن جهل الأطباء وجهل أهلي أنه تمكن حقاً مني، وأنه ما زال يظهر في أحلامي وقد يكون أفسد حياتي إلى الأبد، والدي يشعر أن هناك مشكلة خصوصاً في تواصلي مع الناس ويظن أن لها علاقةً بما حدث في الملجأ الكئيب لكنه يعتقد أنها ستزول بالزواج والاندماج مع المجتمع.

قلت: ـ وعمتك؟.

قالت: ـ مثل والدي، تشعر بوجود مشكلة لكنها لا تعرف أبعادها، سألتني عدة مرات عن عدم معرفتي أو إعجابي بشاب، وكنت أتهرب وأصطنع الأعذار كل مرة، كنت أتمنى لو طالت مدة بقائها رجاء أن تنحل عقدةُ لساني لكنها تأتي زائرةً ومنشغلة كل مرة وليست بيني وبينها تلك الألفة التي تتصور، ربما لو بقيت أمي لساعدتني على اجتياز محنتي، تسربت سنوات شبابي وما زلت أعيش مثل راهبة غير أني لا أنتظر ثواب الراهبات!.

وجودك اليوم إلى جانبي منحني القوة للحديث عن مشكلتي، فلم أكن أطيق مجرد التفكيرفيها قبل اليوم، لطالما تخيلت أن أعيش من دون زواج خوفاً من مواجهة الحقيقة، لم يكن لي من أتحدث معه. ثم أردفت بعد صمت: ـ هل تعتقد أن مشكلتي قابلة للحل، هل بإمكاني أن أعيش مثل كل النساء؟، إلى متى تزهر الفتيات من حولي وأبقى برعماً معلقا؟ لا أدري لماذا أشعر أحياناً أن الجميع يعلمون ما أعاني وكأن علم الفضيحة يرفرف فوق رأسي. واختنق صوتها فسكتت.

تكلمت بجهد محاولاً التخفيف عنها: ـ أنا متأكد أنها مشكلةٌ بسيطة تضخمت مع الخوف والكتمان حتى صارت شبحاً يخيفك

ويؤثر في حياتك حتى من دون أن تشعري، ستزول على كل حال مع الزواج، وستمنحك الحياة الطبيعية الثقة بنفسك وبالناس من حولك، لا تهتمي لها الآن ولا تسمحي أن تحول بينك وبين مباهج الحياة.

استطردت بعد قليل: ـ اعتذر عن كل ما حصل، فلم أكن أعرفك، اعتذر عن كل كلمةٍ نابيةٍ أو تصرف غبي جرحت به شعورك من دون قصد. فأنت اليوم أقرب إلى روحي من أي يوم مضى.

قالت: ـ تشفق عليَّ؟.

قلت: ـ بل أحبك حقاً.

قالت: ـ ألا ترى أني مريضةٌ أو معقدة؟.

قلت: ـ لست أرى سوى فتاةٍ صالحةٍ لم يدنس روحها العبث.

قالت: ـ عمار، تحبني حقاً بعدما رأيت؟.

قلت: ـ أكثر من ذي قبل، وأكثر مما تظنين

أحبكِ حبانِ حُب الهوى وحبٌ لأنكِ أهلٌ لذاكا

لكن هل تسامحينني؟.

قالت: ـ أنت لم تخطئ، أعرف أن للشاب قدرة محدودة على الصمود في حضور المغريات، ثم إني كنت متواطئةً معك إلى حدٍ ما، فلا يمكننا أن نكون صالحين تماماً كما ندَّعي، صحيح أني لم أخطط للوقوع في المحظور فلم تكن لي يوماً تلك الجرأة، ربما كنت أحلم بالخلاص من وضعي البائس وأتخيل الحياة خارج سجني لكن لا أخطط، كم تمنيت أن يأتي الرجل الذي يأخذ بيدي ويجتاز بي ظلمة الخوف والمعاناة، الرجل الذي يقلب معتقداتي ومفاهيمي، رجلٌ أحبه حقاً فأخبره جراح الماضي من دون وجل، كنت أظنه لا يوجد إلا في الأفلام والروايات حتى تسللت إلى قلبي فآمنت بإشراقةٍ جديدة للحياة.

قلت: ـ لماذا لم تذهبي إلى الطبيب؟.

قالت: ـ في الحقيقة لا أطيق مجرد التفكيرفي إعلان الأمر، أخاف من الفضيحة، أخاف ألا يجد لي علاجاً، وأخاف من تأثير الصدمة على والدي، تعودت الكتمان، وتعايشت مع ألمي وسري حتى تعاظمت الحواجز بيني وبين الآخرين كما ترى، قبل قليل تصورت أني سأموت أو أجن!.

سكت لبعض الوقت ثم سألتها: ـ سبق وجربتِ؟.

سكتت وهي تنظر إلى الأرض.

قلت: ـ صبرا، أخبريني أرجوك.

قالت: ـ جربت مرة قبل بضع سنوات في لبنان وحصل كالذي رأيت، لذا أحببت الابتعاد، فقد لا يكون مكتوباً لجسدي أن يلامس جسد رجل.

قلت: ـ صبرا، ليس المحزن أن تصادفنا المشاكل فهي جزءٌ من الحياة تقطع طريقها كل يوم، إنما المحزن ألّا نستطيع تحملها، لن تنتهي مشكلتك ما لم تواجهيها، فتاةٌ جميلة، متعلمة ومثقفة لا يمكن لمشكلةٍ صغيرة أن تحول بينها وبين الحياة التي تنتظرها، ليس سوى الوهم عشش ونما في خيالك وسرعان ما سيتهاوى لدى أول محاولة، فقط أقبلي على الحياة وثقي بالله وستستعيدين نفسك من جديد.

قالت: ـ ليت الأمر كما تصف يا صديقي، بل هو سجنٌ ألفت العيش بين جدرانه لزمنٍ طويل، لن يزول ما أعانيه من تراكمات العقد والخوف من المجهول والرهبة من مواجهة الناس ومن ضجة الحقيقة، لا يمكن أن يزول كل هذا بمجرد قرار، إذاً ما أغباني ـ واستعبرت تبكي ـ، أنت لا تفهمني.

سكتُّ حين أدركت حاجتها إلى من يستمع لشكواها وتركتها تتحدث وتبكي، كأنما اكتنزت دموعها كل هذه السنين، أدركت

حاجتها إلى من يفهم حالتها ويقدر معاناتها، من يشاركها همها ويقف إلى جانبها، أحببتها وشعرت بقربها أكثر من ذي قبل، واحترمت جراحها وصبرها.

قامت نحوي وعانقتني فأحسست ببرد دمعتها على وجنتي وهي تعتذر عما أصابها.

طُرق الباب في هذه الأثناء فأجبت من دون تفكير: ـ من؟.

فإذا هو راشد.

ترددت لبعض الوقت لكنه ألح كعادته ليفاجأ بصبرا، تجمدت الضحكة على وجهه قبل أن يستدرك فينقلب نحوي وما زلت ممسكاً بمقبض الباب: ـ عمار، آسف لم أكن أتوقع..

قاطعته: ـ لا عليك، كنا ننتظر تحسن الطقس في الخارج.

مشيت وراءه أحاول شرح الموقف لكنه أسرع نحو المصاعد يومئ بيده: ـ لا عليك، خذ راحتك.

عدت إليها ورحنا نتجهز للخروج وارتحت حين لم تبد انزعاجاً مما حدث من أمر راشد.

حاولنا الدخول إلى حديقتنا المعتادة لكنها كانت موحلة فتحولنا إلى المقهى القريب.

قالت، وهي تدير كوب القهوة وكانت متعبةً تحاول الخروج من نفق الحزن بأي اتجاه: ـ أشعر أنك أُحرجت من حضور راشد.

قلت: ـ شعرت ببعض الحرج.

قالت: ـ لا تهتم، أنا وأنت نعرف حدود ما نفعل وهذا يكفي، المهم ـ كما يقال ـ هو رأيك حول ما يحدث وليس ما يقوله أو يظنه الآخرون، أليس كذلك؟.

قلت: ـ بلى، لكن أكره أن يظنوا بي أو بك ما ليس صحيحاً.

قالت: ـ أليسوا أصحابك؟ فأين الثقة إذاً، ثم إذا كتب الله لحبنا عمراً فسيعرفون أخلاقي، أيها الحبيب إفعل ما تعتقد أنه الصواب، لا تفعله من أجل أحد ولا تلتفت بعدها لما قد يقال.

قلت: ـ تقولين الحبيب!؟.

قالت: ـ نعم، أحبك أكثر شيء في هذا العالم، تمهلت طويلاً قبل أن أقولها لكنها الحقيقة، أحبك لما بقي من أيامي وأحلامي.

ذاك هو المنعطف الحاسم في مسيرة حياتي حين أضحت صبرا جزءاً من كياني، من أحلامي، من أحاديثي ومن أكثر سكوتي.

كنا نفترق مساءاً من أجل أن نلتقي في الصباح أو بعد انتهاء وقت المعهد، قضينا أوقاتنا معاً، عرفتها عن قرب وأحببتها عن معرفة، تلك كانت أيام سعادتي التي لم أعرف أنها تحمل في أعقابها الآلام.

التقيت راشد في المعهد صباح اليوم التالي، وحاولت أن أشرح له ما حدث لكنه قاطعني: ـ ما الذي تحاول تبريره، وجودها معك أمرٌ طبيعي وامتداد منطقيٌّ لعلاقتكما، وإلّا ما الذي كنت تريد!؟.

قلت: ـ لا شيء مما تظن، ليست من هذا النوع.

أجاب ضاحكاً: ـ لست مجبراً على التبرير، الفتاة تحبك وأنا صادفتها في غرفتك والشيء الطبيعي هو ما فهمته، على كل حال أنت أعرف بنفسك وبها منّا، فقط لا تكن محرجاً، فلو كنت مكانك لأحببت أن تدخل إلى غرفتي.

تدخل ناجي ضاحكاً: ـ ماذا تريدنا أن نظن!؟، جئتما تصليان مثلاً ـ ويضحك ـ، تريد أن تقنع نفسك وتقنعنا أنها ليست مثل باقي النساء؟ أم تريد أن تصنع قصة حب كي لا تعاتب نفسك؟، ما حدث أمر طبيعي لشاب يصاحب الفتيات ويبحث عن المتعة، إلّا أن يخاف الحرام..

قاطعه راشد: ـ إن كان يخاف الحرام فلماذا صاحبها من البداية.

أردت أن أقول أن كل ما حدث كان مصادفةً من دون تدبير مسبق، وأن الجو العاصف منعنا من الخروج ولم نجد مكاناً في البهو، لم نقع في المحظور وإن مررنا قريباً منه، لكنني آثرت السكوت، فثمة مواقف يجدر تجاوزها من دون ضوضاء، وعلى رأي راشد، أنا أعرف بنفسي وبها.

كم كان بودي لو سمعا قولها: ـ عمار، ما حدث آلمني وأرقني حتى الصباح، إحساسي بالذنب وبخيانة ثقة والدي شيءٌ فظيع لا أستطيع تحمله، شعرت البارحة أني غريبةٌ عن نفسي وأن ما فعلته يثير اشمئزازي وخجلي، لم أخلق لأكون امرأة خاطئة، لا يناسبني ولا يليق بي أن أكون!.

ثمة نساءٌ تجري الخطيئةُ في دمائهن، يتسللن من كنف الحق ليجرين خلف الباطل، لست منهن ولا أريد أن أكون ـ تغمض عينيها وتنفض رأسها ـ، لا أريد أن نقع فيما يوجب الندم، أتمنى أن أعيش معك ما استطعت، فإذا افتقدتك ذكرتك لنفسي بكل فخر ورضى، عدني حبيبي ألّا يجرفنا التيار إلى ما تأباه أخلاقنا فإنا أثق بوعودك، عدني بالأمان فأنا مدينةٌ لك بأيام سعادتي.

قلت: ـ صبرا، أنت أعظم من أن تكوني امرأة للمتعة، وها أنا أجد اليوم سبباً جديداً لتعلقي بك، لا تطلبي شيئاً، فقلبي يجادل عنك وأيقني أن شعوري بالذنب والخجل ليس أقل مما تصفين، إنما أحاول تجاوز ما حدث بأقل ما يمكن من الألم.

قالت: ـ أعرف أنك لم تقصد الإساءة، بل أعتقد أنك لا تعرفها، قلبي قال لي ذلك ـ وتشير إلى قلبها ـ، لا أرى فيك سوى صورة الرجل الصالح. وسكتت قليلاً ثم أضافت: ـ تراه يمكنني أن أعيش حياةً سوية مثل كل النساء؟، هل سيكون لي بيت وأطفال؟، أخبرني عمار فأنت تعرف أكثر مني.

قلت: ـ سيكون لك كل ما تمنيت، عليك أن تملكي الإرادة، ألم تسمعي بالحكمة القائلة «أنت تريد، إذاً أنت تستطيع. !»، جزءٌ من مشكلتك أنك ألفت العزلة، عليك أن تتخلصي من ذلك أولاً. فالعادات والطبائع قيودٌ وأقفاصٌ تحبسنا وتحد من قدرتنا على التفكير خارج أُطرها، ثم إن مآسيك ذات عمق شديد تحتاج إلى القوة والصبر لتجاوز آثارها.

قالت: ـ مناقشاتك هذه تفيدني، تعيد خلط قناعاتي وتشككني في مفاهيمي عن نفسي وعن العالم من حولي، أعتقد أنك ترى قضيتي بحياد وذلك ما لا يمكنني، كما تعجبني طريقة تفكيرك وتناولك للأمور، كنت معجبةً بك منذ أيام عمتي، تذكر عندما ذهبنا إلى المعرض ـ وتضحك ـ فكرت فيك تلك الليلة، رأيت صورتك أينما انقلبت وسمعت صدى صوتك، كنت أنتظر مواعيدنا كأنما أحببتك من اليوم الأول، كم حاولت ألّا أفكر فيك وألّا تلتقي نظراتنا من دون جدوى، لا يمكننا أن نقف في طريق الأقدار، وجدتني أنجرف إليك وأتجاوز في حبك كل قيود المنطق كأنما تزيدني ولعاً بقربك.

أما اليوم فأنا سعيدةٌ بك كأنما ولدت من جديد، أو كأنما جئت من الخليج وجاءت عمتي والتقيتما وتعارفتما من أجلي، بودي لو شكرتها على ما صنعت، وبودي لو أعلنت للعالم حبي لك أيها القادم من الصحراء ليسكن قلبي ويعبث بأحلامي، عدني ألا تتخلى عني وسأكون أسعد النساء.

بقدر ما أحدثت كلماتها من السعادة والرضى بقدر ما أثارت من الخوف على مستقبل هذا الحب الذي شب عن الطوق وصار يتحكم بمصيرنا، كنت أدرك حالتها ومقدار تعلقها وما قد يحدثه انهيار أحلامها، كما أنني أصبحت عاشقاً حد الهيام وقد لا يكون لحياتي معنى إذا أخفقت أحلامي.

هكذا نما الارتباط الذي مزج روحين التقتا مصادفة وعلى غير موعد سوى ما خبأته الأقدار، ونضج حتى صار أنبل من حمى العبث وأكبر من رغبات الأجساد، يغري بالعاطفة ويبعث في القلب السلام والسكينة كالذي يتغني به الصوفية في خلواتهم.

أيقنت تلك الأيام ألّا غنى لأحدنا عن الآخر، لذا قررت الحديث عن الزواج.

عاتبني السيد عدوان عندما تأخرت عن زيارته وكنت محرجاً وسعيداً بعتابه، فقد أصبحنا صديقين حقاً، كنت أرى ألم المرض والغربة في نظراته وفي شرود أفكاره رغم مكابرته، استعرض ملامحه بينما ينهمك في التخطيط للنقلة القادمة، وأقول في نفسي سيكون هذا القائد والداً لزوجتي وقد تنجب لي صبرا ولداً يحمل صفاته وملامحه، له قلب الفارس العربي الذي خذلته أخلاق الحضارة الحديثة، سأكون سعيداً وفخوراً به!.

يستعيدني من أوهامي: ـ عمار، أين ذهبت؟، إلعب، إلعب..

تجاسرت حين حضر الدواء فسألت عن بعض تفاصيل مرضه التي لم أكن أعرفها.

قال، وهو يتناول الأقراص من يد فاطمة: ـ الأمراض نهايات طبيعية للمسنين من أمثالي، هذه طبيعة الحياة، الشيخوخة والمرض ثم الموت.

قلت: ـ لكن يا سيدي يقال إن أمراض الكبد تعالج الآن أو أنها تزرع بسهولة في أمريكا..

قاطعني، وهو يتناول كأس الماء ويلتفت بعينين جامدتين: ـ أمريكا ـ وسكت قليلاً ثم قال ـ ليت أمريكا أعادت ما أخذت ويكفينا منها.

أضاف بعد برهة وهو ينظر عبر النافذة: ـ عندما انتهت الحرب لم

يجد مازن ما يفعله في لبنان، لم يكن يحمل شهادة تؤهله للعمل وليست له حرفة سوى القتال، لم أدرك مدى ما كان يحتاج إليه من إعادة تأهيلٍ لمواجهة حياتنا الجديدة التي تغيرت أدواتها وأسلحتها، بدأت الخلافات تنمو بيننا بعد مقتل والدته، وساد علاقتنا التوتر والغضب حتى ضاع مني ولدي الوحيد، بكيته في قلبي بضع سنين ثم بكيت نفسي حين تجلت لي الأمور وأدركت فشلي في القيام بمسؤوليتي تجاه أبنائي، فشلي في أن أكون أباً حقيقياً يعوض ما فقدوه بفقد أمهم.

كنت محارباً بارعاً لا أكثر، بل لم استثمر براعتي في الحرب في شيء يفيدني أو يحمي مكاسبي كما فعل الآخرون، فخسرت ما كان قد بقي لي على ما أسموها مائدة المصالحة.

من تمام سوء الحظ أن تفهم الأمور بعد فوات الأوان!.

قلت: ـ وهل تأمل في رجوعه؟.

قال: ـ أتمنى ألّا أغمض عيني قبل أن أراه، لكن لم يعد هناك الكثير من الوقت، ربما تمنيت أن يعود من أجل صبرا، أما أنا فقد أدارت لي الحياة ظهرها وقضي الأمر.

يتكئ إلى الخلف بينما تلملم فاطمة أشياءها من الطاولة وتذهب لتسود فترةٌ من الصمت.

فاجأني المطر وأنا أهرول باتجاه الميترو، شعرت بالبرد يتخلل عظامي ولم أكن قد أحضرت معطفي، وما يدريني أني سوف أتأخر إلى المساء!؟.

عدت مبللاً بارد الأطراف فوجدت الأصحاب يتهيَّؤون للخروج.

قلت لراشد: ـ انتظروني أبدل ملابسي وأرتاح قليلاً.

لم يخل رده من عتاب: ـ أما يكفيك من الخروج؟، كدنا نفقد الأمل في رجوعك، حسناً، إذا تأخرت فستجدنا في نفس المقهى.

لحقت بهم بعد غفوة، وكان الجو بارداً بعد زخة المطر، تكدس الناس داخل المقاهي ولبس الجالسون في العراء المعاطف والسترات.

سألتني شيخة معاتبةً عن طول غيابي، فقاطعني ناجي ضاحكاً قبل أن أجيب: ـ عمار يعيش قصة حب!.

لم أغضب من تعليقه، فقد أصبحنا أصدقاء نتحدث من دون تحفظ.

قالت شيخة، وهي ترتشف قهوتها: ـ ومن الحب ما قتل!.

قال ناجي: ـ المعرفة الطيبة والصداقة أفضل من قصص الحب التي لا تعرف نهاياتها.

قالت شيخة، وهي تضحك: ـ الحب ضرورة إنسانية.

قالت لطيفة: ـ يقال إن الحب ضرورة عند المرأة ورفاهية عند الرجل.

قال راشد: ـ الحب الحقيقي يأتي من العشرة والمعايشة، أما الحب العابر، حب الإجازات والمصايف فليس سوى نزوات.

قال ناجي: ـ يأتي الحب مرةً واحدةً في العمر، لكن لا ينبغي أن نطلق لعواطفنا العنان لتنزلق في الاتجاه الخاطئ، سيكون الأمر مكلفاً حينها وسوف نسبب الضرر لأنفسنا ولمن أحببناهم.

قلت: ـ لا يمكن قياس المشاعر الإنسانية ولا تحديدها، الحب مثل الحرب، تبدأ من دون إرادتنا وتنتهي حين تنتهي كذلك، لا يمكنك إذا أحببت أن تحب باعتدال.

لمحت المتابعة وربما الموافقه على ما أقول في عيني لطيفة، فقلت وأنا أنظر إليها: ـ أليس كذلك؟.

قالت: ـ بلى، خصوصاً للشعراء والفنانين الذين يعشقون بخيالاتهم الخصبة.

قلت ضاحكاً: ـ ذلك لأنهم أعمق إحساساً وأن مشاعرهم أكثر فيضاً من سواهم ـ وأشير إلى ناجي.

قال راشد، وهو يرمق ناجي ويبتسم: ـ المشكلة هي مشاعرهم التي ستذهب بهم.

قالت لطيفة بلهجةٍ متجاسرة، وهي تنظر إلى العابرين من خلف الزجاج: ـ إذا فكرت جيداً فستجد الدنيا لا تتوقف على حضور أو غياب أو محبة أو كراهية أحد، يمكن للحياة أن تستمر ويمكنك أن تجد لكل مفقود عوضاً ولكل ذاهبٍ بديلاً، إلّا إذا خدعت نفسك وأقنعتها بخلاف ذلك، ولن يخدعك أحد مثلما تخدع نفسك إنما على المرء منّا أن يروض أحلامه!.

قال راشد: ـ يعجبني قولك لطيفة، لكن ورغم ما نقول يخيل إليَّ أن كلامنا مثالي أكثر منه واقعي، فللعاطفة دائماً حكمها وقوتها.

أكملت شيخة: ـ كما أن للنفس أسرارها في القبول أوالرفض.

قلت: ـ ستفقد الحياة إثارتها إذا خضع الحب لحسابات المنطق، سيكون علاقةً أخرى، سمِّها ما شئت سوى الحب.

قال ناجي، وهو يميل نحوي: ـ في قلبك يا صديقي ثورة أكاد أراها تحتدم.

قلت مترنماً: ـ

لحاني عَذولي ليسَ يعرفُ ما الهوى وأينَ الشجيُّ المستهامُ من الخليّ

صاحت شيخة: ـ الله، الله، ستكون أسعد النساء من تحظى بحب هذا الشاعر ـ وتضحك ـ حب الشعراء متطرف مجنح ـ وتشير بيديها كالجناحين ـ، يبني للمحبوبة عرشاً في الهواء، يغريها بالحياة ويشعل في قلبها الثورة، كم هو صعبٌ على من أحبت شاعراً أن تحب رجلاً من بعده.

قال ناجي ضاحكاً: ـ كان الله في عونها.

استمتعت بجلسة الأصحاب ونقاشاتهم ومحاوراتهم، وكان قلبي يلتفت إلى طيفها وينحاز أبداً إلى حيث تكون.

شعرت بالصداع والقشعريرة لكنني آثرت الصبر وفضلت ألّا أفسد مزاجهم. ما إن عدت وتمددت في سريري حتى بدا واضحاً أن البرد قد أصابني، تناولت حبتي أسبرين وخفضت صوت جرس الهاتف ورحت في نوم عميق.

أيقظني طرق راشد على الباب يسأل عن سبب تغيبي عن المعهد، وكانت الحمى تسري في جسدي بينما أغمض عينيَّ على مثل الجمر.

أرادا أن يذهبا بي إلى الطبيب لكني رفضت، فلا يحتاج الأمر إلى أكثر من الراحة وبعض المضادات الحيوية التي أحضرتها في حقيبة سفري، كما هي العادة.

استأذنا للخروج بعدما أرغماني على تناول الغداء الذي أحضراه إلى الغرفة وبعدما هذيا بالكثير من المزاح، كانا سيذهبان إلى الحي اللاتيني ومن ثم إلى السهرة في مكاننا المعتاد.

لمحت إشارة الرسائل مضاءة على الهاتف وهما يغادران، وكما توقعت كانت صبرا تطلب أن أكلمها حال رجوعي.

أدركت حالتي حين سمعت صوتي وأرادت أن تأتي لكني أقنعتها أنه زكام بسيط وسوف أتصل بها عندما يخف الصداع، عادت بعدما تحدثنا قليلاً وعرضت بإشفاقٍ أن تأتي لكني أكدت لها أن الأمر لا يستحق، ذكرتني عند ذلك أن أرفع صوت جرس الهاتف ففعلت.
عدت إلى فراشي بعدما قضيت ما فاتني من الصلاة فلم تلبث الحمى أن هجمت، شعرت أن رأسي يكاد ينفجر من شدة الصداع، حاولت أن أغفو من دون جدوى، فتقلبت بين النائم واليقظان حتى جاء هاتفها: ـ هاه حبيبي، كيف أنت الآن؟.

قلت، محاولاً وزن صوتي كي لا تشعر بشيء: ـ أنا بخير لا تقلقي.

قالت: ـ لا أدري، صوتك لا يطمئن.

قلت: ـ أبداً والله، أنا بخير وعافية، إنه أثر النوم.

سكتت برهة لا تدري ما تقول ثم طلبت أن أتصل بها إذا شعرت بالحاجة إلى الطبيب.

عدت للنوم بعدما اغتسلت بالماء البارد ولم استيقظ إلّا على قرع الباب والضوضاء التي يحدثها دائماً حضور راشد، يا إلهي، كم أنا جائع ويا لرائحة الطعام الذي أحضراه، تعشينا وشربنا الشاي ثم جلسا يسليانني ويرفضان الذهاب إلى موعدهما بحجة أن الوقت ما يزال باكراً.

امتثلا أخيراً لإلحاحي وخرجا بعدما رتبا الغرفة ولملما بقايا الطعام وأنا في السريرأتابع التلفزيون، لا قيمة للحياة من دون أصدقاء.

لا أدري كم مضى من الوقت لأستيقظ مرةً أخرى، كانت قطرات المطر تتناثر على زجاج النافذة، بدت الغرفة صفراء كأنما غُيِّر لونها. وصلت إلى الحمام متوكئاً على الأثاث ومستنداً إلى الجدار فاستفرغت ما كنت أكلته البارحة، عادت الحمى وعاد الصداع الشديد حتى ما عدت أرى بوضوح، تناولت الدواء جالساً على الأرض مسنداً ظهري إلى السرير، ثم حاولت الوقوف لكن الأرض دارت بي فصليت جالساً، وحبوت إلى فراشي وتدثرت بينما يسري في عظامي ما يشبه النمل من أثر الحمى، بدا وكأنما يتباعد السقف ويدنو وتدور الغرفة من حولي حتى أخذتني الغفوة.

أفقت على جرس الهاتف، وكانت صبرا كما توقعت.

قالت: ـ صباح الخير حبيبي، كيف أنت اليوم؟.

قلت متثاقلاً: ـ الحمد لله.

قالت: ـ أحضرت بعض الدواء، أريد أن أصعد إليك.

قلت، وانتابني الفرح: ـ أنت هنا؟ تفضلي.

ما كدت أنهض من السرير حتى وصلت تطرق الباب بلطف مبتسمة كعادتها، أجلستني على الكرسي وأصلحت حال سريري المبعثر ثم أضافت ملاءةً أخرى كانت في الخزانة التي تلي الباب حين اشتكيت البرد، وما إن تمددت تحت أغطيتي حتى جاءت بالدواء فأسندت رأسي وجلست على طرف السرير تكمد جبيني ويديَّ وتمسح عن وجهي بينما أكاد أغيب بين يديها، أنظر إلى وجهها، أسمع بعض همسها لكن لا أستطيع التركيز من شدة الصداع، غفوت قليلاً ثم أفقت على لمسة يدها الباردة، ليس أجمل من أن تفتح عينيك على مثل ابتسامتها وإن كنت مريضاً.

أسندتني وجلست إلى جانبي، فأمسكتُ بيدها ووضعتها على قلبي من فوق الملاءة وأغمضت عينيَّ لأشعر بدفء روحها ولأعيش لحظةً من أحلامي بقربها، نظرت ملياً إلى عينيها وتأملتهما، كم هما جميلتان وبريئتان، سحبت يدها من تحت يدي وراحت تكمدني وتمسح وجهي، حاولت أن ألمس يدها مازحاً فضربت على كفي وقالت ضاحكةً: ـ كفَّ أيها المشاكس!.

قضت معظم النهار إلى جانبي تقلب التلفزيون وتتصفح الكتب حتى عاد ناجي وراشد ليفاجئا بوجودها، أرادا ان يخرجا بعدما وضعا الطعام واطمئنا عليَّ، لكني ألححت عليهما ليبقيا، وكذا أرادت صبرا حين لمحت رغبتي.

حضر معهما جو المزاح والضحك كالعادة، فرش راشد الجرائد وضع الطعام على الارض وجلست صبرا معنا، أكلنا الأرز البرياني مع لحم الضأن المتبل اللذيذ بأيدينا مثلما نفعل في بلادنا، بينما

اكتفت بالملعقة وبأنصاف المشاركات وهي تسترق النظر إلى طريقة أكلنا، ربما شعر من يجالس أصحابي أول مرة بعدم الارتياح لكثرة مزاحهما وضوضائهما لكنه سيألفهما ويحبهما سريعاً ما إن يعرفهما.

استجمعت رباطة جأشها وقالت، وهي تتناول كوب الشاي بينما يلملم ناجي بقايا الطعام: ـ شباب، أريد أن أطلب منكما أمرين!.

أطرقنا ننتظر ما ستقول قبل أن يبادر ناجي: ـ تفضلي صبرا.

قالت، وتنظر إلى ناجي: ـ لكما أخوات؟.

قالا: ـ نعم.

قالت: ـ أريد ان أكون إحداهن، يشرفني أن أكون أختكما، أنتما تعرفان ما بيني وبين عمار ـ وترمقني ـ وأخاف أن يحرجكما أو يضايقكما وجودي وكثرة زياراتي.

قال ناجي: ـ سبحان الله!؟، نعرف أنك ابنة أسرة كريمة، نحن نميز الناس ونعرف معادنهم، وقد أخبرنا عمارعنكم كل خير، يشرفنا أن تكوني أختنا ولم ننظر اليك إلا بهذه العين مذ عرفناك.

قال راشد: ـ صبرا، أنت موضع احترامنا وعنايتنا، لكن ما الأمر الآخر؟.

قالت: ـ آه. . ، كدت أنسى، أحب أن أدعو الجميع إلى العشاء يوم السبت القريب في مطعمٍ قد اخترته، وأرجو أن يعجبكم.

ترددا قليلاً لكنها أصرت وقالت إنها ستتصل مع شيخة ولطيفة.

خرجا بعد جلسة الشاي الهادئة فقامت ترتب الغرفة وتعيد الأشياء إلى أماكنها، ثم جلست إلى جانبي فأخذت يدها وقبلتها قائلاً:

ـ هل تقبلين بالزواج مني؟

سكتت تواري الارتباك ثم قالت مبتسمةً، وهي تصلح غطائي: ـ إنك تهذي.

قلت: ـ صبرا، لم أكن جاداً أكثر مني اليوم، لقد فكرت وتأنيت كثيراً، قد لا يكون الوقت أو المكان مثاليين لكني لا أطيق الصبر، فهل تقبلين؟.

سكتت قليلاً ثم قالت، وقد داخلت الحمرة بياض وجنتيها: ـ ليس هذا وقته، دع الأمر إلى وقته المناسب.

أسندت نفسي وأعدت للمرة الثالثة: ـ صبرا، أعرف أنك تقبلين بي، فقوليها أرجوك.

قالت من دون أن تنظر في عينيَّ: ـ نعم حبيبي، أقبل بك لكن ظروفك..

قاطعتها: ـ لا عليك، ليست الظروف سوى أعذار العاجزين، كما أخبرتك من قبل، لن يحول شيءٌ دون ما نريد، المهم أن تقتنعي أنت، كم أتمنى أن نعيش معاً لا يفرقنا شيء.

سرحت بنظرها عبر النافذة المبللة ثم قالت: ـ عمار، أنت رجلٌ متزوج وأبٌ لأطفال، لا أريد أن أبني بيت سعادتي على أنقاض بيت آخر، أعرف أنك قد لا تستمر مع زوجتك، لكني لا أريد أن أكون السبب، لا أستطيع تصور ذلك، تعرف أني أحبك وأتمنى أن أقضي معك أيام عمري.

قلت: ـ سبق وأخبرتك أننا على وشك الانفصال ولا ذنب لك في ذلك، أدركنا منذ مدةٍ طويلة أننا لن نستطيع مواصلة الحياة كأسرةٍ واحدة، لم أحبها منذ البداية ولم تجدني الرجل الذي حلمت به، لا أريد أن أظلمها وأظلم نفسي إلى الأبد، أما الأطفال فأفضل لهم أن لا ينشؤوا في وسط يسوده الشجار الدائم والخلاف، أؤكد لك أنك لست السبب، ولو لم أعرفك لبحثت عن امرأة أخرى.

سكتت بينما تندرج الدمعة على وجنتها، قلت: ـ لا تبكي حبيبتي، فما نقوله يغري بالضحك وبالسعاده لا بالبكاء.

قالت، وهي تمسح الدموع: ـ أعرف، لكني تعودت أن أقابل الأمور الباهرة بالبكاء!، ربما كان الخوف من السعادة، أعذرني أرجوك.

ثم قالت بصوت رخيم، بعد لحظات صمت: ـ هل نحن مقبلان حقاً على الزواج وسوف أكون معك لبقية العمر، إذاً ما أسعدني. ورمقتني بابتسامة.

قلت مازحاً: ـ هذا هو دوائي!.

استغرقت في النوم إلى الغروب ثم استيقظت على نوبة صداع، فإذا هي على الكرسي القريب تقرأ كتاباً لسيوران كنت قد أحضرته قبل أن أمرض، ألقت بالكتاب وأقبلت تمسح العرق عن جبيني.

قلت في نفسي، وأنا أنظر إليها: ـ أنت المرأة التي تمنيت، يفيض قلبك بالعطف ولا تعرف نفسك الطيبة سوى الخير وحب الناس، ما الذي يمنعني من تخطي العقبات الصغيرة والوصول إليك، إن كنا لا نحب في حياتنا سوى مرة واحدة فأنت من أحببت.

بدأت أفكر بما سيواجهني عند عودتي، أعلم أني مقبلٌ على متاعب ومنازعات سوف تعصف بي تياراتها في كل اتجاه، سأوقد شرارتها وأصبر على عذابها ولهيبها حتى أصبح جديراً بحريتي وبحب صبرا، حينها أكون فخوراً بالوقوف إلى جانبها، أحببتها من دون كل النساء ولن أترك اليوم لأحدٍ أن يقرر مصيرنا.

اتصلت بوالدتي، وكنت آمل ألّا تفطن للتغيُّر في صوتي لكنها لاحظت وألحت تسأل وأنا أحلف لها أن لا شيء سوى الزكام، غمرني الارتياح بعد سماع صوتها والتزود بدعواتها.

مضت أيام المرض وخرجت من محنته سعيداً بقرار الزواج، فلن تطول الأيام حتى أعود لأطلب يدها ولن يحول بيننا بعد ذلك شيء.

اليوم هو موعد العشاء، ها نحن بصحبة صبرا في مطعم زحلة

ننتظر وصول شيخة ولطيفة، الجو لطيف والوجوه العربية من حولنا ولهجات بلاد الشام تتخللها الكلمات الفرنسية، ويصدح في خلفية المشهد وديع الصافي بالألحان القديمة الجميلة.

حضرتا متأخرتين قليلاً لكننا لم نشعر بالضيق، ثمة أماكن لا يقربها الملل.

تمتعنا بالصحبة وبالطعام والمقبلات اللبنانية وسمرنا هناك، فسرقنا الوقت من دون أن ندري.

غنت فيروز في آخر السهرة «بحبك يا لبنان، ياوطني بحبك» فاغرورقت عيناها وراحت تحدثنا عن لبنان حديث المحبين..

عدنا مجدداً للخروج، وكانت زيارة والدها أول اهتماماتي، أعرف أنه سيستجيب لطلبي إن طلبت يدها من ثنايا الأحاديث ومن طول ما جلست معه، لكن رأيت من الأفضل أن أرتب أموري سريعاً في بلادي ثم أعود.

ترددت في إخبار أصحابي لما خشيت من مواقف اللوم والمحاسبة، كم من الحجج ومن الصبر يلزمني لأقنعهم، قلت في نفسي الأفضل أن أؤجل الأمر، لما العجلة وأنا على موعد مع مواجهات الأهل والأقارب والأصدقاء!، كيف سأجادل الجميع وأقنعهم من دون أن تنهار أعصابي، كانت الدنيا تظلم في وجهي حتى يلوح طيفها في الجانب الآخر فيشرق ما أظلم من الآفاق، كل ثمن أقدمه من أجلها هين، وكل طريق توصلني إليها قصيرةٌ مهما امتدت!.

عاتبني السيد عدوان وعاتب صبرا عندما علم بأمرمرضي وقال: ـ لو كنت أعلم لحضرت لرؤيتك. ثم أردف ضاحكاً: ـ أو لاتصلت إن عجزت عن الوصول.

بدا شارد الذهن قليل الكلام على غير ما تعودت، علمت حينها

أن المرض قد بدأ يتمكن منه وأنه قد ينزعج أن سألت أو أبديت ملاحظتي، لذا تجاهلت الأمر واندمجت في اللعب، أصبح يستغرق في كل نقلة أكثر مما كان يفعل من قبل، يرفع الحجر ثم يعيده ويمسك بآخر ويتمتم بينه وبين نفسه.

سألني ذات نقلة: ـ عمار، هل جربت الغربة؟.

قلت: ـ لم أجربها بمعناها الحقيقي، لكن أعتقد أنها صعبة.

قال: ـ أكثر من صعبة، طويلةٌ هي أيام المغتربين وقاسية لا سيما أولئك المتنحين عن معترك الحياة من أمثالي، لا أدري كيف تخليت عن نمط عزلتي وألفتي مع الغربة، واستيقظ ما ظننته قد تلاشى من مشاعري وذكرياتي، كم أتمنى العودة إلى وطني، كم أتمنى أن افتح نافذتي على صوت فيروز تصدح في الصباح الباكر من الحوانيت، كم أتمنى أن افتح نافذتي لأرى أهلي يعبرون الشوارع آمنين نحو مدارسهم وحقولهم، أهلي الذين قاتلتهم ذات يوم، يا لغبائي.

لا أدري لماذا تعاظم شعوري بالغربة مذ عرفتك ومنذ اشتد علي المرض، وسكت قليلاً ثم أنشد: ـ

أيها الطائرُ الميممُ أرضي أقرِ منّي بعض السلام لبعضي

إنَّ جسمي كما تراه بأرضٍ وفؤادي وساكنيه بأرضِ

آه يا بنيَّ، كم يخيفني أن يبقى قبري وحيداً في هذا المنفى لا يمر به أحد.

لم يحضرني ما أشارك به حين أخذني عمق حديثة سوى أن قلت: ـ قرأت قولاً لنابليون «العسكرية والغربة والسجن مصانع الرجال».

ضحك بسخرية وعلَّق: ـ غربة الكبير تحطيم لما بقي من عزته، وهل بقيت شخصيةٌ لتصقلها الغربة ـ وعاود نفس الضحكة ـ الغربة مذلة يا بني، لا أكثر.

قلت ملاطفاً: ـ ستعود إلى لبنان معافى، وتعيش بين من تحب وتحضر فيروز، من يدري فقد نحضرها معاً وأنشدت: ـ

سهرتْ عيون ونامت عيونْ في شؤون تكون أو لا تكونْ
إنَّ رباً كفاك بالأمسِ ما كان سيكفيك في غدٍ ما يكونْ

سكت قليلاً ثم قال وهو ينقل الفيل: ـ قضي الأمر أو كاد أيها الفتى ـ وتنهد ـ، لكن لا عليك فقد أخذنا نصيبنا وافياً من الدنيا، من خيرها ومن شرها، من سلمها ومن حربها ولم يبق اليوم منا ولا منها ما يستحق الرثاء.

بدا ملكه أفضل حالاً فانشدت وأنا أقفز بالحصان: ـ

أريد من زمني ذا أن يبلغني ماليس يبلغهُ من نفسه الزمنُ

لم أغادر إلا وقد عادت إليه البسمة، لكن شعوراً ظل يراودني كلما تذكرت وجهه الشاحب، إنه أصبح يحمل همّاً أو ألماً لم يكن يحمله، ربما علم أمراً عن مرضه لم يكن يعرفه من قبل، ثم تأكدت مخاوفي حين أخبرتني صبرا أنه أمضى يوماً كاملاً في عيادة الطبيب.

توجهت في الصباح التالي باكراً إلى السوق متخفياً عن أعين أصحابي وممتلئاً بالفرح، سأفي اليوم بما وعدت به نفسي أيام المرض.

اخترت خاتم سوليتير فاخر يساوي ثروةً في حسابات البخلاء لكنه لا يساوي دمعة عينها ولا تبسم ثغرها ولا سهرتها إلى جانبي ليلة كانت تغيب بي الحمى، اتصلت من السوق وسألت إن كان يمكنني الحضور، أخبرتني أن والدها نائم، فسألتها أن كان بإمكانها المجيء إلى الفندق.

اتخذت مكاناً متنحياً وجلست أحسب الدقائق الطويلة حتى أطلت، نظرت في وجهي وهي تأخذ مكانها، فقالت، والابتسامة تعلو محياها: ـ مزاجك اليوم احتفالي، أكاد ألمح فرحةً ما..

قدمت لها العلبة الحمراء الأنيقة: ـ تفضلي حبيبتي.

وضعت يدها على فمها مستغربة: ـ ما هذا؟.

قلت: ـ لا عليك، شيءٌ بسيط، افتحي العلبة.

أحمرَّت وجنتاها وهي تمسك بالعلبة وتميط خصلات شعرها بيدها الأخرى، فتحتها وتناولت الخاتم وراحت تتأمله بإعجاب بينما أستدير من ناحيتها لأضعه في إصبعها الأيمن، أشاحت بيدها تنظر إليه وقد اختلط على وجهها مزيجٌ من المشاعر، أعادت النظر إلى العلبة واستخرجت الشهادة المرفقة: ـ يا إلهي، ماذا فعلت يا عمار، لا بد أنه يساوي الكثير. وتعيد النظر إليه بينما لا تزال الدهشة تكلل وجهها.

قلت: ـ حبيبتي، أفرح حين أقدم لك شيئاً مميزاً فلا تحرميني السعادة، أما سمعت «من يحب لا يحسب»، ليس سوى خاتم صغير لا يساوي شيئاً أمام ما تقدمين من الحب الذي لا يشترى بالمال، أخرجتني من وحشة الأيام وفتور الأحلام إلى حيث أنت وأملك الواعد بالحياة، رخيصٌ يا صبرا كل ما يشترى بالنقود، وحدها المشاعر الصادقة تستحق تقديرنا، لا تهتمي للمال فإنما خلق المال لينفق، وأخبريني أنه يعجبك فذلك ما يسعدني حقاً.

قالت: ـ ماذا أقول!؟، لم يقدَّم لي شيء مثل هذا من قبل، أنت أكبر من أحلامي، أعذرني، فلم أعد أعرف ما أقول.

قلت: ـ لا تقولي شيئاً ولا تشعري بسوى الرضا، صدقيني قد أهديتك ما هو أثمن.

تنتبه إليَّ مندهشةً بينما أكمل ضاحكاً: ـ إنه قلبي.

تضحك: ـ أنا من أعطيتك أولاً.

قلت مستدركاً، وهي تتناول حقيبتها من الكرسي المجاور وتهم بالقيام: ـ صبرا، لا تنسي العشاء الليلة، لقد دعوت الاصحاب.

قالت مستغربة: ـ لماذا؟، ما المناسبة؟.

قلت: ـ أبداً، أريد أن احتفل بك.

قالت: ـ ألا يكفي هذا. وترفع علبة الخاتم.

قلت: ـ لا، هذا خاص بيننا، قلت لك لا تفكري بالمادة.

قالت: ـ إذاً ستقدم لي الهدية هناك. وتضع العلبة على الطاولة.

أمسكت بيدها وأعطيتها العلبة قائلاً: ـ قلت لك لا تهتمي، فقط تمتعي بليلتك ولا تفكري بشيء آخر.

قالت: ـ ومتى سأحضر؟.

قلت: ـ أنا من سيحضر إلى داركم، سأصطحبك من هناك، أريد أن أرى الوالد.

قالت: ـ حسناً تفعل، والدي يفرح بحضورك.

قلت: ـ وأنا أحب زيارته.

قالت: ـ تحب زيارته أم تحب ابنته ـ وتضحك بغنج.

قلت: ـ الإثنان معاً لحسن الحظ.

لم تكن تصرح كثيراً عن عاطفتها وميلها لكن عينيها تفضحانها وتشفان عمّا يعتلج في قلبها.

كنت عند السيد عدوان قبل أن يحل المساء، بدا بمزاج أفضل منه المرة السابقة، رحب بي واستجمع قواه محاولاً النهوض لكنني حلفت عليه ألا يفعل، وسلمت عليه جالساً مثلما نفعل مع كبار السن في بلادنا.

صارحني في تلك الجلسة عن مرضه، حدثني حديث اليائس، وأخبرني أن الأطباء لا يجدون له أملاً معقولاً في النجاة.

قلت: ـ

وقبلك زار الطبيبُ المريضَ فمات الطبيبُ وعاش المريضُ

لا تهتم لرأيهم فلا يقدِّر الآجال والأرزاق سوى الله تعالى.

رمقني من خلال ابتسامةٍ صفراء شفَّت عما انقطع في قلبه من حبل الرجاء، وقال: ـ لا يهمني كثيراً، فالعمر الذي يؤسف عليه قد ولى، منذ وصولي إلى هنا مريضاً لم أفعل شيئاً سوى انتظار الموت، لا أجد اليوم رهبةً من مواجهته، ربما لا أحبه، بل قد أشتهي الحياة على سوء سيرتها ونضوب أحلامها. وتمثل وهو يشيح بنظره عبر النافذة: ـ

فما رغبت في الموت كدرٌ مسيرها إلى الماء خمسٌ ثم يشربن من أجنِ
يصادفن صقراً كل يوم وليلةٍ ويلقين شراً من مخالبه الحجنِ
وما أستعذبته روح موسى وآدم وقد وعدا من بعده جنتي عدنِ
فخوف الردى آوى إلى الكهف أهله وعلَّم نوحاً وابنه صنعة السفنِ

ضحك بينه وبين نفسه وقال: ـ لست خيراً منهم. ثم استدرك عندما دخلت صبرا، كأنما أراد تغيير مجرى الحديث وكان يبدي في حضورها من التجلد بقدر ما يخفي من الألم والمعاناة، لا تعدو أن تكون طفلة في نظر والدٍ يكاد يغلبه المرض ليتركها في بلاد الغربة من دون معين، يفيض من عينيه حنان أبوَّة السبعين حين ينظر إليها أو يتحدث عنها.

قمت مستأذناً حالما أنهى حديثه من دون تعليق، فلا بد أنهم ينتظروننا الآن في البهو.

وصلنا إلى الزاوية الهادئة المحجوزة سلفاً في المطعم الإيطالي القريب من الفندق، جلست صبرا إلى جانبي تليها الفتاتان ثم راشد وناجي الذي بادر قائلاً، وهو يقلب نظره في الجدران التي زينتها اللوحات الكلاسيكية الجميلة: ـ لا بد أن يكون المكان من اختيارك عمار، أليس كذلك؟.

قالت شيخة: ـ وما أدراك؟.

قال: ـ طابع المكان يدل على شخصية من اختاره، ثمة ارتباطٌ بين الأشخاص وبين الأماكن التي يفضلونها. وأسهب في الشرح بينما تنشغل الفتاتان بخاتم صبرا، تقلبه لطيفة في يدها ثم تنزعه وتميل به نحو الضوء تتامله وتنظر إلي كأنما عرفت أنه هديتي، ثم تلبسه شيخة في خنصرها وتبدي إعجابها بتصميمه وترمقني صبرا مبتسمة.

تأرجح بنا الحديث الودود الممتع بين تعليقات راشد ونكات وضحكات شيخة، مداخلات لطيفة ومساجلات ناجي. وبعد الشاي، وبعدما هدأت موجات الضحك والنكات، عدنا إلى صالة فندقنا الهادئة واتخذنا مكاناً مجاوراً للبيانو الأبيض الكبير الذي تزينه الخطوط المذهبة، قالت صبرا، بدلالٍ زانه الحياء وهي تنظر إليه: ـ جميل هذا البيانو، هل يسمحون لمن أراد العزف.

قلت: ـ لا أدري. وسكتُّ أفكر.

قال ناجي: ـ أعتقد أنه ممكن. ونادى النادل.

قالت لطيفة، وهي تميل إلى صبرا مبتسمة: ـ تجيدين العزف!؟.

قالت: ـ نعم، إن لم أكن قد نسيت.

تذكرت أحاديثها عن جارتهم انطوانيت التي علمتها الموسيقى ودربتها على البيانو، تذكرت أحاديثها عن ليالي الخوف الطويلة، وتخيلتها تتسلل إلى شقة السيدة التي ترفض النزول إلى الملجأ لتمضي الوقت في العزف على أضواء الشموع والرقص على إيقاع القذائف، تذكرت قولها: ـ كانت تلك طريقة السيدة أنطوانيت في السخرية من الحرب ومقاومة الخوف والظلام.

جاءنا مدير الصالة المناوب بعد لحظات مبتسماً، فاصطحب صبرا إلى البيانو بعدما تحدث مع الجالسين على الطاولتين الأخريين.

عزفت من أغنية فيروز «سألوني الناس» وكانت رومانسيةً ورائعة، ثم جاءت إلى طاولتنا وانحنت هامسة: ـ سأهديكم هذه المقطوعة.

وانثنت بخفة فراشة لتبدأ من جديد وسط دهشتنا «أروح لمين وأقول يا مين»، كنت أعرف أنها تجيد العزف لكن لم أتوقع كل هذا السحر، تنداح الموسيقى لتحملني خارج حدود جسدي وتغيب بي في دنيا من لذة السماع، صحيح «تبدأ الموسيقى من حيث تنتهي اللغة»، تقاطر الناس من أرجاء الفندق يستمعون وهي تردد المعزوفة تعلو بها وتهبط كأنما تتدفق النغمات على قلوبنا وعلى أجسادنا، استمتعنا بالموسيقى الراقية وبالأداء الجميل، ثمة نفحةٌ من روح العازف في معزوفته.

توقفت وسط موجة من التصفيق لم تتوقعها، كانت غائبةً تماماً مع الأنغام، قمت إليها فأخذت بيدها نحو الأصحاب يشع من عينيها الفرح، ليلةٌ لا تنسى مضت وراحت ولم يبق منها سوى عبق الذكريات.

* * *

أزف وداع شيخة ولطيفة بعدما أمضيتا معنا ما يقارب الشهرين وبعدما توثقت عرى المودة، كانتا على تواصلٍ مع ناجي وراشد، فلا يكاد يمضي يوم من دون أن يلتقوا.

سألت راشد ذات مرة: ـ كيف تبرران لأهلهما كل هذا الغياب؟.

فقال ضاحكاً: ـ لا أدري، ربما عند صديقاتهما.

قلت: ـ يصدِّقون؟.

قال: ـ أظنهم منشغلون، أو لا يهتمون كثيراً، فقد تجاوزوا، مثلما يقال، هذه الأمور. ثم أضاف: ـ لكنهما عاقلتان تستحقان الثقة.

قلت في لحظة تعجُّل: ـ تبيح لأخواتك مثل تصرفاتهن؟.

علته بعض الحدة: ـ عندما تبيح لأخواتك أن يفعلن مثلما تفعل صبرا.

أدركت خطأي فسكت، ثمة نقاشات يجدر إجهاضها قبل أن تلد الخصام.

اتفقنا على زيارة يورو ديزني التي تحدثنا عنها كثيراً قبل أن يتفلت الوقت وتسافران.

يمكنك أن تعود هناك صغيراً لتدرك ما فاتك من أيام طفولتك، أطلق لنفسك العنان ولا تكن محرجاً فلا مكان هنا للإحراج، لا تتردد فكل ما تراه للعب والتسلية.

هكذا كان، فقد أفرجنا عن الأطفال الذين حبسناهم طويلاً خلف سياج الوقار، لعبنا مجتمعين لبعض الوقت ثم تفرقنا فذهب كل اثنين في اتجاه، أسعدني انطلاقها حين راحت تجري ممسكةً بيدي بين أفواج اللاعبين مثلنا، فمن سفينة الفضاء وبيت الأشباح إلى قطار الرعب الذي ارتمت بعده على الأرض تنهج بين الضحك والبكاء وقد تبعثر شعرها واصفرَّ وجهها.

أشدُّ يدها وأسخر من خوفها لنجري من جديد، ويسرقنا الوقت فلا ننتبه إلّا وقد تخلفنا عن موعد عودتنا.

قالت: ـ يا إلهي، إنها التاسعة والنصف، تأخرنا عن أصحابنا.

وصلنا متعبين فاستقبلنا ناجي باللوم وراشد بالسخرية بينما نأخذ مكانينا في المطعم المزدحم ويناولوننا علب الكولا والساندوتشات الباردة التي التهمناها بنهم، فلم نأكل شيئاً منذ الصباح.

بدا النعاس والتعب واضحين على وجه شيخة وصبرا، أما لطيفة وناجي فقد كانا مرتبي المظهر مرتاحين، يبدو أنهما لم يلعبا!.

قلت، موجهاً كلامي لراشد: ـ أظنهما لم يذهبا إلى أي مكان، قضيا الوقت في المقاهي والحدائق.

قال ضاحكاً: ـ عاقلان، لا تلائمهما ألعاب الصغار!.

قال ناجي: ـ بل أنتم المفجوعون، فضحتمونا كأن لم تشاهدوا ألعاباً من قبل.

قالت لطيفة: ـ راشد، هذه أول مره تدخل فيها مدينة ألعاب بهذا الحجم؟.

قال ضاحكاً: ـ كنا نلعب بين النخيل وعلى كثبان الرمال التي تحيط بقريتنا.

قالت: ـ بعد زيارتين أو ثلاث ستجدها مملةً لا يثير اهتمامك منها شيء.

قال راشد: ـ إذاً لم تلعبا؟.

قالت شيخة، وهي تغالب النعاس: ـ لطيفه هادئة منذ كانت صغيرة لا تميل إلى اللعب والركض.

قلت، ضاحكاً: ـ أما صاحبنا فقد لعب حتى ملَّ.

قال راشد: ـ أعطونا فرصة يا سادة، فما رأينا بعد شيئاً من الحياة.

اتكأت صبرا على كتفي في طريق العودة وغطت في النوم فلم تفق حتى أيقظتها في محطة شارل ديغول، أخذنا التاكسي من هناك وكان الوقت متأخراً، فودعتني بقبلةٍ خفيفةٍ طبعتها على خدي وانطلقت نحو الباب.

اجتمعنا على مائدة الإفطار نودع شيخة ولطيفة اللتين حضرتا باكراً متأنقتين كعادتهما، أحضرت صبرا بعض الصور التي التقطتها لرحلة يورو ديزني وأهدت كلاً منهما دفتر مذكراتٍ مزخرف كالذي تحمله في حقيبة يدها وقد مهرته بأمنيات السعادة في أولى صفحاته، كانتا مهتمتين وسعيدتين، فليس من المهم أن تكون الهدية ثمينة بقدر ما تكون صادقة ومعبرة.

قالت لطيفة، بينما ترتب الأشياء في حقيبة يدها: ـ

هكذا نزلنا ثم ارتحلنا وهكذا الدنيا نزولٌ وارتحال

قال ناجي مردداً، وهو يصب لنفسه الشاي: ـ وهكذا الدنيا نزولٌ وارتحال.

قال راشد: ـ بقدر ما كنا فرحين سعداء بصحبتكم بقدر ما نحن اليوم حزينون لفراقكم.

قالت شيخة: ـ ليس من فراق! سنكلمكم وسنراكم حالما تعودون إلى البلاد.

استغرقت الفتيات في أحاديث هامسة حتى حان الموعد فخرج الأصحاب لوداعهما بينما اكتفيت وصبرا بالوقوف عند الباب.

استأذنت لتعود إلى البيت، وصعدت إلى غرفتي لأرتاح.

عاد أصحابي بعد الظهر يحملون التحيات ومسبحة اليسر من شيخة ودهن العود من لطيفة مع رسالةٍ لم تغلف كتبت على عجلٍ لتحمل مشاعرهما الرقيقة، وبينما أتأمل المسبحة وضع ناجي على الطاولة مغلفاً تزينة الأشرطة الملونة وطلب مني إيصاله لصبرا.

خيل إليَّ أن قصة الهدايا قد استدركت على عجل، هكذا نقتبس بعض مفاهيمنا ممن نصاحبهم، فليست أفعالنا في أغلبها سوى ردود أفعال.

* * *

اتصل أخي عوف من مكة صباح الجمعة، ففرحت بمكالمته ومازحته لكن حديثه كان أقرب إلى الوعظ وأحاديث الزهاد، وكانت وصاياه مائلةً إلى التدين الشديد، قلت في نفسي لعله تأثير العمرة وجو الحرم الروحاني، لكنه ختم بنصيحةٍ صاغها بالفصحى حول البراءة من المشركين وتجنب مخالطتهم ما أدخل الشك في قلبي!

فرحت صبرا بالهدايا فناولتني الرسالة بعدما قرأتها على عجل وراحت تقلب الساعة والعطور، عبارات رقيقة وتمنياتٍ طيبة كالتي

تكتب لوداع الأصدقاء، لم يلفت نظري منها سوى «نبارك اختيارك، ويسعدنا أن نكون صديقاتك إن أراد الله وجئت إلى بلادنا».

عمّقت تلك العبارة شعوري بما نما بينهن وتأكدت ان أحاديث نسائية قد دارت بين الصديقات، وبينما سرحت أفكر بكلام عوف الذي ما زال يشغلني، أرتني ضاحكةً صورةً تجمعنا على طاولة العشاء في يورو ديزني التقطها أحدهم بكاميرا لطيفة: شيخة تضع يدها على فمها تتثائب بينما صبرا إلى جانبي تغط في النوم: لطيفة تبتسم للكاميرا بوقار كعادتها، أنا أحاول إيقاظ صبرا قبل أن تعاجلها الكاميرا. راشد يصلح شعره بينما ترتسم ابتسامة ناجي من خلف كوب الشاي، وعلى ظهر الصورة بخط لطيفة «آخر ليالينا مجتمعين عسى أن تعود!».

قالت، وهي تعيد النظر إلى الصورة: ـ طيبتان. وسكتت.

قلت: ـ يفترض ألا تكون الطيبة أمراً استثنائياً يستحق التعليق، الناس طيبون بطبعهم، لكن أليس هناك ما هو أكثر من الطيبة؟.

قالت، وهي تلتفت نحوي: ـ مثل ماذا!؟.

قلت: ـ ربما أصبحتا صديقتيك، فنحن نثمن سلوك أصدقائنا وندرك مكانتهم بعدما يرحلون.

قالت: ـ ربما يكون هذا صحيحاً فلم أكن مرتاحةً لهما في البداية، خصوصاً شيخة، لكنني أدركت مع العشرة كم هي طيبة وبسيطة عكس مظهرها، من الحكمة ألّا نستجيب دائماً لانطباعاتنا الأولية. وسكتت قليلاً ثم أردفت، وهي تبتسم: ـ ربما لو أعطيت نفسي فرصة معرفتهما من البداية لكان أفضل.

قلت: ـ صبرا، تعرفين كيف نختلف أنا وأنت في نظرتنا للناس؟.

قالت: ـ كيف؟.

قلت: ـ تعتقدين إنَّ الأذى هو الجزء الغالب وإنَّ الخير استثناء،

بينما أعتقد إنَّ الناس طيبون مسالمون بطبيعتهم وإنَّ الخطأ والشر هما الاستثناء.

قالت: ـ كفتاة يجب عليَّ التزام الحذر.

قلت: ـ حتى مع الفتيات؟.

قالت بثقة: ـ حتى معهن، إذ لا أعرف كيف يفكرن ولا كيف يعاملن الآخرين لا سيما ونحن نسمع الكثير، هناك أمرٌ آخر وهو طبيعة نظرتنا للآخر التي تحكمها خلفياتنا الثقافية والاجتماعية وربما النفسية.

قلت: ـ صبرا حبيبتي، لا بد من الناس، لا حياة بلا أصدقاء وزملاء وجيران، ألم تسمعي قول الأول «لابد لك من الناس ولا غنى لك عنهم ولكن كن فيهم أصم سميعاً وأعمى بصيراً».

قالت: ـ عليك أن تترك مسافةً.

سألتني ذلك المساء: ـ كم بقي من وقت دراستك؟.

قلت، ضاحكاً: ـ بضعة أسابيع، لا أدري بالضبط.

سادت فترة سكون لم يقطعها سوى وقع أقدامنا المتثاقلة على الرصيف، قلت محاولاً كسر الصمت: ـ ما زال الوقت باكراً ثم إنه لن يطول غيابي، فقط سأرتب بعض الأمور والأوراق وسأعود لأتقدم لك، سأعود لنكون معاً، فمن دونك لن يكون لشيءٍ معنى أو قيمة، ما أقل شأني إن سمحت أن يبعدني عنك شيء بعدما عرفت حبك، لا تعتقدي أني سأتخلى عنك فقد استحق من بعدك الشفقة. وأمسكت بيدها.

قالت بتردد: ـ وزوجتك؟.

قلت: ـ «وإن يتفرقا يغن الله كلاً من سعته».

قالت: ـ وأولادك؟.

قلت: ـ أولادي هم أولادي ولن يحول أحدٌ بيني وبينهم.

سكتت برهة ونظرت، فإذا عيناها تدمعان وهي تقول، كأنما تخاطب نفسها: ـ سعيدةٌ بحبك ومولعةٌ بك، لكن أشعر أن هناك خطأً ما.

قلت: ـ أعرف أنك تشعرين بالذنب، لكن حياتنا لم تكن لتستمر، أصبحت عذاباً لكلينا حتى صار الانفصال أفضل الحلول.

قالت: ـ لا أدري، أشعر بغصة، أعذر صراحتي أرجوك، وإن كانت تقبل أن نعيش معاً فأنا لا أمانع رغم أني لم أكن أتخيل هذا قبل اليوم، لم يعد لي من خيار، لا أتصور أن أكون سببا في دمار أسرة ويتم أطفال.

قلت مستغرباً: ـ أيَّ يتم تتحدثين عنه؟.

قالت: ـ أبناء المطلقات أيتام، بل هم أشد بؤساً حين لا ينتبه لهم الناس فيرحمونهم رحمة الأيتام، إما أن يعيشوا مع زوج الأم وإما أن يتربوا في حجر امرأة غريبة.

قلت: ـ قد تكون زوجة الأب محسنة وفاضلة.

قالت بحرقة: ـ لا أفضل من الأم!.

وافقتها في قلبي وسكتُّ.

أضافت بعد قليل: ـ عمار، عدني ألّا أكون السبب.

قلت: ـ أعدك حبيبتي، صدقيني، تحدثنا عن الطلاق كثيراً قبل أن أعرفك، كل ما في الأمر أني وجدت المرأة التي أحب.

التفتت إليَّ بابتسامة رقيقةٍ وما تزال الدموع تبلل محجريها: ـ آسفة حبيبي، أزعجتك بتكرار الحديث عن مخاوفي لكنها تشغل بالي، وما عساني أن أفعل سوى الشكوى.

قلت: ـ لا تعتذري، شعورك هذا يحببني فيك أكثر.

قالت، من دون أن تنظر إليَّ، وكانت تلك طريقتها في قول

الأشياء الصعبة: ـ تعتقد إنَّ ثمة حل لمشكلتي، ألا تخاف أن يفشل زواجنا؟.

وضعت يدي على ظهرها وقلت ضاحكاً: ـ لا تهتمي، فليست لديك مشكلة، ستصلح الأمور مع الألفة والاطمئنان، وسوف نراجع الطبيب إن لزم الأمر، لا تشغلي نفسك بها.

قالت كأنما أرادت تغيير الموضوع: ـ آه، إذاً بقيت أسابيع معدودة، لا أدري كيف سأقضي الأيام من دونك؟، لكن أخبرني هل سترى شيخة ولطيفة؟..

قلت: ـ لا أدري، ربما.

قالت ضاحكة: ـ سمعت أنكم لا ترون النساء في بلادكم!.

قلت: ـ هذا صحيح.

قالت: ـ لكن يمكنكم تدبر أموركم إن أردتم!؟.

قلت: ـ وهذا أيضاً صحيح، في العلاقات الإنسانية لا يغير القانون وحده شيئاً ما لم تصاحبه القناعة.

قالت: ـ كم أنا متشوقة لأعرف عالم النساء عندكم.

قلت: ـ أبداً، لا تكاد المرأة تخرج من بيتها إلّا للضرورة، قد يمضي شهرٌ أو شهران قبل أن ترى الشوارع.

قالت: ـ ربما كان هذا أفضل، ماذا تريد من الشوارع؟، كانت نساء القرى والضيعات في لبنان يخرجن إلى الحقول، لا يتحدثن مع الأغراب ولا يرتدين الملابس التي تصف أجسادهن.

قلت: ـ كونه أفضل يتوقف عل قناعة المرأة ونظرتها للحياة، بعض النساء تراه أنسب بسبب التعود أو التدين وبعضهن لا تطيق الحبس..

قاطعتني ضاحكة: ـ لكني لم ألبس حجاباً في حياتي!.

قلت: ـ ستتعودين، فللبيئة حكمها وتأثيرها.

قالت: ـ ليس مهماً، المهم أن نكون معاً، طبعاً أنت لا تفكر في العيش بعيداً عن أهلك ووطنك؟.

قلت: ـ الحياة هناك أيسر، نعيش في مجتمعات مترابطة من العائلات الكبيرة، لذا لا نستطيع الاستمرار بعيداً عن بيئتنا، ستحبينها كثيراً عندما تألفينها.

أوصلتها إلى باب دارها وحمَّلتها لوالدها التحية فالوقت متأخر للدخول، وعدت تملأ قلبي السعادة وأسخر من كل ما سيعترض طريقي.

أثنى الأصحاب على أدبها وحسن تصرفها على مائدة العشاء فوجدتها فرصة مواتية لأفاتحهم، قال راشد، بعد طول صمت: ـ عليك ألّا تستعجل، أنسيت أنك متزوج وأبٌ لطفلين، ليس الأمر بهذه السهولة. ثم أردف، حين رأى وجومي: ربما تستحق صبرا من يغرم بها، حين عرفناها أول مرة ظننتها فتاة عابثة لكنَّ إعجابي بها يزداد كل يوم، ولو كانت ظروفك مواتية لكنت أول من يشجعك، لا تمنِّ نفسك ما ليس لك يا صديقي.

قال ناجي بهدوء: ـ أرجو ألّا تكون أمَّلتها بشيء.

قلت: ـ بلى..

قاطعني وهو يعتدل جالساً ويلتفت إلى راشد: ـ مجنون، كيف تفعل ذلك، إن كنت تريد الزواج حقاً فيمكنك أن تتزوج من بنات بلدك، الناس يأتون هنا للتسلية والمتعة، ومخطئٌ كل من يتزوج من خارج بيئته التي يعرفها.

قلت مستغرباً: ـ وما في ذلك، لا أصدق أن شاباً في مثل وضعك ما زال يحمل هذه القناعات.

قال: ـ لا تستغرب، وفكر في مشاكل العادات والتقاليد، كيف

ستتقبلها أسرتك المحافظة إن كانت ستتقبلها أصلاً، والنظام وموافقات الزواج شبه المستحيلة، وموقف زوجتك وأهل زوجتك، ومع أني لا أنصح بزواج الثانية إلا أنك ستجد من بنات قومك من هي أجمل منها إن كنت مصمماً على الزواج.

قلت: ـ ليست قصة أجمل، أنا أحبها هي من دون غيرها.

قال ناجي: ـ ما الذي يميزها عن الأخريات سوى أنك تريد أن تعيش قصة الحب؟.

قال راشد ضاحكاً: ـ على سبيل المثال كيف ستقنعها بالحجاب؟.

قلت: ـ يا إخواني، أريد أن أتزوج المرأة التي أحببت بعدما وجدتها وعرفتها، هل هذا كثير؟، الزواج والحب علاقةٌ روحيةٌ وسرٌ مقدسٌ لادخل له بالقومية ولا بالجنسية.

قال راشد: ـ كثير على متزوج وأبٌ لأولاد يربيهم وله عائلةٌ ممتدة مثل عائلتك، وعلى موظف يحكمه النظام..

قاطع ناجي: ـ أنت مخطئ، كان يجب أن تكتفي بصحبتها وصداقتها، أما الزواج فسيجر عليكما من المشاكل ما لا تطيقان، من سيقنع والدك، أخبرنا؟.

قال راشد: ـ تعرف أهلها، تعرف أمها، تعرف أصلها؟.

تذكرت والدها وما كانت تحكي عن أمها وأهلها فضحكت وقلبي مليءٌ بالأسى مما يقولان، وأجبتهما: ـ هي تحبني وأنا أحبها ولا شيء سوى ذلك يهمني أو يعنيني.

كان حديثنا أشبه بحوار الطرشان، حين ذهبنا ذهب اتجاهات مختلفة، فحجتي صحيحة وحريتي في اختيار من أحب واضحة إلّا أنهما يجادلان في معارضة والدي وأسرتي، وفي العقبات التي

سيضعها المجتمع في طريقي، وفيما سيحل بعائلتي وبوظيفتي، ولكم أقنعني جدالنا بالقدرة على الوصول.

اعتذر ناجي في الطريق، بعدما هدأت عواصف الجدل، عن حدته لكني آثرت الصمت ومضيت نحو غرفتي بهدوء.

بت منزعجاً مفكراً، إن كان هذا رد أصحابي، وهم أعرف الناس بي وبمن أحببت، فأي مجادلاتٍ وأي معارضات سألقى هناك، كان موقف والدي هو أكثر ما يؤرقني ويشغل بالي.

* * *

قضينا ما بقى لنا من الوقت في حكم المخطوبين، أمضيت الكثير من الساعات في منزلهم ألعب الشطرنج مع السيد عدوان أونتصفح الكتب القديمة، ونتداول أحاديث الأدب والسياسة، تجولنا بين مقاهي وحدائق باريس وكنا نعود دائماً إلى أحد ثلاثة أماكن أحببناها وتعودنا ارتيادها، إما أن تجدنا تحت شجرتنا الكبيرة في الحديقة القريبة من الفندق، وإما أن نجلس مقابل كنيسة نوتردام على رصيف السين حيث يلتقي المحبون، وإما أن نكون في المقهى المجاور للفندق نفتش الجرائد ونستعرض الأحلام، نذهب أحياناً في نهايات الأسابيع إلى الضواحي الجميلة مع راشد وناجي نستمتع بالخضرة وبالنسيم العليل، هكذا مضت أيامنا سريعة كما هي عادة أيام السعادة.

يغلبني الشغف أحياناً فأسترق القبلة عندما نتكئ على جذع الشجرة فتعنفني وتعاتبني لكنها لا تذهب بعيداً، على كل حال كان قربها يغريني بالعاطفة ويعلمني شيئاً جديداً وجديراً كل يوم.

فرحت أول الأمر حين رأيتها تخرج من دائرة العزلة التي فرضتها على نفسها، لكن أدركت لاحقاً أنها تختصر العالم بي وتتعلق بوجودي تعلق الأطفال رغم ثقافتها وكثرة اطلاعها، شعرت

بالمسؤولية تجاه الفتاة التي منحتني قلبها وفتحت لي أبواب السعادة بعد أن كانت موصدةً في وجهي.

عشنا أياماً من الأحلام المجنحة، ومضت مهلتنا فلم يبق على التخرج سوى أيامٍ قضينا أكثرها في الدرس والقراءة، ساعدتني في مذاكراتي ودراستي في الغرفة أو في مقهى الفندق، وكثيراً ما حملنا في نزهاتنا الكتب والمذكرات.

ترددت معنا على الأسواق لشراء الهدايا، تترجم وتساعد في الانتقاء وكان صاحباي يحبانها ويرتاحان لوجودها وكنا نستشعر قرب الوداع مع كل ليلةٍ تمضي.

أقلقني شرودها ونظرات الحزن حين تتسلل من خلف ابتساماتها، ولأني خشيت أن يصدمها أو يحرجها رأيهما تعمدت ألا أتحدث عن الزواج في حضورهما، أما هي فلم يكن من عادتها أن تبدأ حديثاً خاصاً من دون مناسبة.

خرجنا إلى الحديقة ذات صباح نبحث عن فكرةٍ أو طريقةٍ نهرب بها من الوجوم الذي أثقلنا، طفنا أرجاءها وترددنا في ممراتها الطويلة وما تزال يدانا متشابكتان كأنما تقاومان ما تسرب من خوف الفراق إلى قلبينا، أخذنا الآيسكريم أخيراً وذهبنا إلى الشجرة فأسندت ظهري إلى الجذع ومددت رجلي على العشب البارد بينما جلست إلى جانبي تغرف بملعقتها الصغيرة، كانت ترتدي بنطلوناً من الجينز وقميصاً أبيض قصير الأكمام وتعتمر قبعةً طوت مقدمتها إلى الأعلى، بقيت مسترخياً لبعض الوقت ثم التفت فراعتني الدموع تنحدر على وجنتيها وهي تحاول ألا تنظر إليَّ.

قلت: ـ ما لك حبيبتي؟.

قالت بصوت خفيض وهي تنظر إلى العشب: ـ لا شيء.

سكتُّ فأضافت وقد غلبها البكاء: ـ ستسافر وتتركني.

قلت متكلفاً الضحك: ـ أذهب لأستكمل معاملات الزواج وأرتب بعض الأمور، وقريباً سأعود، لا تحزني أرجوك.

عركت أنفها المحمر بالمنديل ثم قالت بلهجة رجاء: ـ إبق معي أسبوعاً آخر أرجوك، يا إلهي..!، لا أطيق فكرة سفرك. وتنفض رأسها.

قلت: ـ لكن..

أمسكت بيدي وقاطعتني: ـ أرجوك حبيبي.

قلت: ـ نعم. من دون أن أفكر، فلطالما آمنت أن «الحب هوأن تجعل من تحب سعيداً»، صحيح أن الأمر يحتاج إلى بعض الترتيب كحجز أيام إضافية في الفندق وتأخير الرحلة وإلى عذر يقبله والدي، لكنه ليس أمراً هاماً.

قلت: ـ نعم، وبودي لو لم أفارقك لحظة لكنها الضرورة، قريباً سأعود لأعيش معك ولا أفارق عينيك الحبيبتين. عانقتني وضحكت مثل طفلة صغيرة بينما رحت أربت على ظهرها.

هكذا انتهى يومنا سعيداً ببقائنا معاً لأسبوع آخر كأنما لن يمضي مثلما مضت الشهور من قبل، عشنا لحظتنا بكل تفاصيلها، تسلينا بالمشي في الشوارع والمتنزهات أو الاسترخاء في أحد أماكننا المفضلة، وكان بقاؤنا معاً هو المتعة.

أمست صبرا حديث الأصحاب في إحدى الليالي الأخيرة: أدبها، أناقتها وهدوؤها.

قال راشد: ـ لم أسمع عزفاً أعذب مما أسمعتنا تلك الليلة، شعرت أنها تعزف بكل حواسها، واستمتعت كأنما أسمع الموسيقى لأول مرة.

قلت: ـ أعتقد أن روح العازف تتجسد في معزوفته، لذا تحب من شخص ما لا تحبه من آخر، قد لا تفهم الفرق لكنك تشعر به.

قال ناجي: ـ مثل الحديث أو النكتة التي تستسيغها من شخص من دون آخر، لكني ألاحظ عليها مسحة حزن، كنت أظنه الحياء في البداية ثم تأكدت مع الأيام أنه الحزن أو الألم.

استحضرت ما عرفت من أحزانها ومشاكلها مع الحياة لكني أجبت: ـ أبداً، ربما تكون طبيعتها وهدوؤها قد أوحيا لك بهذا.

قال، وبدا عليه عدم القناعة: ـ لا أدري، هذا مجرد انطباع!.

تعمدت كي لا يطول الجدل أن أخبرهما، في طريق عودتنا من السهرة، أني سوف أتأخر عنهما أسبوعاً، جاملاني وسكتا على مضض بينما تلوح في عيونهما التساؤلات.

أمضينا يوم أصحابنا الأخير بين الأسواق وبين محطات الميترو حتى جمعا ما كانا يريدانه من الهدايا.

قالت، حين جلسنا ننتظرهما في البهو وقد صعدا بالأشياء إلى الغرف: ـ أود أن أدعوهما الليله للعشاء.

قلت: ـ لكن لا أحبك أن تتكلفي، وهذا..

قاطعتني ضاحكة: ـ أريد أن أكرمهما، لا تعلمني البخل.

استجابا لإلحاحها لكنهما طلبا ألّا نذهب بعيداً، فقد كنا مرهقين من كثرة ما مشينا بين المحلات ومجمعات الأسواق، ذهبنا إلى المطعم القريب الذي زرناه سابقاً ومن ثم إلى ركن البيانو في صالة الفندق، جاملنا مدير الصالة المهذب وسألها إن كانت تود العزف فأجاب قبلها راشد: ـ صبرا، أرجوك، أريد أن أسمع المقطوعة التي عزفت تلك الليلة. لبت رغبته وأعادت الكوبليه الأول من موسيقى أغنية «أروح لمين»، ومن أجلي عزفت بإحساسٍ مرهف «بعيد عنك» ثم أسمعتنا لحناً جميلاً من الموسيقى الغربية حين طلبها أحد الحضور قالت إنه لباخ، مقطعٌ يسرق حواسك فيجعلك تحلق معه وتود ألا يتوقف.

رافقناهما في الصباح الباكر إلى مطار أورلي، وراح راشد يوصيني بها بينما انشغلت بحديث باسم مع ناجي حتى نادى لصعود الطائرة.

قلت مازحاً حين طال حديثهما: ـ الحمد لله أنك ستسافر قبل أن تثير غيرتي. ضحك الجميع، وما هي إلا لحظات حتى عانقناهما وراحا يشدّان الخطى نحو النداء الأخير.

أمضينا بقية اليوم في الحدائق المجاورة نغني تارة ونتحدث تارة ونتجول بين المقاهي حتى مضى النهار، عدت إلى الفندق بعدما أوصلتها فوجدت بوكيه ورد أنيق وضع بين وروده كرت يحمل هذه العباره «إلى أختنا وصديقتنا صبرا، أحببناك كثيراً. راشد وناجي»، أحدثت لفتتهما ابتهاجاً كنا في حاجته بعد رحيلهما.

قالت لي صباح اليوم التالي، بينما نسترخي على عتبات قوس النصر: ـ لم أكن أعرف أن في الحياة سعادة بهذا القدر.

قلت: ـ سنكون أسعد حين نتزوج، سأجعلك أسعد النساء، وسأكون فخوراً بك.

قالت: ـ أما أنا فلا أملك ما أقدمه سوى قلبي.

قلت: ـ قلبك كل ما أريد، لكن أخبريني هل تفضلين أن نعيش في الخليج؟.

قالت، وأرخت رأسها على كتفي: ـ يكفي أن نكون معاً لتصير الأماكن جميلة وليكون الناس أصدقاء.

قلت: ـ صبرا، لن أتأخر، سأسوي بعض الأمور وأعود سريعاً.

قالت: ـ ستجدني في انتظارك معلقةً أحلامي ليوم عودتك.

قلت: ـ إنها أمور تتعلق بوالدي وبالعمل والموافقة..

قاطعتني، وما يزال رأسها على كتفي: ـ ليس من ضرورةٍ لتخبرني التفاصيل، أثق بما تقول وما تفعل، الحب هو الثقة، أليس كذلك؟.

اتصلت صباح اليوم التالي وأخبرتني أنها ستعرفني ببعض أفراد

عائلتها، جلست منتظراً على مائدة الإفطار حتى حضرت تحمل ألبوم صورٍ قديم ففهمت ما أرادت، لكني سألتها ممازحاً: ـ أين هم أفراد العائلة؟.

قالت، وهي تناولني الألبوم: ـ هاهم، لم يبق لي من عائلة أعرفها سوى أبي وعمتي، أما الماضون فستصادفهم هنا، أردت أن افتحه فأغلقته بلطف وقالت: ـ أليس من اللياقة أن أعرفك عليهم بنفسي؟.

قلت ضاحكاً بينما أقرِّب لها سلة الخبز: ـ بلى، معك حق.

بدت في مزاجٍ معتدل ونحن نأخذ مكاناً متنحياً في صالة الفندق بعيداً عن ضوضاءِ الناس.

الصورة الأولى لعريسين بالأبيض والأسود، فتاةٌ بيضاء ممتلة قليلاً طفولية الملامح عذبة الابتسامة وقد وضعت يدها على كتف العريس الذي لم يكن سوى السيد عدوان، عرفته بالكاد فقد غيَّره الزمن وكم يغيِّر!، بدا أطول منه الآن، شابٌ وسيم بشاربين أسودين وطلعةٍ مهيبة ونظرات ملؤها الثقة وابتسامة عريس.

عرَّفتني عبر الصفحات القديمة على والدتها، التي ظهرت مبتسمة على الدوام، وإلى أختيها يارا وهالة الصغيرتين الجميلتين وإلى أخيها مازن الشاب الذي يحمل الكثير من ملامح والده، سمرته، قامته، عينيه الذكيتين ونظراته الحادة، كانت أوضح صوره لمازن هي تلك التي يقف فيها إلى جانبه فتىً في مثل سنه، أشقر الشعر أبيض البشرة، يحتضنان بندقيتيهما كأنهما حبيبتان.

قلت: ـ كأنما أُخذت هذه الصورة للذكرى؟.

قالت: ـ هذه آخر صوره أخذاها مع السلاح ثم لم يلبثا أن تفرقا، كانا صديقي طفولة.

قلت: ـ ومن هذا الشاب؟.

ضحكت وهي تنظر إليه: ـ ريموند، ابن السيدة انطوانيت جارتنا،

ألم أحدثك عنه؟، لم يكن فتى حروب إنما حمله التيار الذي حمل الجميع، كان مولعاً بالموسيقى والرسم، ربطته بمازن الجيرة وصداقة الطفوله، ورغم أنهما ذهبا إلى معسكرين مختلفين إلا أنهما ظلا وفيين لصداقتهما يلتقيان كل حين، كنت تلميذةً صغيرة وكان في ريعان الشباب، يعلمني الموسيقى مع مجموعة من الصغار حين يستريح عند أمه من عناء المعارك ويترك بندقيته معلقةً على الجدار القريب من البيانو، تنتهي السيدة أنطوانيت من الدرس فنغلق النوتة ثم ما نلبث أن نعود إلى البيانو من جديد، فلا مكان نذهب إليه ولا شيء نفعله، كنا نقاوم الحصار والخوف بعزف موتسارت وباخ، وكانا يغريانا بالحياة والأمل.

أما والدتانا فصديقتان حميمتان رغم ما بينهما من اختلاف، وجدت أمي في السيدة أنطوانيت المرأة المثقفة القوية والمتحررة من سلطان الرجل، وأحبت أنطوانيت في أمي الصفاء والبساطة اللذين يفتقدهما الفنان ويقدِّرهما أكثر من سواه، من يدري فربما تمنت كلاهما أن تكون الأخرى!؟، وثقت الجيرة والملجأ صداقتنا قبل أن يهاجروا.

قلت: ـ هاجروا؟.

قالت: ـ هُجِّروا أم هاجروا لا أدري، كنت صغيرةً حينها لكن سمعت أنهم استقروا عند بعض أقاربهم الذين سبقوهم إلى كندا.

قلت: ـ ولم يعودوا إلى لبنان؟.

قالت: ـ اتصل ريموند مرتين أو ثلاث يسأل عن مازن، أعتقد أنه سوف يبحث عنه ويوافينا بما يصادف من أخباره، وقد يزورنا هنا فقد وعد والدي أكثر من مرة.

قلت: ـ جميلٌ أن يصادف المرء أصدقاء طفولته.

قالت، وهي تطوي الصفحة: ـ لم تعد سوى ذكريات، يجدر بك

أحياناً ألا تجتر الماضي بل أن تنساه إن كان ذلك ممكناً.

انتهينا من جلسة التعارف تلك واستعادت إشراقتها وهي تقول ممازحة: ـ أردت أن تعرف ماضينا وأن ترى أفراد عائلتي أو ما عدت أملكه من آثارهم، أما اليوم فلن يكون لي من عائلة سواك وهذا الشيخ طريح الفراش.

ذهبنا بالألبوم إلى الغرفة وخرجنا نستعرض وجوه الناس حتى وصلنا إلى شجرتنا، يحدث أن تألف الأماكن كما تألف الناس لا لسبب تفهمه، فثمة مشاعر يستحيل شرحها!.

قضينا وحدنا من دون التزامات الأصدقاء وهمِّ الدراسة أياماً جميلة لاهين مع السياح بين المقاهي والحدائق والمعالم، نرسم الأحلام للمستقبل، لم نكن مهتمين كثيراً للتفاصيل رغم ما نقول وما نحلم، أردنا أن نظل معاً، ولعل ذلك ما أبقى يدينا ممسكتين ببعضهما معظم الوقت.

تسربت الأيام مسرعة ولم يبق على الرحيل سوى يومين، لذا قررت ان أزور السيد عدوان زيارة مطولة، فوداعه أقل ما يجب.

شعرت أنه عاد إلى مربعه الأول وغلب عليه الوجوم، لم يلعب بنفس الروح التي عهدت، ولم نتحدث في أشياء محددة فقد كان مشوشاً ويعاني ألماً أو ضيقاً.

قلت، حين تأخر ينظر إلى الأحجار: ـ دورك سيدي، لم لا تلعب؟.

قال: ـ دوري؟، تمزح. ويعيد النظر إلى الأحجار.

قلت: ـ نعم، هذه نقلتي، ووضعت يدي على الجندي.

قال: ـ حسناً، حسناً. وطار بالحصان دونما تروي.

شعرت باليأس في عينيه وفي نظرته عبر النافذة ولازمني ذلك الشعور طوال اليوم.

ودعني عند الباب متوكئاً على العصا التي لازمته مذ عرفته، تقف خلفه فاطمة المغربية وإلى يساره صبرا متأخرة قليلاً وعلى وجهها ابتسامةٌ خجولة، صافحني وشد على يدي فاندفعت لعناقه متجاوزاً تحفظي.

قلت، وما أزال ممسكاً بيده: ـ سأعود لزيارتكم قريباً فثمة. .

قاطعني، وهو يشد على يدي: ـ تشرفنا في أي وقت.

ثم نظر في عينيَّ وقال: ـ لا تتغير يا بني، كن كما عرفتك رجلاً صالحاً تعرف ما تريد وتصل إليه بشرفٍ وفضيلة، أبلغ سلامنا لوالدك ولجميع عائلتك.

تحاشيت النظر في عينيه بينما تحدجني صبرا بنظرةٍ مستغربة. استجمعت صوتي الغائر وودعته بأقل ما يجب من العبارات وتراجعت عبر الباب المشرع.

أتذكره كأنما لا يزال واقفاً هناك، شعره الأشيب، ابتسامته الوقورة، طريقة ضمه لطرفي الروب وصوته الجبلي المتهدج.

سرنا معاً حتى المقهى وجلسنا في التراس من دون أن التفت إليها أو أتحدث بشيء، احتجت لبعض الوقت كي أتجاوز غصة الوداع، لا أدري أكانت تحترم الموقف أم أنها في مزاجٍ مشابه حين لم تكسر الصمت حتى تبرع المطر فأذابه.

لم نجد مكاناً في الداخل، فهرولنا نضع أوراق الجريدة على رأسينا، تبللت ملابسنا وأصابنا البرد لكنا غرقنا في الضحك ونحن نلقي بنفسينا على الكرسيين نصف المتقابلين في أقصى البهو مما يلي المنصة التي تعزف عليها الفرقة، قلت بينما ننتظر القهوة: ـ صبرا، أريدك ان تكتبي لي خواطرك وما يمر بأيامك أثناء سفري.

قالت: ـ خواطري؟، تعني يومياتي؟.

قلت: ـ نعم، واكتبيها بيدك، ففي رسائل المحبين نفحاتٌ من أرواحهم.

قالت، متسائلة ومبتسمة: ـ ألا يكفي الهاتف؟.

قلت: ـ لا، وأنا سأرصد لك أحاديث نفسي ولحظات اشتياقي.

سكتت قليلاً ثم شفَّت فنجان قهوتها وقالت: ـ والله فكرة!.

شبكت يديها وسرحت لبعض الوقت قبل أن ترفع رأسها: ـ لكن هذا لا يعني أنك ستتأخر.

قلت: ـ بالتأكيد لن أتأخر، لا أطيق الصبر عن عينيك.

* * *

مؤلمةٌ لحظات الوداع كأنما هي انتزاع من الجذور، جلسنا في مقهى المطار، تحدثنا مطولاً وضحكنا بينما يطل الحزن والخوف من نظراتنا الوجلى ومن خلف ابتساماتنا، حزينان لأننا سنفترق للمرة الأولى وخائفان مما تخبئه الأيام، تحايلنا على مشاعرنا طويلاً كي لا نبكي، كانت تفرك أزرار معطفي بين أصبعيها وهي ترسم ابتسامة صفراء وتنظر إلى الفنجان حين قالت: ـ ستفقد باريس سحرها من بعدك. وتعاجلها دمعةٌ فتحاول التقاطها بطرف كمها، ثم تهمس كأنما تحدث نفسها: ـ ما بيدي حيلة.

مضت لحظة صمت قبل أن أضع يدي تحت ذقنها وأميل برأسي لأنظر في عينيها: ـ ابتسمي حبيبتي، فوالله ما أحب أن أكون في مكان آخر بعيدٍ عنك على هذه الأرض، وحده الموت قد يمنعني، أمّا ما سواه فيمكنني التغلب عليه، ابتسمي أرجوك، فإني أحب أن أتزود بابتساماتك قبل السفر.

تقاطرت دموعها وهي ساكتة تدير كوب القهوة.

قامت قبلي حين نادى لصعود الطائرة، وناولتني الحقيبة الملقاة على الكرسي وقالت: ـ هيّا حبيبي.

عانقتها لآخر مرة وشممت عبق عاتقها الذي أحببت، فلجسدها رائحةُ الياسمين عندما تنفعل.

همست في أذني: ـ عمار، لا تتأخر عني.

قلت، وأنا أقبل رأسها بين يديَّ: ـ ثقي بالله.

ظلت ممسكةً بيدي إلى آخر خطوة قبل الحاجز، ثم ودعتني بابتسامةٍ تخنقها العبرة وما تزال بقايا الدموع تبلل خديها: ـ أستودعك الذي لا تضيع عنده الودائع.

وقفت تنظر إليَّ أسحب نفسي نحو الطائرة والتفت حتى غابت بين الناس وانعطف الممر الذي بدا طويلاً وكاتماً.

ألقيت بنفسي على الكرسي من دون حراك، وما إن أقلعت الطائرة حتى غلبني البكاء فتخفيت وراء نظارتي السوداء واستسلمت لحالةٍ من السكون أشبه باللاوعي كأنما ألقي بي في بئر عميق، لم أكن قادراً على الحديث مع أحد ولا التأمل ولا النوم، لذا بقيت على حالتي حتى أخرجني منها إلحاح المضيفة وهي تصلح طاولة الطعام أمامي وتضع الأطباق على عجل، اعتدلت أتفحص الطعام وأنظر في وجوه الناس كأنما سألمحها في أي لحظة، تأملت من هم بجواري فإذا رجلٌ أفريقيٌ ضخم يلتهم وجبته من دون هوادة، وعلى الكرسي الآخر امرأة عربية مهملة الشعر قد ربطت حول عنقها سلسالاً يزينه لفظ الجلالة، ملابسها بسيطة ووجهها خالٍ من الزينة سوى آثار كحلٍ أفسدته الدموع.

استرقت إليها النظر بينما تنشغل باستكشاف طعامها وقلت في نفسي: ـ يبدو أن في قلب كلٍّ منّا همّاً يحمله وألماً يعانيه.

عدت إلى الإغفاء فلم يوقظني هذه المرة سوى نداء ربط الأحزمة استعداداً للهبوط.

عبرت عيون المحتشدين عند بوابة الوصول يراقبون سيل القادمين

فلم ألمح أحدا أعرفه، المكان مكتظٌّ بالناس رغم اتساعه، فمن ضاحكٍ ومن باكٍ ومن منادٍ ومن مجيب، تملأ ضوضاؤهم الصالة الفسيحة.

أصبح السفر ميسوراً بعدما كان حدثاً استثنائياً يؤرخ به لما بعده أو لما قبله زمن آبائنا.

مشيت بين المستقبلين أعلق إحدى حقائبي على متني وأجر الأخرى نحو البوابة الخارجية حتى فوجئت بصوت إبراهيم يناديني، تلفتُّ أبحث عنه فإذا به ينهض ضاحكاً من جهة المقهى يصحبه سلمان، أسرعت نحوهما أشير أنْ اجلسا، وكنت في حاجةٍ إلى كوب قهوة.

عانقتهما ووضعت حقائبي على الأرض إلى جانبي.

ذهب سلمان ليحضر القهوة فسألني إبراهيم ضاحكاً وهو يقلِّب كتاباً لسلمان تركه على الطاولة: ـ ما الذي أخرك عن زملائك وقد انتهيتم معاً؟.

قلت: ـ أبداً، لا شيء، أحببت أن أرتاح قليلاً بعد ضيقة الامتحانات.

قال سلمان مبتسماً، وهو يناولني القهوة: ـ لماذا لم يتأخروا معك؟.

قلت: ـ لم يحبوا الجلوس، كان معي بعض الأصدقاء من هناك.

لفحني الحر حين خرجنا من الصالة مع أن الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً ومع أننا في أواخر أكتوبر، ثم أراحني منظر النخيل المتراصف على طول طريق المطار، ثمة ارتباط بين أرواحنا وبين النخيل، تذكرت صبرا التي ما نسيتها ورحت أحدث نفسي: ـ ترى أين أنتِ الآن وماذا تفعلين، كم افتقدك؟.

قطعا سلسلة خيالي وراحا يسألان عن جو باريس وعن الدراسة

والفتيات، بدا أن إبراهيم يعرف شيئاً عن قصتي مع صبرا، أما سلمان فقد تحدثنا عنها في كل اتصال.

طلبت أن يمرا بي على منزل والدتي فهو أقرب إلى طريق المطار. فاجأتها، فاستقبلتني بالدموع كما هي عادتها، وجلست قربي تتأملني وتمسك بطرف خمارها تمسح عينيها، سألتني عن أحوالي وعن دراستي وتألمت لشحوب وجهي، لكني ضحكت وادعيت أنه إرهاق السفر لا أكثر، مدت يدها لتمسح على عنقي فتناولتها أقبلها فبكت من جديد وكدت أبكي معها، لم يكن بكاؤها لمجرد الاشتياق بل كانت تجد فيه عذراً لآلام قديمة مكتنزةٍ في قلبها، يشبه قلب أمي إناءاً ممتلئاً بالحزن يفيض لأي اهتزاز.

قامت إلى المطبخ فأحضرت الطعام وقطَّعت لي بيدها وحلفت عليَّ أن آكل، ثم راحت تتفقدني بعينين مرهقتين، استأذنت بعد قليل بحجة إبراهيم وسلمان اللذين ينتظران في مجلس الرجال، فقامت معي وعانقتني، قبلت رأسها وشممت رائحة خمارها التي افتقدت ثم خرجت من باب الحريم تتبعني بنظرها ودعواتها، لا قلب يشبه قلب أمي.

بقدر ما كنت مشتاقاً لوالدي بقدر ما كنت متهيباً لقاءه كعادتي، لا سيما هذه المرة، كأني مقبلٌ على استجواب أو تفتيش، أشعر أنه ينظر بداخلي فيرى أسراري ويعرف أخطائي وهفواتي، لا أدري كيف أصف هذا الشعور، لكن لست وحدي من يعيش هذه الحالة، فمعظم الشباب في مجتمعنا يحسبون كلماتهم وحركاتهم في حضور الآباء، الكثير منا لا يتمازحون ولا يضحكون في حضور آبائهم خصوصاً إن كان ثمة أغراب، وكلما كبر المجلس كلما أصبحت القوانين أكثر صرامة، لعب الورق ممنوع في تعاليم كبارنا، إذ قد يؤدي بك إلى القمار، والعلكة والمكسرات من عادات النساء، لا يجوز مد

الرجلين ولا الجلوس غير المعتدل في حضور من هو أكبر منك، أما الدخان فجريمةٌ ما لها من شفاعة، يحدث أحياناً أن يعنفك والدك أو يزجرك في أي مكان لسبب قد لا يستحق ولا يعيبك ذلك شيئاً في نظر المجتمع أما إذا شعرت بالحرج فما عليك سوى التعود، لعل هذا ما أوجد شيئاً من الجفوة بين جيل الآباء وجيل الأبناء.

يجب أن تذهب إلى حيث والديك، حين تعود من السفر، فتجلس معهما، وإن صادفت وقت الطعام فالأفضل أن تشارك وتذهب من ثم إلى بيتك وعائلتك الصغيرة.

وجدنا في مجلسه بعض أصدقائه كما توقعنا، ما إن دخلت حتى قام متوكئاً على العصا، ولا يقوم الوالد لأبنائه إلا في حالات خاصة كأن يعودوا من سفر بعيد، رحب بي وأنا أقبل رأسه ويده وأجلسني قريباً منه ثم عرض العصا أمامه على الأرض وراح يسألني عن الدراسة وإن كنت قد حصلت على درجات جيدة، وعن فرنسا ومعاملة أهلها.

وزعت آنية الرطب الجديد أمام الحاضرين، وأدار عبد الرحيم «خادم والدي» القهوة لأكثر من مرة بينما تستمر الأحاديث حول موسم التمور وأمراض النخيل ونحن ننتظر أن يسمح لنا، فليس من اللائق أن تبادر إلى الاستئذان قبل أن يعرض عليك، وفعلاً لم يلبث أن وضع يده على كتفي وقال ضاحكاً: ـ مشتاق لأولادك؟ تريد أن تذهب إلى البيت؟.

يضحك الحاضرون، ويعلق أحدهم: ـ أكيد، بعد ثمانية أشهر، عريس، عريس!.

قال العم أبو صالح: ـ دعه يذهب وإلا سيعاقب على التأخير. ويضحك الجميع.

قال الوالد، وما تزال يده الدافئة على كتفي: ـ الله معكم، لا بد أن أولادك في انتظارك.

قبلت رأسه وهو جالس بينما يسبقني صاحباي إلى الباب.

استقبلتني نهلة المتأنقة عند باب الشقة فقبلتها وعانقتها طويلاً، ثم جثوت أحتضن سلطان وعمر اللذين اشتقت لهما وافتقدتهما كأنما لزمن طويل، جلست على الأرض يلعب الطفلان في حجري وعلى كتفيَّ حتى جاءت تحمل الصحن الكبير يحوي أطباقاً من الأكل الخليجي الذي أحب، فتحت لهما علب الهدايا ولعبت معهما حتى عادت فلفحتني رائحة البخور والحناء حين جلست قربي وداعب العطر الليلي الناعم حواسي.

قضينا النهار التالي في منزلنا الصغير لم نغادره إلا وقت المساء لحضور الوليمة التي أقامها والدي بمناسبة رجوعي من السفر.

من العادة أن يجتمع الأبناء باكراً لتفقد المكان واستقبال المدعوين، الأنوار الخارجية مضاءة على امتداد السور والباب الكبير مفتوحٌ على مصراعيه، هذه علامة الوليمة.

توجهت نهلة مع الأولاد إلى مدخل الحريم وتوقفت أنا عند الباب الكبير لأسلم على سعود، أخ زوجتي، الذي كان يتفقد المكان مع أخي إبراهيم، لفت انتباهي برود مقابلته وشحوب وجهه وجحوظ عينيه، شككت بسلامة ذاكرتي ورحت استعرض الماضي بحثاً عن هفوة أو موقف أغضبه مني لكني لم أجد، قلت في نفسي: ـ قد يكون مريضاً أو مهموماً. ثم انتبهت على صوت والدي يوجه الخدم وهم يمدون المفارش على كراسي الخشب البيضاء الطويلة ويضعون المساند مما يلي ظهور الجالسين.

تُصفُّ الكراسي متقابلةً على شكل مربع يتسع لما يقارب خمسين رجلاً، وفي طرفه، مما يلي الباب الكبير، فراغ يسمح بتعاقب

شخصين، وآخر من الجهة المقابلة لدخول القهوة والشاي.

يقع فناء الرجال في الجهة الشرقية من البيت وقد زين بخمس سكريات «نوع من النخل» إلى جهة السور، وتركت المساحة الباقية للمناسبات ولمتعة النظر. أما الجهة الأخرى فمجلس الرجال الكبير وإلى جانبه صالون للطعام بطول المجلس، له بابان أحدهما إلى البهو وآخر إلى قسم الحريم يسمح بإدخال الطعام، وبين المجلس وصالون الطعام يقع البهو المزين بالرخام الأبيض والممتد إلى دورات المياه، أما المجلس العربي بواجهته الزجاجية فيقابل النخيل وقد فرش بالسجاد العجمي والسدو «نوع من المفارش المصنوعة يدوياً في منطقة الخليج»، وعلقت على جدرانه السيوف والفوانيس وقرب الماء وربابة قديمة مع قوسها والعديد من رموز التراث، يتوسطه موقد النار «الوجار» الذي اسطفت على جانبيه الكثير من «الدلال»، الآنية التي تدار بها القهوة العربية، وأباريق الشاي ولوازم صنع القهوة، وإلى جانب هذا المجلس دورة مياه صغيرة وغرفتان للضيوف من أقاربنا أو معارفنا القادمين من القرية، أما غرف الخدم والسائق ففي الجهة الأخرى مما يلي الباب الكبير يتجه بابها وتطل نوافذها إلى الخارج.

يفضل والدي وأصحابه المجلس العربي، يلتقون فيه بعد صلاة الفجر وبعد المغرب إلى العاشرة أو أكثر قليلاً، يتحدثون عن هموم أيامهم وشؤون أسرهم وأبنائهم، يجترون أحاديث الماضي ويستعيدون ذكريات الفقر والكفاح.

حركةٌ دائبة ونار مشتعلة وقهوة جاهزة على الدوام، بيت كبير لا تشعر فيه بالملل، يستكمل الشباب من أصحابنا حضورهم بعد العاشرة، عندما يذهب كبار السن فيستخرجون الورق من خلف ظهور المساند وتبدأ منازلات «البلوت»، لعبة الورق المفضلة في بلاد الخليج والتي لا تنتهي عادةً قبل الواحدة أو الثانية صباحاً، وينام

الجميع في أيام العطلات إلى أن يرسل إليهم الوالد من يوقظهم عند أذان الظهر، وعلى من يتأخر عن الصلاة أن يتوقع التوبيخ.

بدأ المدعوون بالتوافد ووقف أبناء العائلة يرحبون بالداخلين، يصافحونهم ويمشي أحدهم مع الزائر حتى يوصله إلى وسط المجلس فيقوم عندها الوالد مرحباً بالضيف باسمه أو بكنيته، والأفضل عندنا أن يقال أبا فلان، يصافحه أو يعانقه ويشير إلى مكان جلوسه.

يتصدر كبار السن والزوار من المناطق الأخرى والوجهاء المجلس، يستدير عليهم بالقهوة عبد الرحيم، خادم والدي القديم والعارف بأصول تقديمها وتوجيب الناس، يتبعه أحد الخدم بصينية الفناجين، ما إن تذهب دلة قهوة حتى تأتي أخرى بعضها بالقرنفل وبعضها بالزعفران، ثم تدخل صواني الشاي الذي تباينت ألوانه بين الأحمر المألوف وشاي الزهورات والشاي الصيني والشاي الذي لم يضف إليه السكر والذي صار معتاداً في سنوات الرخاء الأخيرة.

أما الأحاديث فعادةً ما تكون عامة لا تخرج عن إطار المجاملات أوالقضايا الاجتماعية الواضحة، ويكثر الحديث عن الطقس والأمطار في مثل وقتنا هذا عندما يترقب الناس دخول الوسم «موسم سقوط الأمطار».

وأما في صالون الطعام فحكايةٌ أخرى يشرف عليها إبراهيم ووالدته المشهود لها في تحضير الولائم، تساعدها أخواتي نورة وزينب والخادمتان الأندونيسيتان، يرتب إبراهيم الصحون الستة الكبار على طول الصالون في سفرةٍ واحدة، على كل صحن نصف ذبيحة مع الأرز الهندي المتبل بالبهارات ويستدير حولها أطباقٌ من الحلوى والفاكهة والسلطات وكؤوس اللبن والماء ولذيذ العصائر.

بعد مرور حوالي ساعتين من خروج المصلين من صلاة العشاء، ينحني إبراهيم هامسا: ـ العشاء جاهز يا والدي.

يقوم الوالد متوكئاً على عصاه ومتوجهاً إلى كبار السن، إذ لا ضيف رسمي هذه الليلة: ـ تفضلوا إلى العشاء. ويكررها ليقوم القوم شبه متثاقلين يقدم كل واحدٍ من يليه كنوع من المجاملة، ثم يقف في منتصف الصالون مكرراً عبارات الترحيب، ويتحلق الناس حول السفرة يجلسون الأكبر فالأكبر لا يمدون أيديهم حتى يعلن صاحب الوليمة: ـ سمّوا باسم الله على عشائكم، حياكم الله، هذه الفرحة بمناسبة رجوع ابننا عمار.

يعلق أحد كبار السن: ـ لو أحضر معه فرنسية!؟ «يعني زوجة».

فيضحك الحضور بينما يكرر الوالد عبارات الترحيب ويعقب ضاحكاً: ـ لا يستطيع، تخنقه بنت أبي سعود!.

رفضت الجلوس إلى السفرة قبل أن يجلس والدي الذي ألح عليه بعض الحضور لكنه رفض حتى حلف عليه أحدهم، وهذا متعارف عليه على موائد أهل الخليج.

وقف أبناء العائلة للخدمة بينما انشغل عبد الرحيم ومساعدوه في تحضير الشاي الجديد والقهوة لما بعد العشاء.

جرت العادة أن يقوم الضيف أولاً لكن أحد كبار السن قام معلناً بصوته الجهوري « الله يبارك لهم»، فلا ضيف يتوجب انتظاره الليلة.

توالت الأسئلة بعد العشاء عن فرنسا، عن الجو والأسعار ومعاملة الفرنسيين للسياح، ثم تقدم أحد الحاضرين بدعوة للعشاء: ـ يا أبا إبراهيم، يشرفنا أن تقبلوا دعوتنا للعشاء بمناسبة عودة عمار من السفر. يعتذر والدي، فيصر الرجل ويتدخل أحد الجيران طالباً إعطاءه فرصة القيام بالواجب على اعتبار أن الجار أولى، لكن أبي يشكرهم ويعتذر للجميع عن عدم قبول الدعوات.

يدار الشاي والقهوة بعد العشاء، ثم يأتي عبد الرحيم حاملاً المبخر المليء بجمر الأرطى، فيتناول الوالد قطع العود الكبيرة من

جيبه ويضعها لتفوح الرائحة الزكية فتعطر الفناء، يديره عبد الرحيم على الجالسين مرتين ابتداءاً من الرجل المسنِّ الذي يلي والدي ثم ينسحب تاركاً غيمةً من الدخان الأبيض المنعش، يبدأ الناس بعد دورة البخور بالاستئذان فرادى ومجموعات معلنين في كل مرة: ـ نستأذن يا أبا إبراهيم، أكرمكم الله. فينهض معتمداً على العصا أو المسند: ـ حياكم الله، شرفتمونا. ويرافق أحد الشباب الضيف المغادر إلى الباب الكبير أو حتى إلى باب سيارته إن كان من الوجهاء أو من كبار السن.

خف الزحام أخيراً واقتصر الحضورعلى الأقارب يتقدمهم أبوسعود، والد زوجتي وابن عم وصديق والدي، الرجل المسن صاحب المتناقضات والذي يدلل بناته ويحميهن على طريقته بالحبس والتضييق ورفض المتقدمين لخطبتهن من الشباب مستوري الأحوال، ثم يتزوج من فتاةٍ بعمرأصغرهن لم تقبل به لولا حاجة أهلها لماله وجاهه، دفع الكثير من النقود مهراً ليعوض به فارق السن، وتوسط لتوظيف أخويها العاطلين عن العمل.

تَدَيُّنُه منصبٌّ على الشكليات، من تقصير الثوب وإعفاء اللحية التي خضبها بالسواد بعد زواجه الأخير، ثمة من يقول إنه يحتال على قيود الدين عندما يتعلق الأمر بالمال، كان موظفاً محدود الموارد إلى أن تولى قسم المشتريات في إحدى الإدارات فأثرى في مدةٍ وجيزة، واشترى العقارات والمزارع وصار يلبس العباءة ويزور المسؤولين.

أتذكر أن بعض الأصحاب جمعوا مدخراتهم واستأجروا منه مكاناً ليفتتحوا معرضاً لبيع الأثاث، لكنهم اختلفوا وانفضت شركتهم قبل أن تبدأ، فعادوا إليه طالبين الإقالة من عقد الإيجار الذي لم يمض من مدته سوى أسبوعين أو ثلاث، أصر على قبض كامل المبلغ لسنتي العقد، لم يساعدهم ولم يقدِّر ظروفهم، ثم أجر المكان

لآخرين بعد أشهر، ولم يكن ذلك من المروءة ولا من الورع الذي يتحدث عنه، يبيع تأشيرات العمل للعمال الأجانب أو يتنازل عن كفالتهم لقاء مبالغ كبيرة، ويفرض الأتاوات على من يبقى منهم تحت سلطته.

يعرف الجميع طريقته في كسب المال وتحايله على النظام وعلى حدود الدين، لكن أحداً لا يجرؤ على مواجهته خوفاً من لسانه السليط، يكثر الحديث عن الفضائل كأنما يدافع عمّا يخشى أن يراه الناس من عيبه، فيصب جامَّ غضبه على من أطال ثوبه أو حلق لحيته مشبهاً إياهم بالنساء أو بالكفار، أما المدخنون وسامعو الغناء فلا أمل يرجى منهم في عرف أبي سعود.

لم يكن منطقه ليقنع أحداً، بل لم يكن مرحباً به أو حتى مقبولاً في قلوب الناس، لكن مجتمعنا جبل على تبجيل من يتحدث باسم الدين والتسامح معه، ما عليه سوى أن يتقيد ببعض الشكليات ويتصيد الهفوات ويرفع صوته مهاجماً الآخرين فتكون له الكلمة والمكانة.

أقوامٌ يلتحفون بعباءة الدين ويتفيَّؤون ظلاله يسيؤون إليه أكثر من أعدائه المتربصين به.

أشعر أحياناً بالشفقة عليه لما يعيشه من تناقض، فلن يصل الإنسان إلى سلامه الداخلي ولن يعرف طعم السعادة ما لم يكن في حضور الأعين مثلما هو في غيابها، وما لم يكن مرتاحاً في أعماقه إلى صدق ما يقول وما يفعل، مساكين من يبحثون عن السعادة في سراب المال أو الجاه.

رفعت صوتي منادياً عند باب الحريم لتستتر النساء، فاستقبلتني أختاي نورة وزينب، سلمت على أم إبراهيم وكانت جالسةً على الأرض، قبلت رأسها، كما هي العادة وشكرتها على المائدة

المميزة، وشربت معها الشاي بينما تجمع نهلة أغراضها المتناثرة.

ربتني أم إبراهيم بعد طلاق أمي، لم تكن لئيمة معي حين كنت صغيراً رغم عصبيتها وحدة مزاجها، ورغم ما تدسه لأولادها من زيادة في المصروف، كان والدي، وما زال، يحبها ولا يطيق بعدها رغم ما اعترى حياتهما من نزاع ومشاحناتٍ في السنوات الأولى، تذهب غاضبةً إلى بيت أهلها فيبيت ساهراً مهموماً، وعندما نستيقظ في الصباح نجده قد استرضاها وأعادها إلى البيت ليعيشا فترة جديدة من الوفاق، أما الفتاتان فمدللتان مصونتان على طريقة والدي، لا خروج من المنزل إلا في حال الضرورة، الزيارات محدودةٌ مقننة، والذهاب إلى الأسواق حدث هام يُخطط له ويتحدث عنه لأيام، يذهبن مع العائلة للتنزه على الشاطئ البعيد أو إلى المخيم في الصحراء أو القرية في الأعياد، أما سوى ذلك فلا خروج إلّا إلى المدرسة متنفسهن الوحيد ومكان تواصلهن مع الصديقات والزميلات، يتضايقن أيام العطل حين يمسين رهائن المنزل يتنقلن بين المكتبة والتلفزيون، ربما كان هذا سبب ثقافتهن وتفوقهن الدراسي، فلا مكان يذهبن إليه ولا شيء يفعلنه سوى متابعة التلفزيون والمطالعة والقليل من أعمال المطبخ بين الحين والآخر.

لم تعد البنات يقمن بأعباء المنزل أو يعتنين بأطفال العائلة كما كنا نسمع، غيرت ثقافة الخدم نمط حياتنا وأسلوب عيشنا، تطلب إحداهن الطعام فيؤتى به إليها أمام التلفزيون ثم تصيح بالخادمة لترفعه وعيناها مسمرتان على الشاشة لا تكلف نفسها عناء الالتفات، ليس في منزلنا فحسب، بل هذا حال معظم البيوت الخليجية.

* * *

لم أكن قد اشتريت الهاتف النقال حديث الانتشار آنذاك وكنت مشتاقاً لسماع صوتها، فأخبرت زوجتي أنني أنتظر أحد الأصدقاء،

تلك أفضل حيلة كي لا تقترب هي ولا الأطفال من المجلس، لكن ما إن دخلت أتفقد المكان والهاتف حتى صاحت بي: ـ عمار، أين سلطان؟.

وكان حصتي أحمله كلما عدنا متأخرين من الزيارة، نزلت فوجدته ما يزال نائماً في السيارة، يبدو أني كنت متوتراً.

ردت سريعاً، كأنما تنتظر قرب الهاتف، وجاء صوتها ندياً كما أحببته لم تغيره المسافات.

قلت: ـ ألو صبرا، كيف أنت؟.

تضحك: ـ بخير حبيبي، وأنت؟ أرجو أن تكون قد وجدت العائلة بصحة وعافية.

قلت: ـ وكيف هو العم عدوان؟.

سكتت قليلاً ثم قالت: ـ بخير، يشتكي قليلاً لكنه بخير.

قلت: ـ اشتقت إليك صبرا، يا إلهي!. كم أنت بعيدة.

أجابت بعد تنهد: ـ أه حبيبي، لا تثر شجوني، دعني استمتع بلحظات مكالمتك.

تحدثنا مطولاً وضحكنا لكن نبرتنا تغيرت عندما أردنا أن ننهي المكالمة، قلت: ـ صبرا، هل كل شيء على ما يرام؟.

قالت، كأنما يفيض الصوت من قلبها: ـ فقط لا تتأخر عني.

قلت: ـ تخرجين من المنزل؟.

قالت: ـ قليلاً لبعض حاجيات البيت، لم تعد لي رغبة في الخروج.

قلت: ـ صبرا، أفكر فيك دائماً.

قالت: ـ فكيف أقول وأنا الوحيدة في هذه الغربة التي تدمر القلب. وسكتت كأنما تعاتبني كيف تركتها وسافرت.

أغلقت السماعة وتمددت على الأريكة مستغرقاً في أحلام لقائها ومفكراً في كل ما يحول دونها، أعرف أني سأصلها، فلا شيء يمكنه أن يقف بيني وبين المرأة التي يهفو إليها قلبي.

عرفت الحب يوم عرفت صبرا، حاولت جاهداً أن أحب زوجتي في أيامنا الأولى لكننا ما لبثنا بعد الزواج بأشهر أن ذهبنا في اتجاهين متضادين، في أقل الأمور كما في أكبرها، ولم نكد نلتقي على شيء، لم نتزوج عن حب أو حتى عن معرفة، صحيح أننا أقارب لكن معرفتنا انقطعت يوم تحجبت نهلة في الثانية أو الثالثة عشرة فلم أعد أتذكر ملامحها حين جئنا لخطبتها، كان زواجاً تقليدياً كالذي يحدث في بلاد الخليج كل يوم، أدخلوها عليَّ بحضور أمها وأحد إخوتها في مجلسٍ النساء تحمل أقداح العصير، لم أستطع النظر إلا اختلاساً، ولم أعرف من ميولها وطباعها سوى ما حدثتني به أخواتي «بنت جميلة متدينة ومن أقاربنا، نعرف أمها وعائلتها».

يبني الشاب مستقبله ويرتبط بشريكة حياته التي سيمضي عمره بصحبتها ويعيش معها السراء والضراء، بناءاً على انطباعات وأذواق ذويه، وليست الفتاة أفضل حظاً حين يختارأهلها أحد المتقدمين، وقد لا ترى زوج حياتها إلا ليلة الزفاف!.

مضت شهور زواجنا الأولى يشعلها الشغف الجسدي وتغلفها المجاملة والمداراة من دون أن نكتشف أو نعرف بعضنا حقاً، تجاهلنا بعد ذلك خلافاتنا واختلافاتنا التي صارت تنمو وتبعدنا عن بعضنا حتى أصبح لكلٍ منا عالمه الخاص، طبع الغضب معيشتنا حتى حال دون رؤية الأشياء الجميلة في حياتنا، قلما استمتعنا باللعب مع طفلينا أو السهر على التلفزيون في جوٍ عائلي كما يفعل الأزواج، لم يبق من عرى زواجنا سوى مستقبل سلطان وعمر والخوف من مواجهة أهلنا.

تردد نهلة أني لا أوفر لها الحب ولا العاطفة الزوجية التي تتعطش لها المرأة وأني كثير الغياب عن المنزل ولا مبالي، وربما نعتتني بالضعيف أو الأناني في ثورات غضبها، أما أنا فقد حاولت أن أبني أسرة صالحةً متماسكةً فاصطدمت بسطحية تفكيرها ورخص أحلامها، تهتم كثيراً بالمظاهر والشكليات، تديم النظر إلى ما في أيدي الناس لدرجة أننا قد نمضي طريق عودتنا من عشاءٍ أو حفلة عرس بالجدال حين تتحدث عن مجوهرات فلانة أو ملابس فلانة فأشعر بالنقص والغضب وأدافع عن مواردي المحدودة، كثيراً ما تطور الجدال إلى شجار وخصام، كانت دائمة التذمر، لم تمدحني بكلمة ذات معنى منذ ولادة سلطان، ثم فقدنا ما تبقى من بهجتنا بعد الطفل الآخر وطبع الجفاء علاقتنا حتى تعودناه.

صار بيتنا أكثر هدوءاً حين تعلمنا كيف نتوقف عند حدود بعضنا، وتخلينا إلى حدٍ ما عن نظرية الغالب والمغلوب التي عشناها لثلاث سنين، قليلاً ما دخلت نهلة المطبخ خلال السنتين الأخيرتين، كنا نكتفي بالوجبات المعلبة أو بالطلب من المطاعم القريبة، نتقابل كل بضعة أيام، نجامل بعضنا ونلهو بينما يعلم كلانا أنها الرغبة الجسدية وآلية الزواج ثم يمضي كلٌّ منا إلى فراشه.

لم تُبذر الألفة بيننا منذ أول ليلة، فقدت بذلك الزواج الحلم الذي تمنيت، صحيحٌ أني أخرج كثيراً لكن هذا حال معظم الشباب من أمثالي، يعود أحدنا من العمل فينام إلى المغرب ثم يخرج إلى بيت والديه ومن هناك إلى مجتمعات الأصحاب، أما المشاعر فيصعب تصنُّعها خصوصاً حين لا يبدي الطرف الآخر اهتماماً معقولاً.

لا أدري أينا المخطئ، ربما كلانا وربما ظرف قرابتنا الذي رمى بأحدنا على الآخر، المهم أن جداراً من الجفاء علا بيننا حتى فقدنا العاطفة الحقيقية ولم يبق سوى أثرٌ قديم يحاول كلانا ألا يندثر.

«إذا لم تكن سعيداً في بيتك فلن تكون سعيداً في مكان آخر».

* * *

يومي الأول في العمل مبهجٌ كيوم عيد، السلام على الزملاء والفرحة بلقائهم، قهوةٌ وشاي هنا ومقبلات ومشروبات في مكتبٍ آخر، زملاء نقتحم مكاتبهم فيعلو الضحك والترحيب، وآخرون يتقاطرون من الأقسام البعيدة أو يمرون على عجل في طريقهم إلى الإدارة العليا. مديريتنا أشبه ببيت للشباب تطبعه البهجة ويسوده المرح، كل شيء عندنا بخير سوى الإنتاج!.

من ينتقد قراءة الجرائد أو زيارة المكاتب الأخرى أو يحاول منع التأخير الصباحي أو لوم من يتسربون قبل نهاية يوم العمل هو معقد غبي سرعان ما يُنفى من مجتمع الزملاء وتوصد في وجهه الأبواب، ليس بمقدور الوافد الجديد، سواءاً كان مديراً مسؤولاً أو موظفاً عادياً، سوى مجاراة التيار ومواكبة المجموعة.

كان أبو عبد الله، مديرنا الطيب، يعيش نزاعاً بين واجبه في تقديم عمل جيد ومتكامل وبين رغبته في مسايرة الشباب وكسب مودتهم وثنائهم، وبالتالي ثناء العائلات والقبائل التي ينتمون إليها، وهذا مطلب هام للرجل في ثقافتنا، أما واجبات الوظيفة فيكفي أن تنجز منها الحد الأدنى ولاخوف عليك بعد ذلك، خصوصاً إن كانت لك علاقات جيدة مع رؤسائك، مرتباتنا الشهرية أشبه بالضمان الاجتماعي المفروض على المصلحة، ووظائفنا حق مكتسبٌ لا جدال فيه!.

تنقلت بين المكاتب ثم زرت أبا عبد الله بعدما أنهى اجتماعاته الصباحية، فسألني عما استفدت من بعثتي وبأي طريقة يمكنني أن أفيد العمل، شرحت له ما تعلمت من الدورة لكنه ما لبث أن قاطعني: ـ حسناً، حسناً، بارك الله فيك، المهم أنك تدربت وسوف

تفيد العمل بالتأكيد. كانت تلك طريقته في إنهاء الحديث ربما في انتظار ضيف أو مكالمة مهمة أو لأنه لم يفهم شيئاً مما قلت!.

ما الذي يمكنني أن أفعله لأفيد قطاعاً مترهلاً يحتاج إلى إعادة بناء على أسس جديدة تعتمد معايير الإنجاز والجودة، جاء أغلب موظفي البريد بالواسطة، ويعتقد الكثيرون من زملائنا أنه يخدم العمالة الوافدة والإدارات الحكومية غير المتعجلة في إيصال رسائلها ومعاملاتها، أما المواطنون فقلما يكتبون الرسائل لا سيما في زمن الهواتف النقالة والإنترنت الذي سينهي عصر الرسائل، مثلما أنهت البرقية عصر الحمام الزاجل، ومثلما أنهت السيارة عصر الحصان وأحالته إلى التقاعد، ولا ندري ما الذي سيأتي به القادمون من الشرق بقوة، ذوو الوجوه الصفراء والأيدي السحرية الذين يراهنون على إزالة الملامح الغربية عن وجه الحضارة وطبع أثرهم على كل منتج يستنسخونه، قد يوفرون لك صورة وصوت من تحب على الهواء، ومن يدري فقد تجد عطره وتحس ملمسه كما عرفتهما!.

لا تكذِّب شيئاً ولا تستبعده في عصر التكنولوجيا الحديثة، فكل شيء ممكن!.

ما درسناه في فرنسا هو نظام آلي متكامل لفرز الرسائل وتبويبها حسب اتجاهاتها وعناوين وصولها، وسوف تصل المعدات وأجهزة الكمبيوتر التي تدربنا عليها خلال فترة وجيزة إن تماشى الواقع مع التخطيط، لكن زملاءنا في المصلحة لن يتقبلوا الأمر بسهولة، فقد تعودوا الفرز اليدوي على الطاولة الكبيرة المكونة من عدة طاولات متراصفة كل صباح، يتناولون الشاي والمرطبات ويتجادلون حول كرة القدم وأحداث الدوري، وكثيراً ما اشتد الجدل فتطايرت الرسائل وتاهت عن وجهاتها!.

تكمن معضلتنا في ثقافتنا وفي طريقة نظرنا للحياة وتفسيرنا

للأحداث، الوظيفة في البلاد المتحضرة انتماء وإنجاز يثاب من أجاد فيها ويعاقب من قصَّر، الترقية والعلاوات منوطةٌ بسجل الإنتاج وليس بكتاب التوصية، النقابات والاتحادات تعمق الانتماء وتزيد من معرفة الفرد بمهنته ووعيه بواجباته وحقوقه.

كيف يعمل ساعي البريد في مدن لا أسماء لشوارعها ولا أرقام لمنازلها، تكبر أحياؤها العشوائية وتمتد كل يوم.

أعطتني صبرا، حين طلبت عنوان مراسلتها، أربع كلمات في ثلاثة أسطر، أسمها ثم رقم البيت واسم الشارع، وكتبت في السطر الأخير، باريس، فرنسا.

قلت: ـ فقط، وتصل الرسالة؟.

قالت: ـ جرب!.

كنت أقضي الكثير من وقت العمل مع ناجي وراشد نستذكر أيام رحلتنا، يسألانني عن صبرا وعن الأسبوع الذي تأخرته معها، ماذا فعلنا وأين ذهبنا، وأسألهما عن شيخة ولطيفة وعما جدَّ بعد وصولهم من المقابلات والاتصالات، وكنا نغيِّر اتجاه الحديث كلما اقتحم علينا أحد الزملاء.

* * *

يصبح الجو لطيفاً في أواخر أكتوبر، ويميل الناس إلى السهر في الأفنية والأماكن المكشوفة وفي الاستراحات العامة والخاصة كالتي نجتمع فيها مع الأصدقاء والأقارب من الشباب، الذين تجمعهم اهتمامات مشتركة، وهي عبارة عن حديقة مسورة تضم مجلساً كبيراً للحفلات وآخر عربي تقليدي، حيث يحلو لنا السهر ولعب الورق، وصالة تحوي طاولة التنس وطاولة البلياردو ومجلساً مكشوفاً قرب المسبح ومكاناً للشواء بالإضافة إلى الملحقات.

انتشرت ثقافة الاستراحات بعد غزو الكويت كنوادي خاصة

للعائلات الكبيرة والأقارب ومجموعات الأصدقاء، ثم توسع مفهومها وتقبلها المجتمع لتفيد من يودون التنحي عن عيون السلطة أو المجتمع من ذوي الميول المشتركة، بعضها معاقل لشيوخ المطرِّفين يلقنون مريديهم كراهية الناس وتكفير الحكومات واستعمال السلاح، ويغسلون عقول وقلوب من تصطاده حبائلهم من الناشئة، وبعضها حلق للذكر ومجتمعات للصالحين والزهاد، وأخرى للتجار ورجال الاعمال الباحثين عن الخلوة والهدوء، هكذا حتى تصل إلى الطرف الآخر من الطيف فتجد ما هو مواخير للفساد وأوكار للمخدرات والقمار، وتأتي استراحتنا وسطاً مثل أكثر الاستراحات بين هذه وتلك، مشروباتنا لا تتعدى الشاي بأنواعه والقهوة، وتسليتنا لعب الورق والبليياردو والمقالب والضحك.

لا تخلو جلساتنا من أحاديث المثقفين الضاربة في كل اتجاه، فمن كرة القدم إلى الطب والعلوم، ومن الدين إلى السياسة ومستجدات القضايا العربية، خصوصاً بعد حرب الخليج وحصار العراق وظهور المتشددين المناوئين للغرب.

كان بعض الشباب يلعبون البلوت ويتابع آخرون الأخبار بينما يتحدث الباقون في ترتيبات الخروج إلى البر نهاية الاسبوع، يطيب للناس التخييم في الصحراء لتصيُّد الطيور المهاجرة التي تعبر الجزيرة العربية في مثل هذا الوقت من كل عام.

علق أحد الشباب على الأخبار، وكانت عن الأعمال الإرهابية المطالبة برحيل القوات الغربية من جزيرة العرب: ـ ما جاءنا هؤلاء الأمريكان إلا بالشر، متى يرحلون ويتركونا بسلام!؟.

قال ناجي: ـ ما أتوا من تلقاء أنفسهم، نحن استدعيناهم عندما غدر بنا إخوتنا، ولو لم يأتوا لربما لحقنا جميعاً بالكويت، هل تعتقد أن العرب كانوا قادرين أو راغبين حقاً في حماية أهل الخليج!؟.

قال الشاب: ـ أتوا لمصلحتهم، يريدون حجةً لوضع اليد على البترول، صدقوني.

قال ناجي، وقد اعتدل جالساً وعلت نبرته بما يشبه التهكم: ـ بالله عليك، هل تصدق أنت نفسك ما تقول؟، يا سيدي لدى هؤلاء القوم مبادئ جيدة قامت عليها حضارتهم، لو كان مقصدهم البترول لاحتلوا منابعه جهاراً، هؤلاء حلفاؤنا وشركاؤنا منذ ستين سنة، لم يسيؤوا لنا ولم يجبروا أحدا على تغيير دينه أو معتقده، كنا لا نزال رعاة إبل فقراء أميين حين جاءوا فاستخرجوا النفط وصنعوه ثم اشتروه، ولو ترك الأمر لمعرفتنا لبقي في آباره، استضافونا في جامعاتهم ومعاهدهم، علمونا وعاملونا بعدل ومساواة وصدَّروا لنا أدوات المعرفة..

هنا قاطعة شابٌ آخر: ـ لم يفعلوا ذلك مجاناً، كانوا يقبضون مضاعفاً ثمن كل ما يصدرون..

قاطعته: ـ لا أحد يعمل ويعطي بلا مقابل سوى الوالدين، بصراحة أراهم مؤدبين ومنصفين، مئات الآلاف من الجنود جاءوا خلال حرب الخليج فلم نسمع أنهم أساءوا أو اغتصبوا أو حتى خالفوا النظام، اللَّهم إلا في حالات فردية قليلة، ثم عادوا إلى بلادهم حين أنجزوا مهمتهم، ما الذي كان يمنعهم لو أرادوا احتلال آبار النفط كما تزعمون.

قال ناجي: ـ لو كانت قوتهم لجيشٍ من أصحاب الشعارات البراقة إياها، ما الذي كان سيحل بنا!؟.

قال الشاب الأول: ـ إنها مؤامرة بينهم وبين صدام لابتزاز دول الخليج.

قال ناجي ضاحكاً: ـ مؤامرة.. مؤامرة، لو اختلف رجلٌ مع زوجته لقلتم مؤامرة، ليست هناك مؤامرات بالشكل الذي تتخيلون،

كل ما في الأمر أننا لا نحسن إدارة أمورنا فيستفيد الآخرون من أخطائنا وخلافاتنا، وهذا من حقهم.

قال شاب ملتحي: ـ ماذا تسمون إخراجهم للفلسطينيين من بلادهم وقتلهم وتشريدهم وتوريث بيوتهم وحقولهم لشعب آخر، استناداً لنصوصٍ دينيةٍ وردت في كتبهم المقدسة قبل آلاف السنين.

قال الأول: ـ ليست حربهم هذه سوى امتداد للحروب الصليبية، لا أراها سوى حرب دينية بامتياز وإن لبست ثوب المصالح الاقتصادية وادَّعت الدفاع عن السلم العالمي.

قال راشد: ـ صحيح، لقد عاملوا الفلسطينيين مثل معاملة الهنود الحمر وسكان أستراليا الأصليين، أبادوهم واحتلوا أرضهم وطمسوا معالم حضارتهم وتاريخهم.

قال ناجي: ـ لم نقل أنها حضارة بلا أخطاء، أو أنهم أولياء وقديسون، إنما نقول إن مثل هذه الحضارة العظيمة لا تقوم إلا على مبادئ صحيحة وقويمة وإن شابها ما يشوب الأخلاق الإنسانية، ما فعلوه في فلسطين هو خطؤهم الكبير الذي سيفجر العالم ذات يوم، لكن اليهود يملكون المال والإعلام في أمريكا، وهي أهم أدوات التأثير في صنع القرارات في تلك البلاد.

قاطعه الشاب الملتحي: ـ إذاً، هم يعملون لمصلحة إسرائيل!؟.

قلت: ـ سيكشف التاريخ أن بعض العرب ساهم في قيام إسرائيل وفي تشريد الفلسطينيين أكثر مما ساهمت أمريكا أو بريطانيا، ولكن يا شباب ما رأيكم لو فعل العرب مثلما فعلت الصين حين استُعمرت أجزاءٌ منها وقطعت أجزاءٌ أخرى وفصلت عنها، فلم تدخل حرباً مع أمريكا حول تايوان، ولا مع بريطانيا والبرتغال حول هونج كونج وماكاو بل انكفأت على نفسها وأطلقت ثورتها الثقافية والتنموية وثابرت على التعليم والتطوير، ولم تنجرف رغم قوتها وإمكاناتها إلى

النزاعات الجانبية التي لا تضمن نتائجها حتى صار اقتصادها اليوم أحد أقوى الاقتصادات وأكثرها نمواً وجذباً للاستثمار، وها هي بريطانيا والبرتغال تعيدان ما اقتطعتاه من دون حرب، وسوف تتخلى أمريكا عن تايوان عاجلاً أو آجلاً، كل ذلك لما يتطلعون إليه من شراكتها الاقتصادية الواعدة ولما يهابون من قوتها الحقيقية.

قال ناجي: ـ هذا صحيح، أشعل العرب حروباً لم يحسنوا تخطيطها ولا الاستعداد لها، دخلوها بدافع الحماسة والنخوة العربية فكان نصيبهم منها الهزائم المريعة، كانوا يخافون من بعضهم في خواصرهم أكثر من العدو في نحورهم، صحيح، لماذا لا يعملون على التنمية والوحدة، وحينما تتحقق لهم أسباب القوة سيجدون فلسطين كما هي، والقدس في مكانها كما وجدها صلاح الدين بعد أكثر من مائة سنة من الاحتلال!؟.

قال الأول: ـ إذاً، تعترفون أن القوة والمصلحة هما ما يحكم العالم وليس القانون والمنطق.

قال ناجي: ـ ومتى حكم المنطق يا صديقي، ليست الأمور بالأسود والأبيض كما يحلو للبعض أن يتخيلها، تحاول الأمم المتحضرة أن توائم بين مصالحها وبين مبادئها وتناضل من أجل الالتزام بالقانون وحقوق الإنسان، لكن ذلك نسبيٌّ يتفاوت بين أمةٍ وأخرى ويحدث فيه الخطأ والتجاوز، العالم اليوم أفضل حالاً، فالمرض والجهل والمجاعات تُحارب والحرية أقرب إلى معظم سكان الأرض من أي وقت مضى.

قال الشاب الملتحي: ـ حرية الفجور والانحراف.

قلت: ـ الحرية كلٌّ لا يتجزأ وإذا كان لها بعض الوجوه السيئة فوجوهها الحسنة والضرورية لتقدم الحضارة وانتعاش الفكر الإنساني أكثر من تلك بكثير.

أجاب: ـ نعود إلى القول أنه لا بد من إخراجهم من جزيرة العرب، عملاً بالحديث الشريف.

قال أحدهم: ـ معنى الحديث ألّا يكون لهم جماعةٌ مستقلة مستقرة في جزيرة العرب، أما أن يأتوا معاهدين أو متعاقدين لتجارة أو لإنجاز عمل فلا بأس.

قال الملتحي: ـ الحديث لم يحدد..

قاطعه الآخر: ـ لكن لا بد من قراءةٍ عقلانيةٍ للنص واتساقه مع تيار الشريعة ومع النصوص والأحكام العامة، استخدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعض النصارى، وكذا فعل الخلفاء من بعده ولم ينكر عليهم أحدٌ من الصحابة، ألا يعتبر ذلك تشريعاً..

استمر الجدل الذي عمَّ الجميع من دون أن يقتنع أحدٌ برأي الآخر، ظواهر جديدة طرأت على المجتمع المحافظ الذي ألف المسلمات والأحكام المسبقة، وأخطر من هذا الجدل ما نسمعه من أخبار التفجيرات والتهديدات التي تطلقها جماعات صغيرةٌ محدودة النظر والمعرفة ضيقة الأفق، يوجهها أشخاصٌ جاهلون بمسار الأحداث وبحقائق التاريخ، فرضوا أنفسهم أوصياء على الأمة ومتحدثين باسمها وإن لم توكلهم، يوحون إلى الشباب المتدين بوجوب التخلص من كل مختلف ومخالف، لا يدركون المنافع الكلية ولا المفاسد العامة، فأي مستقبلٍ ينتظرنا!؟.

* * *

كنت أتصل بها كلما هزني الشوق، وكثيراً ما فعل، تستولي الكآبة على قلبي فإذا سمعت صوتها تبددت غيوم الحزن وانفرج الأفق المظلم أمامي، صرت أشتاق إليها أكثر كلما طالت المدة حتى صار خيالها يصاحبني إلى كل مكان، افتقدت أحاديثها، ضحكاتها، عطرها، وما عاد الهاتف ليطفئ لهيب اشتياقي!.

كثيراً ما تسللت إلى البحر لأخلو بخيالاتها، استرجع لحظات السعادة التي تسربت وأمنّي النفس بأيام قادمةٍ أكثر جمالاً وإشراقاً، وأكتب هناك خواطري وأحداث أيامي، أما الليالي فكنت أخرج مع سلمان من الاستراحة إلى مقهى السيف، نجلس في الركن البعيد المقابل للبحر على نفس الطاولة لا نغيرها، أشاركه الأرجيلة، نتسامر ونتحدث عن همومنا ومغامراتنا وأسرارنا، كثيراً ما اشتكيت له ما أعاني من لوعات بعدها، وكثيراً ما بادلني الشكوى، فلصديقي نصيبه من متاعب الحب.

سلمان الشاب الوسيم المحب للحياة والمغامر المولع بالجميلات من كل جنسية ولون وإن لم يسكن قلبه منهن الكثير، لا أعرف من حبيباته سوى اثنتين، جميلة الفتاة الشامية التي تعلق بها أيام المراهقة ودس صورها في الكتب ونقش اسمها على طاولة الدراسة، كانت تلك أول إضاءات الحب على قلبه، تعرف عليها حين كانت عائلته تقضي إجازاتها الصيفية في جبال حمص، في بيت مستأجرٍ لوالد جميلة.

أما الأخرى فقد أخذت بثأر من عذبهن قبلها من النساء، وتمكنت من قلبه حتى تركته لا يرى امرأة سواها تستحق أن تعشق، أتذكر رحلتنا إلى فندق مريديان المنامة، وكيف هاجت أشجانه وبكى في المطعمٍ الإيطاليٍ.

جلسنا بعد العشاء وبعدما أصطفت أمامه كؤوس الشراب يجيل نظره في أرجاء المكان، يتوقف عند كل زاوية وكأنما انكسر في قلبه ما لا يمكن إصلاحه، قص لي حكاياتها التي سمعتها عشرات المرات، يتخيل شعرها الفاحم المتناثر ويتوقف عند عينيها ليعلِّق حالماً: ـ «تستعصيان على الوصف»!.

يتحدث عن أنوثتها ورقة طبعها، ويسترسل في الشراب ليعود فيسألني عن ذات البيتين: ـ

ولـمـا أبـى إلا جـمـاحـاً فـؤاده ولم يسل عن ليلى بمالٍ ولا أهْلِ
تسلى بأخرى غيرها فإذا التي تسلى بها تغري بليلى ولا تسلي

يردد معي الشطر الأخير ضاحكاً، وعلى ضوء الشمعة الخافتة تلتمع على خديه الدموع، كنت أقدِّر معاناته وألمه خصوصاً بعدما عشت تجربتي الخاصة، ربما أعذرها حين هجرته من أجل الزواج والاستقرار، فلم تكن تلك الفتاة الجميلة الراقية، ثقافةً وروحاً، لتحتمل حبه الأناني إلى الأبد.

يحب سلمان ـ شأننا جميعاً ـ نفسه من خلال محبوبته، لا يمكنه الزواج منها ولا يسمح لها أن تتزوج وتتركه، يريد أن يجدها في انتظاره متى ما سمحت له الظروف، يحتاج لحاضنة أو لطبيبةٍ نفسية أكثر أحياناً من حاجته لحبيبة، أصبح متطرفاً بعد رحيلها في عِشْرة النساء كأنما ينتقم من هجرها.

اتصالات صاحباته أكثر ما يزعج جلستنا، أغضب أحياناً فيطفئ الهاتف أو يحوله إلى الصامت، سألته متعجباً كيف يميز بينهن فلا يخلط بين أسمائهن، فأجاب ضاحكاً أنه قد يمضي المكالمة من دون أن يذكر اسم المتصلة، إنما يكتفي بحبيبتي وحلوتي حتى يتبين من تكون، ويضحك وأضحك معه بينما يجيب على الهاتف!.

طاهر القلب طيب المعدن، لا أدري كيف أصف صداقتنا سوى أنها تآلفٌ للأرواح واتساق للطبائع وتفاهم عفويٌ لدرجة أني أشعر بالحزن وبالوحدة حين يكون مسافراً، صحيح لسنا إخوة دم ولم نبت في رحم واحد لكنه أقرب إلى قلبي من بعض إخوتي.

قد يكون في الصداقة نوعٌ من المصلحة، فلا بد من شكوى إلى ذي مروءة، ولا بد من صديق يشاركك همومك وتأتمنه أسرارك.

يعرف سلمان الكثير من القصص والآداب ويحفظ الشعر ويتذوقه، ممتلئٌ قلبه بحب الحياة، بريءٌ كالأطفال ومتطلبٌ مثلهم، لم يتعلم الغش ولا الكبرياء، ولم تتلوث روحه بأدران الحقد والكراهية، يقول ما يعتقد من دون مواربة، فلم أصادفه كاذباً يوماً ولا ملتوياً.

سهرنا نتسامر على رقرقة الأمواج الكسلى وصوت أم كلثوم يأتي ضعيفاً من داخل المقهى، يؤخرون أغانيها إلى آخر الليل حين تفيض عبرات العشاق؛ كنت أروي حكاياتنا لسلمان متلذذاً بذكرها ومتشوقاً للقائها، وما أكثر أحاديثنا عن الماضي سوى محاولةٍ لأن نعيشه مرةً أخرى، وما الذكرى سوى أثر من السعادة ترسَّب في القلوب.

كتبت لها أحد الصباحات:

«صبرا، أشعر أنك تختصرين العالم في قلبي، فلا أكاد أفكر في شيءٍ سواك، لا تعجبي من قولي فلا أتذكر أني سهرت مع سلمان من دون أن تكوني حلية حديثنا.

تمر ذاكرتي بالكثير من الناس والأحداث فلا تتوقف إلا عند عينيك».

كنت آوي إلى فراشي على موعد مع أحلام لقائها يوماً بعد آخر حتى غلب عليَّ التفكير والشرود، وصار تغيُّر أحوالي ملاحظاً للجميع.

أما والدي فيتجاهل الكثير مما يسميه أعراض الشباب ويكل إصلاح الحال إلى التجارب وإلى الزمن.

سألني إبراهيم ذات يوم إن كنت أمر بمشكلة أو أحتاج إلى مال، لم يكن ليتصور أن ما أعانيه هو الحب رغم ما سمعه عن معرفتي بفتاة. يفكر أخي بشكلٍ عملي ويزن الأمور بميزان العقل، لا أظنه سيتفهم الأمر، فقد دارلسنين طويلة في فلك المال والصفقات ولا تعدو الأحداث في مفهومه أن تكون ربحاً أو خسارة أو دائن أو

مدين، يكيل بمكيال المنفعة، لا أدري إن كان لا يزال يتذكر شيئاً عن العواطف والمشاعر الإنسانية التي لا تخضع لحسابات الربح والفوائد.

تجادلت مع نهلة على مائدة الإفطار حين اتهمتني بالإهمال وغضبت لأني لم أثنِ على مظهرها الجديد، وكانت قد بدأت تهتم برأيي على غير عادتها، ربما لما رأت من صدودي وتجاهلي

قالت بنبرةٍ لا تخلو من عتاب: ـ تغيرت كثيراً بعد عودتك، كنت أود لو أعدنا ترتيب أمورنا لكنك تواجهني بتجاهل وصدود لم أكن ألاحظه من قبل رغم ما بيننا من خلاف، لقد تغيرت!.

نفضت يدي من الطعام وقمت، فنهضت ورائي يوشك أن ينفلت زمام صبرها لتعود إلى الصراخ من جديد: ـ هكذا أنت لا تقتنع بشيء ولا تقول شيئاً مقنعاً، كرهتك وكرهت العيش معك. . . وانقطع الصوت حين أغلقت باب الشقة الخارجي ونزلت إلى الشارع.

لم أكن راغباً في الجدال، سئمته ولم يعد في قلبي مكان لحبها ولا لهذا العيش النكد، وحالت معاناتي معها من دون أملي في الرجوع، كم تمنيت لوكانت لي حياة بسيطة أساسها التفاهم ومدادها الرضا والقبول، حياة لا أضطر فيها إلى المجاملة والمداراة كل يوم حتى طبع الغضب والتوتر أيامي، يمكنك أن تتحمل حياة التصنع في أي مكان سوى بيتك، يهرب الناس من هجير الشمس ومن إرهاق العمل ونكد العالم إلى جنات بيوتهم، فأين أذهب إن كان بيتي هو الجحيم!؟.

داخلتني الشكوك بأنها اكتشفت قصتي، وكنت أتوتر حين أخفي شيئاً ويظهر الكذب على وجهي كأنما يرى الناس ما في قلبي أو يسمعون حديث نفسي، تلك طبيعةٌ لم أستطع تجاوزها من زمن الطفولة.

ثم ما لبثت الأمور أن اتضحت وتأكد شكها حين وجدت الرقم ذاته يتكررعلى هاتفي النقال، وبعدما لاحظت ارتباكي كلما سألتني عن أحداث رحلتي في أحاديثنا القليلة ارتباك الرجل المتستر أمام زوجته الذكيّة.

أمست مغتاظة متوترة تكاد تشعر ببركان الشك والغيرة يغلي في قلبها ويوشك أن ينفجر، تنهي نوبات غضبها وصراخها فترات صلحنا القليلة وتدفعني في الاتجاه الآخر حتى اقتنعت تماماً إنَّ لكلٍ منا طبيعة مختلفة وأننا لن نلتقي على شيءٍ مهما حاولنا.

لا أعتقد أنها افتخرت بي يوماً أمام أخواتها أو صديقاتها كما تفعل الزوجات المحبات، كما أني لم أعرف مفاتيح شخصيتها ولم أجد لها في قلبي من الحب ما يعبر ما بيننا من جليد، تلك كانت الحقيقة وإن لم تكن مقبولةً في منطق العائلة أو المجتمع، لكن من قال إن ثمة علاقة بين الحب وبين المنطق؟.

مرات عديدة كنت على وشك أن أصارحها بأن استمرار زواجنا بهذا الشكل المزري نوعٌ من العبث لامبرر له، وأن الأمر سيكون أشد إيلاماً وضرراً كلما تأخرنا في إعلان الحقيقة، لكني جبان أهرب دائماً من مواجهة المواقف الصعبة.

أصبحت أزور أمي، أو قل أهرب إليها، أكثر من ذي قبل وسط نظرات الاستغراب والفضول التي تحدجني من كل صوب، من زوجها ومن إخوتي غير الأشقاء ومن الآخرين هناك الذين طالما اعتبروني غريباً أمرُّ بهم في فترات متباعدة كما يمر الأغراب، وحدها كانت تشعر بألمي وتريح قلبي.

تعيش أمي مع قوم لا نعرف عنهم الكثير، يتحدر زوجها من عائلةٍ جنوبية هاجرت إلى شواطئ الخليج حين استقرت الشركات الأجنبية على ضفافه وتوفرت الوظائف والأعمال، وكذا فعل آباؤنا من أهل

القرى، فتكونت المجتمعات الحديثة التي كادت أن تمزج أطيافاً من أهل الجزيرة العربية لولا ما بقي في العمق من ميراث القرية أوالقبيلة، طباع تلك العائلة ولهجتهم وتسمياتهم للأشياء وحتى أسماؤهم تختلف عما تعودنا، ورغم ما ألاقيه من الحرج حين ينبهون النساء اللاتي يضمهن منزلهم الكبير ليحتجبن عني، ويصحبني أحد الشباب إلى غرفة الجلوس الداخلية عندما تكون أمي متوعكة، فأنتظر وقتاً ريثما تفرغ من صلاتها أو تفيق من غفوتها. لم تكن متعلمة ولا متحدثة بارعة لكني أرتاح لمجرد رؤيتها وقربها، ويعيد إمساكي بيديها توازني كما لا يفعل شيءٌ آخر!.

كنت رضيعاً حين طلقها أبي فأخذتني معها إلى بيت أخوالي، مكثت هناك بضع سنين قبل أن يتقدم لها سالم بن حارث، زميل أخيها الأكبر، سارع إخوتها للموافقة كأنما لم يصدقوا أن يخطبها أحد، وقبلت هي هرباً من أطواق الرقابة والتضييق ومن مكائد زوجاتهم رغم العالم المجهول الذي ينتظرها.

تخشى المطلقة أن لا تمنح فرصةً أخرى للزواج فتعيش عالة على ذويها وتثقل على قلوب زوجاتهم، لذا تستجيب لأي بارقة أمل وتقبل بأول متقدم.

أصلي المغرب عادةً مع والدي في المسجد المجاورلمنزله ثم أجلس عنده إلى ما بعد العشاء، إلّا أننا قليلاً ما تحدثنا في أمر جاد، كان يفضل عدم التدخل في أمورنا الصغيرة وتفاصيل حياتنا، يرسم الخطوط العامه ثم يترك الباقي لاجتهادنا، يكررفي نصائحه: ـ أصبحتم رجالاً تعرفون الخير من الشر وتميزون الصواب من الخطأ وتحفظون سمعتكم أمام الناس.

مجمل توجيهات كبار السن عندنا تدور حول المفاهيم العامة الواضحة، كحفظ الدين وبر الوالدين والوفاء والصدق والأمانة

والشرف، وهي في نظرهم مسلمات لا ينبغي إكثار الحديث عنها كي لا تفقد هيبتها، ربما كانوا محقين فما أكثر ما تتحدث بعض مجتمعاتنا الحديثة عن الفضائل وما أقل فضائلها!.

جلست عنده ولم يكن ثمة أحد سوى عبد الرحيم يجهز قهوة بعد المغرب، تكلم بعد صمت، وهو يعدل الوسادة تحت مرفقه ويتناول بيمينه الفنجان: ـ كيف أحوال بيتك، هل كل شيء على ما يرام؟.

كانت تكفيه إجابةٌ عامة لكنني تمهلت قبل أن أجيب: ـ نعم، الله يحفظك، كل شيء على ما يرام. كنت أعرف أن أخباراً تتسرب إليه عن خلافاتنا، ثمة صلةٌ بين نساء أبي سعود وبين أم إبراهيم التي توافي الوالد بالأخبار لكنه لا يهتم ما لم تتعدَّ الأمور سور البيت.

سألني وقد شك في صمتي: ـ عسى ما شر، العيال طيبين؟.

قلت: ـ نعم يا والدي كل شيء بخير، فقط أمورٌ بسيطة بيني وبين نهلة.

ضحك وهو يستند إلى الخلف، ويرتشف فنجان قهوته قائلاً: ـ بسيطة، هذة أمورٌ يحلها الزمن، ستكبرون عليها وستكبر معكم الألفة والمودة. ثم التفت إليَّ وما يزال أثر الابتسامة على وجهه: ـ هل تحتاج إلى شيء، هل عندك ما يكفي من المال؟.

تناولت يده أقبلها وهو يضحك ويدعو: ـ الله يصلح شأنكم يا ولدي.

رأيت الحنان في عينيه وفي بحة صوته وهو يمسح على عاتقي، وكانت تلك من المرات القليلة التي يبدي فيها شيئاً من عاطفته بهذا الوضوح، يغلف أبي مشاعره بشيء من القسوة خصوصاً مع الأبناء الشباب، لا يحب لهم أن ينشأوا منعمين عاطفيين لأن ذلك أقرب في رأيه إلى الضعف والفساد، يفضل أن نواري عواطفنا وأن نتصف بالقوة والرجولة، لم تكن تلك نظريته وحده بل معظم كبار السن،

ينهون عن إطالة الجلوس مع النساء وعن قصات الشعر الأنثوية والملابس والمظاهر المشبوهة، وينهرون أبناءهم عن كل ما ينتقص من مظاهر رجولتهم.

* * *

للعمل في إدارتنا نكهته ومتعته الخاصة فالجميع أصدقاء، يبدأ نهارنا بالإفطار الجماعي واستعراض حال الدوري وما يدور من إشاعات وأخبار، كثيراً ما انتقل الحديث إلى السياسة أو حرب الخليج وحصار العراق، يشدُّ كل فريقٍ في اتجاهه ويجادل عن قناعته حتى تكاد الأمور أن تصل إلى حد التخوين والخصام.

ثمة مجال رحب للجدل وأرض خصبة للنظريات هذه الأيام، فمن داعٍ إلى التدين والجهاد ومن محذرٍ من المؤامرة الكبرى ومن مطبلٍ للقومية العربية ولأمجاد التاريخ، ومن مؤيد للغرب وحريته ومساواته الموعودة، أما العمل فأكبر المتضررين من جدالنا الديمقراطي، نستأذن للخروج مرتين أو ثلاثاً في الأسبوع بحجة أن قسمنا ما زال ينتظر وصول الأجهزة.

كنت أذهب إلى مقهى السيف، الخالي تقريباً وقت الضحى، استمتع بمناظر السفن العابرة وأدخن الأرجيلة التي صرت آلفها يوماً بعد يوم، يرافقني راشد في بعض الأحيان، نقطِّع الوقت في الحديث عن مغامراتنا وذكرياتنا، كثيراً ما تحدثنا عن صبرا أو اتصلنا بشيخة ولطيفة لتختلسا الوقت فتحضران.

ترسخت المودة بيني وبين شيخة تلك الأيام، وأصبحت تسرُّ لي ببعض همومها وتستشيرني كما يفعل الأصدقاء، كنت ألاحظ تعلقها براشد وأعلم أنه لن يتقدم لخطبتها كما تأمل، لكني لم أتحدث في الموضوع فقد ظلّا يحتفظان لعلاقتهما بنوع من الخصوصية حتى عن أصحابهم المقربين.

كبر الشوق وصار يستعصي على الصبر والكتمان، فعز النوم ورحت أقضي الليالي ساهراً أقلب الأفكار فيما سأفعله لأعود إليها، أتحدث معها لوقت طويلٍ لا يزيدني إلا ظمأ لوصلها، أتذكر أني تمثلت ذات مكالمة: ـ

قولي لطيفك ينثني — عن مضجعي وقت المنام
كيما أنام وتنطفي — نارٌ تأجج في العظام
دنفٌ تقلبني الأكف — على بساطٍ من سقام
أما أنا فكما علمتِ — فهل لوصلك من دوام

فضحكت وقالت: ـ يعجبني ما يفعله طيفي!.

* * *

لم نكن نعرف المخدرات في الماضي ضمن مجتمعاتنا المحدودة، ولا يمضي اليوم نهارنا من دون أن نصادف أحد ضحاياها.

كان أهلنا يحذروننا من اللعب في الشوارع خوفاً علينا، حين كنا صغاراً، من السيارات المسرعة، يخشون أن نقصر في الدراسة أو نتعلم التدخين، ما كانو يخافون من الاغتصاب أو يحذروننا من الخمور أو المخدرات لأنها لم تكن معروفةً في أغلب المجتمعات، ها هي اليوم تتداول بين طلبة المدارس، تجر معها الموبقات والرذائل التي يمقتها ويستغربها الناس، ترى الوالد أخوف على الصبي حين يخرج من البيت منه على الفتاة، فلا تخرج الفتاة من دون محرم.

ساق هذه الذكريات والخواطرمنظر سعود يهذي بالشتائم تارة ويشدو بالغناء تارة ويضحك كالمجانين تارة أخرى، أكثّ الشعر مهلهل الهندام قد سال لعابه على ذقنه المهملة، يلقي بالسيجارة على نصفها ليشعل أخرى، تسود المجلس فترة صمت تتخللها نظرات الإشفاقِ والحرج مما هو فيه، ليعود فيفغر فاه الذي فقد نصف أسنانه

واسودَّ الباقي منها ليغني من جديد، حاول بعض الحاضرين ملاطفته واصطحابه إلى البيت لكنه ثار في وجوههم وشتمهم، ثم عاد للغناء وسط نظرات الاشمئزاز والحرج.

ناداهم أحد الجالسين: ـ لا عليكم، اتركوه، فقد أصبح أمره معروفاً للجميع.

رد أحدهم: ـ كان الله في عون والده.

قال راشد: ـ قلما توجد اليوم حارة لا تعاني من وجود مدمن أو متعاطٍ، وصل الأمر إلى طلبة المدارس.

قال ناجي: ـ هذه والله معضلة، فئة متطرفين تقابلها فئة مدمنين ومنحرفين، بدأ المجتمع يفقد اعتداله وأصبحنا نعيش حالة استقطاب إما إلى أقصى اليمين وإما إلى أقصى اليسار.

قال عامر:ـ لا أعتقد أنها ظواهر جديدة، إنما بدأت تظهر للعلن بسبب تيارات الأفكار والعقائد الوافدة.

قال راشد: ـ لا تقل هذا يا رجل، ما كنا نسمع عمَّن يكفِّرون علماء الدين أو يستحلُّون دماء الناس من قبل!.

قال شابٌ آخر: ـ صحيح، أصبحنا نسمع ونقرأ عن جرائم شنيعة وشاذة يرتكبها مدمنون لم تكن لتصدق في مجتمعاتنا.

قال راشد: ـ كفانا الله شرهم، كلها والله مؤامرات أعداء الدين.

قال سلمان: ـ عدنا إلى نظرية المؤامرة؟ هذه أمراضٌ اجتماعية، يجب أن تفهم وتعالج على هذا الأساس.

قال ناجي: ـ النتيجة واحدة، فقد المجتمع وسطيته واعتداله ولا صلاح لنا في غير الوسطية والاعتدال، وحتى لو كان ما أصابنا من صنع الأعداء فنحن من منحهم الفرصة لإيذائنا..

ويستمر النقاش فلا ينبهنا إلا شخير سعود المتعالي.

خسر المسكين وظيفته وعلى وشك أن يفقد زوجته وأطفاله

الثلاثة، خصامه مستمرٌ مع والده وأخويه المتبرمين بوضعه والمحرجين من تصرفاته وإدمانه، خصوصاً والده الذي يدَّعي أنه الأفضل في كل شيء.

فقد سعود قبوله في المجتمع بعدما كان محبوباً وصديق الجميع، ولا أدري إلى أين سيذهب به ضعفه أمام المخدرات.

بدأت ألاحظ استمرار التواصل ومتانة العلاقة بين ناجي ولطيفة وراشد وشيخة، وعلمت أن لقاءاتٍ كثيرةً تمت وأن الأماني والأحلام قد رسمت للمستقبل، يزين الشاب للفتاة الوعود حين يكون بحاجةٍ إلى قصة حب تملأ وقته وتشبع عاطفته وترضي غروره أمام أصحابه، وتنقاد الفتاة للوهم فتقنع نفسها في محاولةٍ لإرواء عاطفتها المتدفقة وحاجتها لمشاعر الحب ولمن يهتم لأمرها ويستمع إليها، مع علمها أنه ليس سوى السراب، فأكثر قصص الحب السرية لا تنتهي عندنا بالزواج.

* * *

بُعد أخي عوف عن العائلة وميله للعزلة كان واضحاً منذ مدة، لكنه زاد البعد مؤخراً بالانغلاق على مجموعةٍ من الشباب حديثي السن وحديثي التدين من أمثاله، كان ذلك مبعث ارتياح والدي في البداية لأننا محافظون أو هكذا ندَّعي، فنفخر بمن يعتني بالعلم الديني من أبنائنا ويتصف بما يبدو من صفات الزهاد، تلك العناوين والبراويز التي تدل ـ على افتراض صدقها ـ على تدين وورع صاحبها وتمنحه نوعاً من المنزلة والحصانة الاجتماعية، فيستمع الناس إلى كلامه باهتمام وربما قُدم في صدور المجالس وطُلبت منه الإفادة الدينية ما يشعر بعضهم بالنشوة ويفقده التوازن. يحلو الأمر لمجموعات من المنتفعين ومدَّعي التدين ممن اكتفوا بإسبال اللحى وتقصير الثياب ومروا على بعض الآيات والأحاديث ففهموا شيئاً من

ظواهرها من دون أن يعَوْا مقاصدها أو يضعوها في سياقها، لم يفهموا أصول الأحكام ولا مقاصد الشريعة، وركب الموجة متطرفون يوحون إلى الشباب المندفع أن كل مختلف أومخالف في النار يجب قتله أو التخلص منه، وإنَّ الآخر شرٌّ، أياً كان، لا خير فيه!.

سفَّهوا أحلام العلماء الراسخين في العلم الذين نشأ الناس على تبجيلهم واحترامهم، لم نعرف ولم نتخيل أن يقدح أحدٌ في علم أو تقوى ابن باز أو ابن عثيمين فيسميهم علماء السلطان، ويتهمهم بالتفريط مع ما نسمع عن علمهم وورعهم وخدمتهم للدين، ما يثير العجب أن شباباً كانوا ناقعين في المجون لم يمض على تدين بعضهم أكثر من أشهر يجادلون شيوخاً أفنوا أعمارهم في البحث والتأليف.

كان أجدادنا يسافرون من بلدةٍ إلى أخرى طلباً للفتيا، أما اليوم فالجميع معجب برأيه والجميع يفتي ويشرِّع، يعاد في كل العلوم إلى خبرائها ومختصيها فيحترم رأيهم ويقدم سوى علوم الدين التي أصبحت مستباحة للجميع يعترضها الجاهل فيفتي من دون علم ولا بصيرة، أعتقد أن تطرف بعض الشباب الشديد هو رد فعل لانحرافهم السابق حين انغمسوا في حياة الملذات والمتع الجسدية، فعرفوا آلامها وأدركوا زيفها لذا تجدهم أشد احتقاراً لها وأكثر هرباً منها.

بدأ عوف حربه الدينية من منزل الوالد على التلفزيون الذي زعم أنه يفسد الأخلاق وينشر الرذيلة ويلهي عن الصلاة، منع أخواتي من سماع الأغاني، وعاتب الشباب على حلق لحاهم وتراخيهم عن حضور صلاة الفجر وكان يعرِّض بما يسميه تساهل الوالد، يفتي أن النقاب مدعاة للفتنة وخطوة نحوالسفور فلا تكون المرأة المحترمة في نظره إلّا مغطاةً بالكامل، جاراه الوالد لبعض الوقت وحاول أن يستوعب تشدده وما سماها «فورة التدين» رجاء أن ينضج ويعتدل لكن تشدده كان يتزايد يوماً بعد يوم، ما أثار قلق الجميع، هو ما صار

ملاحظاً من تهجمه على المجتمع ووصفه بالانحلال والبعد عن الدين وسخطه على الحكومات التي استدعت الجيوش الكافرة!.

هكذا حتى أصبحنا نسمع عن وجوب الجهاد ضد الأمريكان الغزاة وضرورة الخروج على ولاة الأمر، أمّا العلماء فهم مداهنون في رأيه باعوا ذمتهم وخانوا أماناتهم، المشكلة أني أعرف أخي وأعرف حدود إدراكه، فهو لا يعدو أن يكون مراهقاً ساذجاً تذبذب في دراسته النظامية فاتجه للتدين الشديد أو ما أسميه التنطع منذ مدة لا تكفي لأن يقرأ كتابين أو ثلاثاً من الأمهات، أو يحفظ أو يفهم شيئاً من تفسير القرآن الكريم، لا يشفع له حسن نيته ولا حماسه للدين في أذية الناس وتضليلهم، صحيح أنه يميل إلى التدين منذ سنوات لكنه لم يقرأ شيئاً من علوم الدين ولم يدرس في مدارس الشريعة، فلا أدري إلى أين ستؤول الأمور بأخي وأمثاله.

أتذكر أن الدكتور القرضاوي سئل في أحد البرامج التلفزيونية عن مسألة في الفقه، فلما أفتى، قاطعه الشاب السائل مستنكراً بصوتٍ حاد: ـ إني أقرأ في علوم الفقه منذ سبع سنوات ولم تمر معي هذه المسألة كما تصف!؟.

ضحك عندها الشيخ وقال: ـ وأنا أقرأ ـ يا بنيَّ ـ في الشريعة والفقه منذ أكثر من خمسين سنة وإلى الآن تمر بي مسائل جديدة.

تعجبت حينها كيف ينتقص من احترام عالم جليل أفنى أيام عمره في خدمة الدعوة والشريعة، يبدو أن عالمنا مقبل على الفوضى واختلال المفاهيم.

أحضرت كتاباً للألباني في الحجاب وأهديته لعوف رجاء أن يخفف من مضايقاته لأخواته البنات، وسألته بعد أيام عن رأيه حول الكتاب فقال: ـ رأي الألباني في موضوع الحجاب خطأ، الشباب يقولون إنه جيد في الحديث والأصول وضعيف في الفقه.

قلت: ـ لكنك تثني دائماً عليه.

قال: ـ نعم، لكن كلٌّ يؤخذ من رأيه ويرد إلا النبي ﷺ، نحن الآن في زمن فتنة ينبغي فيه الحيطة من دسائس أعداء الدين، ألا ترى الانحلال الأخلاقي والغزو الثقافي، من قال إن الألباني معصوم لا يخطئ؟.

راح يشرح لي أموراً في العقيدة يتوقف عندها جهابذة العلماء حول مفهوم الحاكمية والولاء والبراء وأوضاع المجتمعات المزرية والأخطار المحدقة، فسكتُّ وعلمت أن أخي في خطر.

لم يمض وقت طويل حتى أصبح أبي يتضجر علناً من تشدد عوف وتغيبه الطويل عن المنزل.

دخلت عليهما أحد الأيام وحدهما في المجلس الكبير، وهو المكان الذي يستدعى إليه أحدنا عند الحاجة للنصيحة أو العتاب أو المشورة. جلس والدي على الأريكة وقد لفَّ شماغه حول عنقه وأمسك بعصاه يصرخ في عوف الجاثي على ركبتيه: ـ ما هذا التدين الغريب، أخجلتني أمام الناس، ما هذا الذي أسمعه من أنكم تكفرون الناس وتلعنون الحكومة!؟، ما أدراك أنت بالدين، وما شأنك والسياسة!؟.

ثم يسكت قليلاً ليعاود الحديث بنبرة أهدأ: ـ يا بني، يحتاج الدين إلى علم وحكمة وتمييز للأمور لا يستقيم إلا بعد سنين من الدراسة والتعلم، لا تتهور فتسبب لنا الأذى والمشاكل، ثم لا تحصد سوى الندم والذنوب، اتَّبع آثار العلماء الموثوقين في علمهم ودعوتهم.

قال عوف وهو مطأطئٌ رأسه: ـ الصحابة كانوا يبدأون بالدعوة والجهاد ولم يتعلموا من الإسلام سوى لا أله إلا الله لا تأخذهم في الله لومة لائم.

قال الوالد، وكنت أجلس جانباً أكتفي بالاستماع ـ: ـ الصحابة

كان يوجههم النبي ﷺ يدعون ويجاهدون الكفار، أما نحن فمسلمون بين مسلمين، وعندنا من العلماء من يزِنون الأمور بموازينها، يعرفون الأولويات ويقدرونها ونحن وإياهم في ذمة دولةٍ مسلمة. ويرمقني كالمستنصر، لكن عوف يقاطعه: ـ مسلمة؟، الله أعلم بإسلامهم.

يصفعه الوالد عندها ويسبه ويتهدده فيضع يديه على وجهه ويبكي. تسود فترةُ صمت يعود أبي خلالها للهدوء ويسند ظهره إلى الكرسي قائلاً: ـ لا حول ولا قوة إلا بالله، كيف أصنع مع هذا الغلام؟.

أناوله كأساً من الماء وأشير بطرْفِ عيني إلى عوف أن يسترضيه، فينكب على يده التي تمسك العصا يقبلها ويبكي بصوت مسموع: ـ لا تغضب مني يا والدي، أريد نصرة ديني.

يتمعر وجه الوالد لكنه يقول بلهجةٍ أبويةٍ: ـ عوف، يا بني، إن كنت تريد نصرة الإسلام كما تقول فادرس الشريعة وسوف تتمكن من الدعوة للدين والدفاع عنه بمعرفة وبصيرة.

راح عوف يبتعد عن محيط العائلة يوماً بعد يوم حتى صارغريباً بين أهله مقلاً في حديثه مع الجميع، كانت تلك أول مرة يواجه فيها الوالد قلة الحيلة مع أحد أبنائه، لم يكن عوف يعاني من اضطرابات نفسية أو مشاكل في طفولته، نشأ مدللاً في حضن أبويه وفي أسرة معتدلة التدين ميسورة الحال، كان شاباً طيباً وخجولاً مر ببعض الصبوة في بداية مراهقته ثم عاد إلى التدين الذي تصاعد واشتد مؤخراً حتى خرج عن المألوف.

لم يكن تطرفه ناتجاً عن عقد أسرية ولا عن سوء تربية، لا أدري إن كانت تركيبته النفسية قد واءمت هذا التيار وتشربت الشحن العاطفي الذي يبثه شيوخ المتطرفين عبر الكتيبات والأشرطة السمعية.

تشدده في فهم الدين وتطرف أفكاره أهم الأسباب التي حدت بوالدي للتفكير في تزويجه رغم تعثر دراسته الجامعية، رجاء أن

يصلح الزواج من حاله ما عجز الترغيب والترهيب عن إصلاحه، وعلى كل حال لا يستغرب الزواج المبكر عندنا، فأكثر أبناء الأسرة تزوجوا بين العشرين والخامسة والعشرين، بل تزوج بعضهم قبل ذلك، ولآبائنا من ذلك غايات منها كثرة النسل وتحمل المسؤولية وحماية الشباب من الانحراف، فالزواج عصمة كما يقولون، هذا رأي معظم العائلات في الخليج، لا يرون مانعاً من الزواج المبكر خاصةً مع الوفرة المادية التي يسرت الكثير من الصعوبات.

للشاب صلاحيات محدودة في اختيار زوجته، الأب والأم وكبار الإخوة يتشاورون ثم يسألونه عن رأيه بابنة فلان على أن تصفها له نساء العائلة، يمكن لأخواته أن يرشحن إحدى زميلاتهن أو معارفهن على أن تكون من عائلةٍ معروفة السيرة والنسب، فالناس حساسون جداً لمسألة النسب عندما يتعلق الأمر بالزواج، قد تهدر الدماء وتقطع الأرحام إذا تجاوز أحدهم الحدود، فقبائل لا تتزوج من قبائل وعائلات لا تقبل مصاهرة عائلات أخرى، ليس السبب الحاسم في ذلك المال ولا المرتبة الوظيفية بل النسب الممتد والمحفوظ من جهة الأب والأم على حدٍ سواء، لا تساهل في ذلك عند الغالبية من قبائل الجزيرة العربية، فمجتمعنا طبقي جداً في هذه الأمور.

يعرف أرباب الأسر هذه القوانين الاجتماعية، يحفظونها ويقفون عند حدودها، ورغم أنهم لا يتحدثون كثيراً عنها إلا أنها حاضرةٌ في أذهانهم، وسوف تحدث الفتنة ويتدخل الأقارب في حال اخترق شيء منها.

ترى الناس أصدقاء وجيران وزملاء لا يسألون بعضهم زمناً طويلاً من أين أنت؟ وإلى من تنتمي؟ حتى يكون الحديث عن الزواج فتهمس الشفاه وتطرق الآذان.

يتحاشون الأمراض الوراثية وقطيعة الأرحام ومنابت السوء.

يمر الزواج بمراحل من البحث والتقصي حتى أن بعضهم يلح في السؤال عن سيرة النساء تحرياً للنجابة والشرف، ولا يجدر بالخاطب أصلاً أن يطلب من عائلةٍ لا تناسب وضعه الاجتماعي وإلّا قوبل بالازدراء وإن كان غنياً أومشهوراً، الفقير يغنى والغني يفتقر ويبقى الأصل.

بعد أخذٍ ورد ومداولاتٍ كثيرة، تقود معظمها أم إبراهيم، استقر الرأي على زينة، بنت أبي سعود وأخت نهلة زوجتي، فهي من الأقارب، فتاة جميلة ومؤدبة، تدرس في السنة الثانية من كلية المعلمات.

أصر والدي على تعجيل الزواج على أمل أن يخفف من زهد عوف وإعراضه عن مباهج الحياة، خاصةً بعدما سمع أنه يتحدث عن الشيشان، كان يخاف أن يصبح أحد الأيام ليجده قد لحق بأفواج المجاهدين هناك.

استقرت العادة أن تذهب أم العريس وبعض أخواته لمعاينة العروس وللحديث إلى والدتها التي تستشير والدها وذويها، وترسل إشارة القبول المبدئي ليحدد على ضوئها موعد الزيارة الرسمية، فيحضر العريس مع والده وأعمامه وبعض إخوته لطب يد الفتاة وتحديد المهر وموعد الزواج.

هكذا كان من دون إبطاء، فأبو سعود من العائلة وزوجته امرأة معروفة ولا حاجة للسؤال والبحث.

تحدد موعد الزواج في أوائل ذي القعدة، أي في عطلة منتصف العام، على أن يقيم العروسان في منزل الوالد، وهذا مستحب إن كانت والدة العريس سيدة المنزل إلى أن يكثر الأولاد ويضيق بهم المكان.

لفت انتباهي استحياء عوف من الدخول لرؤية عروسه واكتفاؤه

بوصف والدته وأخواته، أما هي فلن تجرؤ على مجرد السؤال، ربما ستحصل على صورته بطريقةٍ سرية من إحدى أخواتي اللاتي تربطها بهن صداقةٌ قوية.

* * *

أول ما أفكر فيه صباحاً وآخر ما أحلم به ليلاً طيف صبرا الذي ظل يلازمني أينما توجهت، كانت سهراتي مع سلمان تتجدد في مقهى السيف كل ليلة، ندخن الأرجيلة ونمضي ساعات الليل في الحديث والشكوى واجترار الذكريات.

لامني يوماً على إهمال زوجتي وتعلقي بصبرا رغم ما يحول دونها، فأجبته متمثلاً: ـ

فكم من بعيدِ الدارِ ساعفَه الهوى ومنقطعِ الأسبابِ وهو قريبُ

قال، كأنما أنظر إليه ملتحفاً بعباءة الوبر الشتوية وأنبوب الأرجيلة على شفتيه: ـ لكن نهلة زوجتك وأم أولادك وليست سيئةً على ما سمعت..

قاطعته: ـ سلمان، أنت العارف بأحوال المحبين تقول هذا؟ ألم تسمع أن للقلب منطقه الخاص، ثم إني ما أحببتها منذ زواجنا، ولا أعتقد أنها أحبتني بصدق، طباعنا مختلفة وليس بيننا من الألفة ما يكفي لاستمرار حياتنا، أليس الانفصال أولى من الحياة البائسة؟.

قال: ـ لماذا تزوجتما إذاً، وما ذنب الاطفال؟.

أجبت، وأنا أعدل الكرسي وألف شماغي حول وجهي من البرد: ـ سبحان الله!، كأنما لا تعرف كيف يتزوج الناس، أما الأطفال فهم من يقطع قلبي ـ وداخلني الشعوربالحزن ـ، آه كم تجعلك الأبوة ضعيفاً.

أحس صاحبي بألمي فقال ممازحاً: ـ لا عليك، فقلبك يتسع للجميع!.

كان يوماً حافلاً بالدموع ومزدحماً بالمشاعر ذاك الذي تلقيت فيه رسالتها الأولى بعد أكثر من شهرٍ على فراقنا، كان لاستلامها فرحةٌ وارتعاشةٌ لم أجربهما من قبل.

ما زلت أتذكر لون غلافها وشكل طابعها، حملتها كالمحتفي بوصولها، وتسللت إلى أحد المكاتب الخلفية التي يندر مرور الزملاء عليها، قرأتها بفرح وأعدتها واعتصرت كلماتها حتى كدت ألمح صورة صبرا الحبيبة بين سطورها.

رسالتها نفحةٌ من السعادة وطقسٌ يجدد أواصر حبها الجديد.

بعض كلماتها حبٌ صرف يطير بالقلب مع أسراب الطيور، وبعضها عتاب، وبعضها ألم وشكوى..

«إلى الرجل الذي أحببت.

كيف أشكرك وقد أعدت لي ثقتي بنفسي وأخرجتني من نفق أوهامي وعرفتني إلى روحي التي استغرقت في حبك حتى بدا كل شيء سواه وهمٌ لا قيمة له، وحتى وجدتني أحب نفسي من أجلك ومن أجل اليوم الذي سألتقيك فيه.

لم تكن لي تجارب تعصمني من الانزلاق في الحب أو تعلمني كيف أحسب خطواتي وأحب حسب الأصول، لذا كان وقوعي مدوياً.

قمت في سكرة حبك لأعلن ميلادي كامرأة لها مشاعر النساء وأحلام النساء بعدما كاد يتلاشى أملي في أن أعيش حياةً سوية، وبعدما ظننت أني سأمضي حياتي مثل راهبة.

جاء حبك ليضيء طريقي وليمنحني سبباً وجيهاً للتفاؤل وحب الحياة، تعودت أن أحلم بأفراح لقائك كل ليلة وأصطحبك إلى المتاجر المجاورة كل صباح لنشتري لوازم البيت، ثم نعود لأقرأ لك من كتابٍ تحدثنا عنه أو أحببنا أن نقرأه سوياً..

أيها الرجل الذي يحمل قلبي ويسكن في أبعد ما عمر الله، لم تعد للصباحات معالمها المشرقة بعد رحيلك.

لم أعد أخرج كثيراً، فالحياة هنا مملة وقاسية، تمر بي الأيام بطيئةً محملةً بالضجر لا تكاد تنقضي.

لا تتأخر حبيبي، فثياب أفراحي معلقة وموعدي مع السعادة مؤجلٌ ليوم وصولك».

اجتاحني شعور عارم بالشوق، ولازمتني رغبةٌ في الصمت وإحساسٌ بالنفور من الجميع وأحببت أن أبقى وحدي.

اتصل سلمان يدعوني للخروج لكني اعتذرت وآثرت البقاء في غرفتي مدَّعياً التعب.

آويت إلى فراشي باكراً تلك الليلة، وتقلبت طويلاً من دون أن يغمض جفني، فأضأت مصباحي وقرأت هوداً من الليل لكن النعاس لم يقترب.

حزمت بعدها أمري وتوجهت إلى البحر، إلى ذات المكان الذي ألفت.

كانت أنوار الشارع القريب تنعكس على مياة الخليج وهدوء الليل يخيم على المكان، فلا صوت سوى حفيف أشجار النخيل السامقة على طول الكورنيش كأعمدة الإغريق وأصوات السيارات العابرة يأتي من بعيد. تلفلفت بعباءتي وجلست أسرِّح النظر في الأمواج ترتمي متراخيةً كسلى على الرمال البيضاء.

ثمة جاذبية تشدني نحو البحر منذ الأيام التي كنت فيها صغيراً أتوق لرؤية أمي فلا أستطيع لتعقيداتٍ لا أفهمها، ليس أقلها عدم رغبة والدي وبعد المكان وهيبة القوم الغرباء الذين تعيش بينهم، كنت أهرب إلى البحر لأجلس عنده طويلاً، أبكي وألعب وأغمس في لجته حزن طفولتي الذي صادفني باكراً قبل الأوان، في نفس هذا

المكان قبل أن يغرس النخيل، وها أنا اليوم أعود إليه مثقلاً بحب امرأة أخرى أبعد مكاناً وأشد غربةً من أمي.

مكثت طويلاً أتأمل الأمواج المتتابعة وأفكر في صبرا وما يحول دونها، لن يعاني الرجل الكريم بلاءً كبلاء الحب الصادق الذي يصيب قلبه في ظروف مستحيلة، إن كتمه فاض واستعصى على الكتمان وإن مضى خلف نوازعه أسلمه إلى اللوم والأذى في مجتمع يتلقف الزلّات، كم من قزم يعلك في سيرتك وكم من شامتٍ يعيبُ عليك ما ليس سوى قطرة في بحر عيوبه.

بقيت ساهراً هناك حتى صدح الأذان متماوجاً مع النسيم، فحملتني قدماي المتعبتان إلى السيارة.

كلمتها في اليوم التالي وشكوت وقع رسالتها على قلبي، وتحدثنا طويلاً وضحكنا لكنها سألتني في آخر المكالمة ألا يطول غيابي.

* * *

باكرنا رمضان تلك السنة في أول يناير، لهذا الشهر في بلادنا جوُّه الاحتفالي الخاص، يبتهج الناس لقدومه ويجدون فيه فرصةً لتجديد الإيمان ووصل الأرحام التي باعدتها مشاغل المدنية الحديثة ولترميم العلاقات مع الأقارب والجيران، يتصالح المتخاصمون وتكثر الزيارات ويتبادل الناس التهاني بقدوم شهر الصيام والرحمة.

تكدس العائلات أطايب الطعام وتحتفل بالأطفال الملتحقين حديثاً بركب الصائمين، تمتد السهرات وتضاء المنازل والشوارع حتى السحور.

قوم يعبدون الله في المساجد يحيون الليل بالصلاة والذكر، آخرون يتابعون المسلسلات والمسابقات في المنازل، شباب يلعبون في الملاعب المضاءة بين الأحياء، وآخرون يرتادون المقاهي والأسواق.

يسهر أول الليل ويعمر بالفرح والضجيج وينام أول النهار، ويستكمل باقيه الكسل والتراخي حتى إذا كان قبل الغروب ساد جو من التوتر، تصدح الأبواق على الإشارات والمنعطفات وتسرع السيارات للّحاق بموائد الإفطار.

يهتم الجميع بالعمرة في رمضان، فيزدحم الحرم بالزائرين وتتنافس الفنادق وشركات السياحة لتقديم العروض، ويبادر أرباب الأسر إلى حجز التذاكر وضمان السكن قبل مدة قد تمتد إلى شهرين، تجد العائلات في رحلة العمرة متنفساً من سجون المنازل وفرصةً لتجديد الإيمان.

أما نحن فتعودنا السكن في منطقة العزيزية بمكة أسبوعاً كل عام، توثقت علاقة والدي مع ملاك البناية المنتسبين إلى الأشراف، وأصبح يتوسط لمن يرغب السكن بعيداً عن زحمة الحرم، من الأقارب والأصدقاء، يذهب الشباب إلى الحرم مشياً على أقدامهم طمعاً في الأجر، وتلتحق العائلات مع أول تاكسي سانحة ليمضي الجميع الليل هناك في التهجد والذكر.

لعائلتي الصغيرة شأنها الخاص في رمضان، فقليلاً ما أفطرنا في بيتنا، نعد طبقنا المفضل أو نشتريه من المطاعم ونمضي إلى بيت الوالد الذي يحب أن نجتمع عنده على الإفطار، يلاعب الأحفاد ويستأنس باجتماعنا حول المائدة التي غالباً ما يحضرها المدعوون من الأصدقاء أو الأقارب أو الجيران، مائدة عامرة تقدم للرجال وأخرى للنساء، وبالمناسبة فأنا لم أشاهد والدي أبداً يأكل مع النساء!.

تقدم القهوة والتمر أولاً ثم نذهب للصلاة في المسجد، وما إن نعود حتى تفرش السفرة الكبيرة، فلا تزال أطايب المأكولات تتوالى وتعرض للراغبين.

نتهرب من صلاة التراويح في المسجد المجاور لبيت أبي ونتفرق في مساجد الأحياء، فراغبٌ في الصلاة الخفيفة وباحثٌ عن الصوت الجميل وساعٍ إلى الدروس الدينية التي تكثر في ليالي رمضان، نتسابق في قراءة القرآن بداية الشهرثم ما يلبث أن يعترينا الكلل والفتور فنطبق المصاحف ونتركها للعام القادم.

أمضينا الليالي نعدُّ الأكلات الخليجية في الاستراحة ونأتي بالحلوى من البيوت أو من المطاعم القريبة، وكثيراً ما تسللت مع راشد وسلمان إلى مقهى السيف، فلليالي رمضان هناك لها طعم خاص.

لا أدري ما هذا الضيق الذي يعتريني ليالي الأعياد، ما إن يعلن العيد ويصدح التلفزيون بأغاني الفرح حتى يتسلل الحزن إلى قلبي وتستولي عليَّ الرغبة في العزلة والابتعاد، ذهبت تلك الليلة على غير عادتي إلى المقهى بعدما أحضرت ملابس نهلة من المشغل النسائي المزدحم وثياب الأطفال من أبي عبدو الخياط، كان سلمان وراشد وناجي ينتظرونني لنستكمل السهرة هناك.

فاجأني ناجي حين أخبرني أنه رتب اللقاء مع شيخة ولطيفة ثاني أيام العيد في منتزه النورس، وهو مجمعٌ فسيح على البحر يضم مقاه ومطاعم ومرافق ترفيهية تقصده العائلات أيام العطل والأعياد.

كان الخبر مفرحاً أخرجني من حالة الضيق التي داهمتني أول الليل فلم أقابلهن منذ دخول الشهر، وبقدر ما أراحني الخبر بقدر ما أشعل أشواقي لصبرا ليلة العيد، استأذنتهم كأنما لدورة المياه ورحت عبثاً أحاول الاتصال، خطوط الهاتف مشغولةٌ كعادتها ليالي الأعياد.

عاودتني حالة الضيق بعدما ذهب راشد وناجي وبقينا ساكتين ننفث الدخان ونسرِّح أنظارنا نحو السفن العابرة.

قلت: ـ سلمان، لا أدري ما هذا الضيق الذي يعتريني ليالي الأعياد.

قال: ـ وأنا كذلك، ربما لأننا بعيدان عمن نحب.

قلت ضاحكاً: ـ إلى أيهنَّ تشتاق الليلة، أم تريد أن يحضرن جميعاً؟.

ضحك وهو يومئ بمشرب الأرجيلة قائلاً: ـ قلبك على الأقل مع امرأة واحدة تعرف أين هو، أما أنا فقلبي موزع بين الجميلات.

قلت: ـ أظننا لا نحزن بسبب الحب والوحدة بل بسبب ما نفتقد من السلام مع أنفسنا، أعتقد أن العيد موقف للتأمل ومناسبةٌ لاستعراض الحال وما آلت إليه، لهذا يحزن من لم يدرك السلام ومن لم يُمنح نعمة الرضا والتسليم.

قال: ـ ربما يكون الشعور بالوحدة أو الفراغ العاطفي، هل تعلم أن أعلى معدلات الانتحار في أمريكا تكون في ليالي الأعياد.

حافلٌ صباح العيد بالتهاني ومزدحم بالفرح والحلوى!.

ذهبنا بعد الصلاة إلى بيت الوالد، كما هي العادة، ودخلنا إلى المحرم بعدما باركنا له بالعيد فسلمنا على أخواتي البنات بملابسهن الأنيقة الزاهية وقبلت رأس أم إبراهيم، فلفحتني رائحة حنائها التقليدي، بقيت نهلة هناك وعدت أنا إلى مجلس الرجال.

يستقبل الوالد المهنئين صبيحة العيد في الصالون الكبير، فقد جرت العادة أن يلتقي الجيران والأقارب عند كبار السن لمعايدةٍ مختصرة بقدر ما يكفي من الوقت لتناول فنجان قهوة العيد ثم ينتقلون إلى منزل آخر، وتتواصل الزيارات والمعايدات طيلة يوم العيد.

كلمت صبرا بعد محاولات عديدة فارتعش قلبي لسماع صوتها وكادت تخنقني العبرة، لكني تجاوزت الموقف وباركت لها بالعيد ووعدتها أن يكون عيدنا قريباً، ثم طلبت والدها فأخبرتني أنه نائم،

حمَّلتها له المباركة ووعدت أن أتصل آخر النهار إن مكنتني خطوط الهاتف.

ذهبت بعد صلاة العصرمصطحباً أطفالي إلى بيت أمي، لكني صدمت حين رأيت عينيها المتورمتين من أثر البكاء، سكتُّ ولم أجرؤ على السؤال، فأنا لا أعرف الكثير عن حياتها في هذا المنزل، ثم ما الذي يمكنني أن أفعله إن كان زوجها يؤذيها أو حتى يضربها.

فرحتْ برؤية سلطان وعمر وأجلستهما في حجرها ولاعبتهما لكنها قليلاً ما رفعت رأسها أو نظرت في عينيَّ، أظنها كانت محرجةً. أخذتهما إلى الداخل عندما أردت الاستئذان وعادت بهما محملين بالحلوى واللعب، وعدت أنا محملاً بهمٍّ أمي التي كانت ضحيةً منذ البداية، تزوجها أبي في نزوةٍ لم تدم أكثر من سنتين ثم طلقها حين رفضت محبوبته أم إبراهيم، في إحدى مشاحناتهما، العودة إلى البيت وفي ذمته امرأة أخرى، لم تكن أمي جميلةً مثل أم إبراهيم ولا من أقاربه الأدنين، لذا كانت الضحية.

قلت متودداً لنهلة حين عدت إلى المنزل: ـ إنني جائع يا أم سلطان.

ردت بجفاء: ـ هذا، عندك الهاتف، اطلب ما تريده من المطعم، متعبة ولا أستطيع عمل شيء.

قلت بسخط: ـ والله لو كنت عازباً أسكن وحدي لكان وضعي أفضل.

قالت بتهكم، وهي تدير قنوات التلفزيون: ـ وتدرك أنك متزوج!؟.

تصاعد الخلاف حتى انتهى بي غاضباً في غرفتي الصغيرة بعدما كنت أخطط لقضاء الليل في غرفة الزوجية.

* * *

وصلنا إلى مدخل العائلات بعدما طمأنتانا إلى ذهاب السائق، كانتا تضعان طرحتين من الحرير الأسود الشفاف وترتديان عباءتي كتف مطرزتي الأكمام والأطراف، لم تعد فتيات المدن تلبس العباءات التقليدية إلا قليلاً، بقيت تلك العباءات في عهدة بنات القرى وبعض المحافظات.

رحبنا ببعضنا تهامساً في المدخل كي لا يشعر الناس من حولنا، ومضينا نحو طاولتنا المحجوزة مقابل البحر تمنحها حواجز الأرابيسك بعض الخصوصية ولا يفصلها عن الشاطئ سوى ألواح الزجاج، بادرتني لطيفة حال جلوسنا بالسؤال عن صبرا، ولم يفاجئني أنهما لم تتصلا بها إلا قليلاً أيام عودتهما، فنحن لا نحتفظ عادة بالعلاقات لوقت طويل ما لم يكن ثمة رابط من عاطفة أو مصلحة، كما لاحظت أن العلاقة قد توطدت بين المجموعة من بعدي وأنهم التقوا وتحدثوا كثيراً، فقد سادت الألفة حتى بدوت كالغريب.

النادلان اللذان باشرانا كانا معتادين حضور جلسات العشاق والأصدقاء، بدا ذلك واضحاً من نظراتهما كلما اقتربا لتبديل الأطباق أو لتجديد النار على الأراجيل.

جاءت شيخة بكامل زينتها ترتدي طقماً من الذهب المزين بالفيروز على ثوبٍ أسود طرزت أكمامه وصدره بالأزرق الفاتح، أما لطيفة فناعمة الزينة كما عرفتها، تعقد شعرها ذا الخصلات الشقراء خلف رأسها وتلبس خاتم سوليتير على شكل كمثرى وثوباً خمرياً تتخله خيوطٌ مذهبة رفيعة تتماوج كلما تحركت تحت الضوء الخافت.

أخذتنا الأحاديث الممتعة لوقتٍ ليس بالقليل، نكات راشد وضحكات شيخة المجلجلة، تضع يدها على فمها وتتمايل ليتناثر

الشعر الأسود اللامع على كتفيها وتشير إلى راشد أن كفى، بينما يستمر في التعليق، تتفتح قريحته في حضورها!.

سألتني لطيفة إن كنت لا أزال على تواصلٍ مع صبرا، وتعجبت حين أخبرتها أني راجعٌ إليها عمّا قريب.

أفاقت شيخة من نوبة الضحك وعلقت موجهةً كلامها إلى لطيفة، وما يزال التبسم يطبع شفتيها: ـ إنهما في ارتباط جادٍّ حقاً!.

قالت لطيفة كأنما تذيع سرّاً: ـ علاقتهما أكثر من صداقة أو علاقة حب عابرة.

كاد ناجي أن يتدخل لكنه تمالك نفسه، فقد سبق وتحدثنا.

قالت شيخة، وقد ارتسمت على وجهها علائم الجدية: ـ عمار، أنت رجل متزوج..

وسكتت كأنما تذكرت أن صداقتنا لا تخولها الوصول إلى هذه الخصوصية.

غيَّرنا مسار الحديث، فلم يكن أحدٌ راغباً في فتح حوار لا يدرى إلى أين سينتهي.

انتقلنا مثل كل المتحدثين تلك الأيام إلى حصار العراق وحال مجلس التعاون الخليجي والوعود المأمولة، وإلى السياسة الأمريكية في المنطقة التي أضحت حديث من لا حديث له.

استأذنت بدعوى الإرهاق بينما استمرت السهرة، لم يكن من اللياقة أن أبقى عذولاً وضيفاً ثقيل الظل أكثر من ذلك!

غلبني الشوق إلى صبرا في طريق العودة فتحدثت معها وبلغتها اشتياقي وسلام الأصحاب، كانت مسرورة بذكرهم وسألتني عن حال الفتاتين وهل كان اللقاء صعباً كما تسمع، وضحكت كثيراً عندما رويت لها حكايات راشد، لكنها اعتذرت عن والدها الذي كان نائماً.

اتصلت بإبراهيم حين لم أعد قادراً على الصبر وأخبرته أني سوف أزوره في مكتبه.

قررت أن أبدأ بأخي، أول من أبوح له بمعاناتي ومكنون قلبي عسى أن يساعدني أو يجد لي طريقاً يوصلني إلى المرأة التي أحببت. ومع أني أعرف في قرارة نفسي أنه يفكر بطريقة نفعية ويزدري المشاعر أو يقيدها إلى أبعد الحدود، إلّا أنه لم يكن أمامي من خيار، فهو أخي الأكبر والأكثر تأثيراً على والدنا.

انشغل عني لبعض الوقت يدقق في الأوراق المتراكمة على طاولته، بينما جلست على الأريكة المقابلة غير المريحة أفتش عن مدخل مناسب للحديث، فما زالت جرأتي تخونني أمامه، لا أدري أهو الخوف الموروث من زمن الطفولة حين كان يعاقبني إن لم ألعب معه أو يحميني من الأولاد المتسلطين في المدرسة!؟.

ترسخت صورة الأخ الأكبر وهيبته من تلك الأيام في قلبي، شربنا بعد فراغه القهوة على مهل، وتحدث في أمور العمل التي لا أفقه فيها الكثير، لكني بقيت ساكتاً عن حاجتي إلى أن قال: ـ عمار، ألم تذكر أنك قد جئت لأمر؟.

تلعثمت وبح صوتي قبل أن يقاطعني: ـ أظنك قد أحببت امرأة في باريس وتريد أن تراها.

قلت، حين لم تترك لي صراحته ومباشرته من مجال: ـ أجل هذا ما جئت من أجله.

قال: ـ لكن يا أخي، إذا أطلقت لنفسك العنان سوف لن تكفيك رؤيةٌ واحدةٌ ولن تقف عند حد.

قلت متصنعاً ابتسامة: ـ أولاً، من أخبرك بأمر الفتاة؟.

قال: ـ عمار، أنت أخي ومن الطبيعي أن أقرأ ما يدور في خلدك. ثم أردف ضاحكاً: ـ الشباب أخبروني أنك متعلق بفتاة

تعرفت عليها أثناء الدراسة، تعلقك بها ليس مشكلة طالما بقيت الأمور ضمن المعقول.

قلت: ـ ماذا تعني بالمعقول؟.

قال: ـ أعني أن تراها وقت الإجازات أو وقت المصيف، بيني وبينك لو كانت لك صاحبة قريبة في إحدى مدن الخليج لكان أفضل، كلهن متشابهات، المهم أن تجد من تسليك وتُروِّح عنك وأن تجدها كلما احتجتها.

قلت، وقد استجمعت قواي لأتحدث: ـ إبراهيم أريد أن أتزوج الفتاة. واستعجلت قبل أن يقاطعني: ـ إنها مختلفةٌ عما تفكر فيه، وأنا أحبها.

لاح الغضب الذي أعرفه في عينيه حين أخذته المفاجأة، وقال بعد لحظة صمت وبعدما أسند ظهره إلى الوراء: ـ عمار، لا بد أنك تمزح.

قلت: ـ لا والله، وإلّا لما أتيتك طالباً العون.

قال: ـ ماذا تقول؟، أنت متزوج ولديك أطفال، إذا أردت التعدد وكنت مصمماً فالنساء هنا كثير، ما الذي يذهب بك إلى امرأة لا تعرف عنها شيئاً، أم ستقول إنه الحب. وضحك بتهكم.

قلت: ـ أعرفها وأعرف والدها وهم من خيرة الناس.

قال بصوت عال: ـ أنت لا تفهم، هل تعرف عائلتها أم هل تعرف سيرتها وسيرة أمها، ثم حتى لو عرفتهم فهل يعرفهم والدك وعائلتك والمجتمع الذي تعيش فيه، عمار، إن كان كل شاب يسافر للدراسة سيأتي بأجنبية فهذه مصيبة، كيف ستدخل دماً غريباً إلى عائلتك لا تعرف عنه شيئاً، ما هذه الأنانية!؟.

قلت، وقد نهض عن كرسيه يريد الخروج: ـ ليست أنانية، من حقي أن أتزوج المرأة التي أحب واختار، هذا حقٌ طبيعيٌ واضح،

وقد جئتك أطلب مساعدتك لأنك أخي وأقرب الناس وأقدرهم على إقناع والدنا.

قال، وهو ينزل الدرج أمامي: ـ ألا تستحي من هذا الكلام، أترك هذه الترهات، يمكنك أن تتمتع بصحبة الفتيات مثل كل الشباب في حدود الستر ومن دون أن يعلم أحدٌ سوى أصحابك المقربين، أنصحك أن لا تعيد شيئاً مما قلت، لا تفضحنا!.

ركب سيارته ومضى من دون أن يلتفت، وأنا واقف عند بابها.

عدت إلى البيت غاضباً محبطاً، لماذا خذلني وقد ظننت أو رجوت أن يساعدني ويقف إلى جانبي، أم أنه مثل الآخرين على حق وأنا الوحيد الذي ما زال يؤمن بالحب كما في الروايات والأشعار في زمن لا يحب الناس فيه سوى ذواتهم ونزواتهم؟.

عدت بعد ساعاتٍ من الحزن والتفكير لأقول إني أحبها حقاً، ولا أتمنى أن أستبدلها بامرأة أخرى ولو كانت مَنْ وابنة مَنْ!.

أريد أن أقترن بالمرأة التي يحبها قلبي ويهش لذكرها، فأين الخطأ؟، ما الذي يجعلنا نعقد الأمور الواضحة البسيطة، ولماذا نتغاضى عمّا نسميها الصحبة واللعب بمشاعر النساء وتجاوز حدود الدين ونمنع أمراً منطقياً كالزواج، ما الذي يجبرني على العيش مع امرأة لا أحبها، قد تجد سعادتها مع رجلٍ آخر تماماً كما وجدت سعادتي مع صبرا؟.

راح قلبي يزداد تمسكاً بها كلما ساوموه، أعدت التفكير فيما قاله إبراهيم وما قاله أصحابي وكيف جادلتهم حتى أصابني الصداع، قلت في نفسي، وأنا أبحث عن قرص أسبرين: ـ سيقتنعون في النهاية، كثيرون تزوجوا بأجنبيات وخالفوا رأي أهلهم ثم صبروا حتى عاد الأهل فاقتنعوا واندمجن في العائلات والمجتمعات، أعرف رجلاً تزوج بزميلته الألمانية حين كان طالباً يدرس هناك، وهي الآن أم

أولاده وسيدة منزله تعيش مكرمة بين أهله وقومه، أم أنني الوحيد الذي سيغلبونه ويمنعونه؟. هكذا وجدت طريقي إلى التفاؤل من جديد.

اتصلت بي شيخة وفتحت لي أبواب قلبها في سهرةٍ طويلةٍ على الهاتف، بدت لي غير شيخة المتباهية التي عرفتها في باريس، كم هي عاطفية وبسيطة في جوهرها.

استمرت مكالماتنا وترسخت صحبتنا بعد تلك الليلة، وكنت أجد في مساندتها مدداً آخر لمواصلة الطريق.

بقيت غاضباً من إبراهيم لأسبوع كامل إلى أن التقينا في بيت الوالد بعد صلاة الجمعة فعانقني وقال مناجياً: ـ أخي عمار، لا تؤاخذني، كنت غاضباً ذلك اليوم.

لاح عندها أمل بالسرور قبل أن يردف: ـ أعرف أن ما تعانيه هو اندفاع الشباب، سوف ينتهي وتنساها مع الوقت، لا يمكن أن تكون جاداً فيما أخبرتني، فأنت أعقل من ذلك!.

سكتُّ، فلم أكن أريد أن أثير ضجةً في هذا المكان ولا في هذا الوقت، واكتفيت بالابتسام بينما يربت على كتفي ونحن ندخل المجلس.

تأخرت عند الوالد إلى قرب صلاة العصر فلم أرَ عوف، أخبروني حين سألت أنه يعتزل في غرفته لأوقات طويلة محتضناً أكداس الكتب التي يحضرها من أصحابه، انتظرته حين خرجنا من المسجد وسألته عن أحواله وعن الكتب التي يقرأها سؤال المستطلع، فقال، وهو ينظر إلى الأرض ويلف طرفي شماغه الذي يلبسه من دون عقال: ـ تعال معي أهديك بعضاً منها، عسى الله أن يصلح حالك.

كدت أقول، وما به حالي؟ لكنني آثرت ألّا أزعجه، جلست مقابلاً له تحول بيننا كومة الكتب التي أخذ منها واحداً كان يقرأه فيما

يبدو قبل أن يخرج إلى الصلاة، ما إن لمحت العنوان حتى أصابتني القشعريرة وقلت في نفسي: ـ يا للهول، شاب صغير ليست له تجارب في الحياة ولا ممارسة كافيةٌ في طلب العلم، متشددٌ في التدين يقرأ «معالم في الطريق»، أي طريق سيسلكه به، وأي طاقات سيفجرها في قلبه، يا لأخي المسكين.

«معالم في الطريق» من أهم الكتب التي أسست للفكر الجهادي في العصر الحديث ومن أكثرها تأثيراً، أظنه وتوأمه «العدالة الاجتماعية في الإسلام» قد شكلا المدرسةَ الفكرية الأقوى وذات القبول الأوسع لدى الجماعات المتشددة في تفسيرها لمفاهيم العبودية والجهاد والولاء والبراء.

ومع إيماني بعبقرية سيد قطب وعمق مفاهيمه وسلاسة عباراته إلّا أني أتوقف في دعوة الشباب لقراءته قبل أن يؤسسوا قواعد العقيدة، وقبل أن يترسخ علم الدين وأصوله في قلوبهم وعقولهم، ذلك أن عباراته وتحليلاته المصوغة في قالب أدبي جذاب يشد القارئ تيارها حتى تحتويه وتستولي على عقله، إذا قرأت التحليل المنطقي المترابط الذي بسطه في كتابه «في ظلال القرآن» ستؤمن حتماً بقدرته الفلسفية واللغوية الفائقة، أتذكر نصوصاً وضعها توطئةً وتمهيداً لتفسير سورة المائدة حلل فيها سنن الكون وصراعات الأمم وصولاً إلى العصور المتأخرة، لم أصادف مثلها قوةً وعمقاً.

أما التقاطه للإيماءات والإشارات اللطيفة في القرآن فعجبٌ قلَّ من يجاريه، أنظر مثلاً إلى تفسيره لقصة يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز وكيف توقف ليضيء على ما نمر به كل يوم من دون أن ننتبه أو نعي ما يقول، كيف يفسر طلب العزيز من يوسف عليه السلام أن يعرض عن مكيدة المرأة ويتجاهلها، ويأمر زوجته أن تستغفر لذنبها وقد علم من أمرها ما علم؟، لم يقتل ولم يضرب ولم يصرخ انتقاماً لما أهدرت

من شرفه، قال سيد قطب معلقاً: ـ تلك شيم القصور وأخلاق الطبقات المخملية، فالمهم ألّا تنتشر الفضيحة وألّا تتجاوز أسوار القصر.

لا أدري كيف يمكن لمراهق مثل عوف أن يصمد لحجج «معالم في الطريق»، وكيف له أن يقاوم منطقه؟.

قلت له: ـ أليس من الأفضل أن تقرأ شيئاً في الأصول أو الفقه وتتدرج في المعْرفة.

قال، وهو يطوي الكتاب بين يديه: ـ علماء الفقه والتفسير والحديث كثيرون، الأمة بحاجة إلى شباب يفهم عقيدة الولاء والبراء والحاكمية ليعرف أعداء الدين من أصدقائه.

قلت: ـ لكن هذه العلوم تحتاج إلى معرفة بأصول الدين وقواعد الفقه والفتيا، بعضكم يقيِّم تدين الناس قبل أن يحفظ جزءاً أو جزأين من القرآن.

قال، وقد ضم يديه على الكتاب: ـ خرج بعض الصحابة إلى الجهاد وهو لا يعرف سوى الشهادتين. .

قاطعته: ـ كانوا يجاهدون تحت إمرة النبي ﷺ وتحت إمرة خلفائه الراشدين، بعض الشباب اليوم يقتلون المسلمين أو يقاتلون ذميين ومعاهدين أمَّنهم ولي الأمر ودخلوا أرض المسلمين بأمانه وعهده، وقد نص الحديث على النهي عن أذى المعاهدين والذميين، فكيف بقتلهم!.

احتد عندئذٍ فقاطعني بصوتٍ عالٍ على غير عادته: ـ أين عهدهم وهم يحتلون أرض المسلمين، ينهبون ثرواتهم ويزرعون الفتن بينهم.

سكتُّ إذ لم يكن من جداله نتيجةٌ، وتيقنت أن أخي قد قارب الخطر. تعجبت لثقته وطمأنينته وشعرت أنه يعرف الطريق الذي يسلكه وأن الأشياء التي نلهث خلفها رخيصةٌ لا تساوي عنده شيئاً.

انقضت تلك الفترة صعبة وقاسية، أمضيت لياليها بالسهر والسهاد وأيامها بالهموم والتردد بين الأفكار، حبٌّ عارم يهيم بي ويتملك قلبي وظروف قاسيةٌ تكبلني، بت موزعاً بين رغبتي في الظهور بمظهر الولد الصالح عند والدي وبين أمنياتي في الحب والسعادة، كنت أدعو كل ليله أن يتفهم حالتي وصدق معاناتي فيأخذ بيدي إلى من أحببت.

أكلمها لتأنس بصوتها وحشة روحي ربما مرتين في اليوم الواحد.

اتصلت بها ذات صباح وكانت مبتهجة على غير عادتها مذ رحلت.

قالت: ـ عمار، تخيل من وصل إلينا؟.

قلت متفائلاً ومن دون أن أحسب خطواتي: ـ مازن؟.

قالت، وبدا على صوتها بعض الفتور: ـ لا، إنه ريموند، جاء من كندا، ألم أحدثك عن ريموند، صديقنا وجارنا يوم كنا في لبنان، ألم تشاهد صوره في الألبوم.

قلت: ـ بلى، كيف هو وعائلته، وهل من أخبار تسركم.

قالت: ـ أخبار تسرنا؟ تقصد عن مازن؟ لا شيء، قال إنه ربما يكون في مكان ما في أمريكا، آه يا عمار كم فرحنا برؤية ريموند، كأنما أعاد الماضي بذكرياته، كأنما عاد معه شيء من لبنان الحبيب، بكى والدي حين رآه وراح يهذي وهو يحتضنه: ـ مازن، مازن!.

قلت: ـ وأنت؟.

قالت: ـ وأنا بكيت، ماذا تظن؟ ريموند جزءٌ من عائلتنا، الجيران عندنا مثل الأهل، عشرة عمر، على حد قول إخواننا المصريين، ثم إنّا نجد فيه ريح مازن!.

بدأت الغيرة تتسرب إلى قلبي بعد المكالمة، وراح وسواس الشك يطاردني، يحول بيني وبين الطعام ويؤرقني عن النوم.

آه... يا ربِ، من جاء بريموند هذا ليصادر حبي ويحطم قلبي؟، من ينقذ أحلامي من ريموند؟.

يعتصر الألم قلبي كلما تذكرت حديثها عنه، ماذا أفعل؟.

شابٌ وسيم وجارٌ وغني.

ما الذي جاء به من أقصى الأرض إن لم يكن مشتاقاً إليها؟.

لا، ليست ممن يزيفن المشاعر. وأطمئن إلى معرفتي بها إلى أن أتذكر ابتهاجها فيعاودني الشك من جديد.

اتصلت صباح اليوم التالي فأخبرتني فاطمة أنها خرجت مع ريموند، هكذا لبضعة أيام كانت جحيماً من الغيرة والهواجس والأفكار المزعجة التي لم تفارق مخيلتي.

كنت أخرج من بيتي أريد الاستراحة فتهيم بي الظنون، تراها نسيتني وتجاوزت أيامي؟، ما الذي تنتظره من غريب مثلي لم يقدم لها سوى الوعود، ما الحق الذي أملكه فيها يجعلني غاضباً كل هذا الغضب؟، ليست زوجتي وليست خطيبتي، وربما لم تعد حبيبتي، ألا تستحق الثناء لما منحتني من أيام سعادةٍ لم أعرف مثلها، كيف أصادر حقها في اختيار من تحب؟، ثم أنتبه إلى وجع وسوداوية أفكاري فأتوقف.

لا، لا يمكن، ليست هذه هي الحقيقة. وأستعيد صورتها المشرقة لبعض الوقت ثم ما يلبث الشك أن يتسلل إلى قلبي ويكبر.

كيف أصل الآن إليها وقد حال دونها ريموند، من يمنع قلبها من حبه وهو يتفسح ممسكاً بيدها وبينهما من ذكريات الطفولة والشباب ما بينهما، آه يا للعذاب، يا لقلبي المسكين، وتأخذني دوامة الأفكار فلا أنتبه إلا عند بيت والدي!.

سألني سلمان حين لاحظ حالتي، فقلت متردداً: ـ لا شيء. وكنت على وشك البوح، كنت محتاجاً إلى من أشتكي له.

قال: ـ أنا أعرفك وأعرف الحيرة في عينيك، بالله عليك حدثني، ألست صديقك الذي يبوح لك بكل شيء.

قلت: ـ إنها صبرا يا سلمان، منذ أيام لم أعد قادراً على الحديث معها.

قال: ـ أهناك ما يمنعها؟، أهي مريضة؟.

قلت متنهداً: ـ لا، مشغولة مع ضيف.

قال: ـ ضيف من أهلها؟.

قلت: ـ لا، جارهم جاء من كندا وهو من معارفها أيام الطفولة.

ثم اندفعت: ـ يا إلهي ما جاء إلا ليصادر أحلامي.

قال: ـ تغار وتحرق قلبك من أجلها!؟، فأين عزة نفسك؟.

قلت: ـ لكنها المرأة التي أحببت.

قال، وهو ينفث الدخان ويشيح بنظره صوب البحر: ـ

وقلت لها يا عز كل مصيبةٍ إذا وطِّنتْ يوماً لها النفس ذلَّتِ

فإن سأل الواشونَ كيف هجرتها فقل نفس حرٍ سُلِّيت فتسلتِ

ثم أردف: ـ أعرض عنها، إن كانت تحبك فسوف تتصل من تلقاء نفسها وإلا فاهجرها ولا تلتفت، لعلها وجدت من هو أكثر ملاءمةً منك حين لم تكن قصتها معك سوى فصلٍ من التسلية وسد الفراغ، أنت تحمِّل الأمور أكثرمما تحتمل، صدقني ليست في النهاية سوى فتاة مثل كل الفتيات.

أحياناً أميل إلى ما يقول، لكن زلزال الغيرة المتمادي يشل قدرتي على التفكير ويطغى على ما كنت أرتب من حجج العقل والمنطق، كأنما اكتشف لأول مرة أنها قد تكون لرجلٍ آخر.

كلمتها أحد الأيام، وكنت يائساً من أن أجدها قرب الهاتف، فهي

إما خارجة مع ريموند أو نائمة، لكنني صادفتها حالما رن جرس الهاتف، ويا لشدة ارتباكي.

قلت: ـ آه، صبرا كيف أنت؟. وسكتُّ.

قالت: ـ أهلاً عمار، أين أنت يا رجل!؟.

قلت في نفسي: ـ أين أنا؟، أنا على رصيف الانتظار، أنا هنا حبيبتي في صحراء الظنون الموحشة تأكلني نار غيرتي، أم تخشين أني قد وصلت لأراك متلبسةً بجريمة حبه؟.

قاطعت أفكاري: ـ عمار، سأتحدث معك فيما بعد، سامحني ريموند ينتظر في الأسفل.

وقفت واجماً لا أحير جواباً، وبقي الهاتف في يدي لا أدري كيف أصنع به.

انهارت أحلامي بعد تلك المكالمة، وشعرت بالجرح المؤلم وقد أصاب قلبي وكرامتي.

فقدت شهيتي للطعام وأدمنت الأرجيلة والقهوة ما أدى بي إلى المرض وصارت آلام المعدة تعتادني بشكل متزايد.

يمر بي سلمان كل مساء لنذهب إلى المقهى فيجبرني هناك على تناول الطعام الذي ما ألبث أن أتقيأه.

مضت عدة أيام ولم تكد عيني تفارق شاشة هاتفي رجاء أن تتصل لكنها لم تفعل بينما تمنعني عزة نفسي، كيف وهي التي قطعت المكالمة ووعدتني أن تكلمني، ما الذي سيحدث لي، وكم ستكون خيبتي كبيرة إن كلمتها وصدتني مرةً أخرى؟.

كانت شكوكي تزداد وتتعاظم رغم أن قلبي يحبها ولا ينفك يذكرها، كم نصحته وكم عذلته فلم أجد لثنيه عن حبها من وسيلة.

جلسنا إحدى الليالي الباردة قرب المدفأة وقد تدثرنا بالعباءات

الشتوية، قلت، وهو يصب الشاي بعد حديث مطولٍ في شؤون النساء: ـ تذكر قول الشاعر:

إنَّ من يأمنُ النساءَ بشيءٍ ... بعد هندٍ لجاهلٌ مغرورُ
كلُّ أنثى وإنْ بدا لك منها ... آية الحب حبها خيتعورُ

قال: ـ نعم، ولكن أريدك أن تفكر معي في شيء آخر. واستطرد، بعد رشفة شاي: إذا صادفت المرأة رجلاً يميل إليه قلبها أكثر من حبيبها الأول، ولم يكن ثمة ارتباط يحملها على الالتزام ما الذي تظنه يمنعها أن تتبع قلبها، لو كنت مكانها أيها الرجل أما كنت لتختار المرأة التي يهواها قلبك؟ لماذا نتهمها بالخيانة ونصادر حقها في اختيار من تحب!؟.

قلت، وقد أزعجتني الفكرة: ـ لا يشترط في الالتزام يا سيدي أن يكون مكتوباً أو موثقاً، فالحب التزام والوعد التزام، أليس كذلك؟.

قال: ـ لا أدري، لكن أليس من الظلم أن تعلق حياة امرأة في انتظارك بينما تعيش حياتك الطبيعية بين أهلك وأحبابك؟.

زادت أحاديثه من مخاوفي وربما من آلامي، وتعاظم القلق حتى صرت ألاحظ الدم كلما تقيأت، كنت خارجاً إلى العمل ذات صباح شديد الرياح من دون إفطار حين شعرت بدوار خفيف ما لبث أن اشتد حين قدت سيارتي، ثم عاد وتزايد حتى فقدت توازني وأنا أصعد السلالم بينما أسمع صوت أحد الزملاء: ـ سلامات عمار!؟.

حاولت أن أتشبث به لكني سقطت فلم أفق إلا في المستشفى يجلس والدي على الكرسي المجاور لسريري منحنياً إلى الأمام متكئاً على العصا، ينظر إليَّ من دون أن يتكلم بشيء، وإلى جانبه إبراهيم يترجم ما قاله الطبيب الواقف في الجهة الأخرى، بينما يتكئ عوف على الجدار وراء والدي، ما أصابني من الإغماء كان سببه الإرهاق

وقرحة المعدة. لا أدري إن كانوا قد أخبرو أبي عن الأرجيلة قبل أن أفيق، لكني رأيته يهز رأسه كالمتأسف لحالتي.

أكثر الطبيب من الأدوية وأكثر أهلي وأصدقائي من الزيارة، هذه نهلة وأخواتي ثم سلمان ثم راشد وبعض الزملاء يأتون تباعاً حتى مللت وأطفأت النور مدَّعياً النوم، وما هي بعد ذلك إلا لحظات حتى سمعت صوت أمي: ـ إنه نائم، دعوه ليرتاح.

تنبهت وناديتها من دون شعور: ـ أمي، أمي.

عادت مسرعةً فاحتضنتني وبكت، فلا سبب أنسب من هذا للبكاء!.

مسحت على رأسي ووجهي وأطعمتني بيدها وقرأت عليَّ داعيةً الله أن يصلح حالي، كأنما تعرف ما أصابني!.

أمضيت اليوم التالي في تلقي الإبر والكبسولات واستقبال الزوار، وكما توقعت أعاد سلمان الزيارة في المساء يحمل كتاباً ادَّعى أنه سيسليني.

قال، وهو يسحب الكرسي ليجلس قريباً: ـ أزعجك الزوار؟.

قلت: ـ لا، لكن بعضهم يتسلل ليفسد غفوتي بعدما تصيَّدتها لوقتٍ طويل، ثم يمضي ليتركني والأرق!.

قلت، حين غلبني الحنين وهو يتناول الجريدة المطوية عند رأسي:ـ

وإذا عادتِ العوائدُ يوماً   قالتِ العينُ لا أرى من أريدُ
ليت هنداً تعودُني ثم أقضي   إنها لا تعودُ فيمن يعودُ

أماط الجريدة عن وجهه وقال ضاحكاً: ـ لا تريد زيارتي؟ الحق عليَّ إذاً.

قلت: ـ العوائد جمع عائدة وأنت مذكَّر يا سيدي. وضحكنا.

خرجت من المستشفى بعد أيام وما زال جرحي طرياً نازفاً، يهفو

قلبي صوب بلادها وتكسو صورتها الباسمة جدران ذاكرتي.

تساكنت والحزن، وبقيت مشتتاً لا أدري إلى أين أمشي إلى أن جاء اتصالها في أحد الأمسيات وكنت في الطريق إلى الاستراحة.

قالت: ـ ألو عمار، أين أنت، وحشتني.

قلت، وقد تملكتني الدهشة: ـ أنا هنا حبيبتي حيث تركتني.

قالت: ـ سلامات، ما به صوتك؟.

قلت، مغالباً غصة الشوق: ـ أبداً لا شيء، أين كنتِ؟.

قالت: ـ كنت مشغولةً مع ريموند، يا إلهي لم نترك مكاناً.

قلت: ـ وكيف هو ريموند؟.

سكتت لبعض الوقت ثم قالت، وقد تغير صوتها: ـ ألهذا لم تتصل؟.

قلت، وقد سبقتني الكلمات: ـ صبرا، يمكنك أن تنشغلي مع من أحببت، ليس لي أن أمنعك، أنما أريد أن أكون..

قاطعتني: ـ مهلاً، مهلاً، عمار ماذا تقول، يا إلهي..! ألهذا أنت غاضب ولم تتصل، يا لسوء ظنك. واندفعت تبكي.

سكتُّ حين فاجأتني، وفاجأني ما حدث فلم أتكلم حتى أكملت: ـ أتتركني عند أول عقبة تخيلتها من تلقاء نفسك، لم تثق بي ولم تكلف نفسك عناء السؤال.

لمَ لم تسألني عن طبيعة علاقتي به إن كنت قد نسيت ما أخبرتك، أم سبق وكذبت عليك؟، ألا يحق لي أن أفرح ولو قليلاً. واستعبرت من جديد.

بقدر ما كان موقفي سيئاً وما أحرجني بكاؤها وحماقتي بقدر ما أراحني زوال الوهم الذي كاد يذهب بعقلي.

قلت: ـ حبيبتي آسف، لا أطيق فكرة أن يقترب منك رجل آخر.

قالت: ـ لكن هذا جارنا وصديق أخي، نشأنا في بيتين متجاورين ليس بينهما سوى جدار، نأكل معاً، نتدرب على البيانو ونلعب في غرفة معيشتهم، لم نشعر أن لنا أصولاً مختلفة حتى اليوم.

قلت معتذراً: ـ كيف يطمئن قلبي!.

قالت: ـ الأمور مختلفةٌ عندنا عما هي في بلادكم، صدقني أني استقبلته بالأحضان وودعته بالدموع ولم أشعر أنه يختلف عن أخي مازن في شيء، دعك الآن من هذا وأخبرني كيف تركتني عند أول عقبه؟.

أراحني سفر ريموند وأحرجني سؤالها فقلت متلعثماً: ـ عندما وعدتني أن تتصلي ولم تفعلي أصبت بالمرض ودخلت المستشفى..

قاطعتني بلهفة: ـ لا بأس عليك، لم أكن أقصد أنما نسيت وانشغلت مع الضيف.

ذهب حزني وقلقي فعدت إلى الانشراح، عاد إلى الأغاني رونقها وشجنها وعاد إلى الورود عبقها وجمالها وبقدر ما كان الأمر شاقاً مرهقا بقدر ما عرفت حاجتي وأنها قد لا تنتظرني إلى الأبد.

* * *

ذهبت ليلة الجمعة متأخراً إلى الاستراحة فراعني تجمع سيارات الأمن عند استراحة أبي نواف التي تقع في الشارع الخلفي الموازي لشارعنا، مكان هادئ اختاره بعيداً عن الضوضاء ليرتاح فيه مع أصدقائه من المسؤولين والوجهاء من عناء العمل وإزعاج المواطنين، وكان سعود، أخو زوجتي، واحداً من تلك المجموعة وإن لم يكن مسؤولاً ولا وجيهاً.

ما إن وصلت ورميت بين الجالسين بالخبر حتى تطايرت الاتصالات فما لبثت أن جاءت بالأخبار، صناديق خمور ومخدرات ومجموعةٌ من بنات العائلات المعروفة.

تناقل الناس الأخبار كالمغتبطين بانتشارها وزادوا وبالغوا شامتين بحال المتكبرين من مدعي الفضيلة، كتب سيوران ذات مرةً «نفرح بهفوات الكبار لأنها تعفينا من مشقة إكبارهم».

لم يكونوا كبارا سوى في المناصب والأرصدة، مجموعة منافقين التفّوا حول رجلٍ فاسد، ينظر إلى الخلق شزراً ويعاملهم باحتقار، يعيش على بقايا مجدٍ موروثٍ أساء إليه أكثر مما أحسن.

تحدثت البلد عن فضيحة الأعيان وصارت تسلية المجالس فمن سائل مستغرب ومن شاتم ومن شامت بحالهم، عاشت القضية بضعة أيام قبل أن تُلفَّ بقدرة قادر، وتُسحب ملفاتها من شرطة الآداب ومن المباحث ومن مكافحة المخدرات، خرجوا بعدها من الحجز وكذبت القصة من أصلها، فالقوم كانوا في إجازات وأسفار وكل من شارك في مداهمتهم أو رأى الأغلال في أيديهم أو حتى شاهدهم في غرف التحقيق كاذبٌ مفترٍ!.

يا لمفعول المحسوبية ويا لشراء الذمم، كيف يقلب الباطل فيلبس ثوب الحق وكيف تُغيَّر الحقائق وتزيف الوقائع، تذكرت حينها حديث النبي ﷺ (إنما أهلك من كان قبلكم أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد..).

انزعج الناس في عائلتنا لسجن سعود لكنه ما لبث أن خرج ببركة الكبار واتضح للجميع سبب تردده عليهم، وإلا فما الذي يربط متعوساً مثله بمجموعةٍ هامةٍ من أعيان البلد ومسؤوليها، غضب بعدها والده فلم يقبل منه السلام ولم يدخله بيته لأيام.

* * *

لا أدري ما الذي جعل نهلة تصبر كل هذا الوقت لتتحدث عن شكها وارتيابها الذي رأيته جلياً في عينيها، فلم يكن من عادتها أن تؤجل الإشكالات، كانت تبحث عنها لتثيرها بل وتختلقها أحياناً،

ربما الخوف من أن تكون الأمور جادة، وإن صدق شكها فسوف تواجه للمرة الأولى تهديداً لبيتها ولمستقبل أطفالها يستدعي تصرفاً أفضل من اللوم والصراخ، ورغم أني رأيت الكلام صافناً على شفتيها يكاد ينطلق أكثر من مرة إلّا أنها فضلت التريث إلى تلك الأمسية بعدما نام الأطفال وجلسنا نطالع التلفزيون ونتناول الشاي.

قالت بتعقلٍ يكاد يخفي ملامح الغضب: ـ عمار، ما رأيك برجلٍ يقيم علاقةً خارج الزواج؟.

قلت: ـ بغض النظر عن الحلال والحرام، لا أحترمه.

قالت: ـ والمرأة؟.

قلت ملتفتاً إليها بنبرةٍ حاسمة: ـ تستحق الموت.

قالت بعد تردد: ـ عمار، بصدق ليست لك معرفةٌ بامرأة.

قلت: ـ ماذا تظنين أنت؟.

قالت: ـ لم تعد عمار الأول منذ عودتك، شيءٌ ما فيك قد تغير، شيءُ قد لا تعرفه سوى زوجتك.

قلت: ـ نهلة، كنا على خلاف قبل أن أسافر وما زلنا، أنت لا تفهمينني أحياناً..

قاطعتني: ـ دعك من خلافنا، أنا زوجتك رغم ما تقول، وفي قلبي لك ما في قلوب الزوجات لأزواجهن، أعرفك حين تخفي شيئاً، لست ماهراً في التمثيل ولا في إخفاء فواتير الهاتف.

أردت أن أقول إنهم أصدقاء تعرفت عليهم في فرنسا، لكن عبارتها الأخيرة استفزتني فقلت في نفسي لم لا أخبرها اليوم، وكان في الأمر بعض النكاية، لكني ترددت.

قلت: ـ ليس من شأنك أن تسألي.

قالت، وما تزال تحافظ على بعض هدوئها: ـ ليس من شأني!؟ بيتي ومستقبلي ومستقبل أطفالي ليس من شأني، شأن من إذاً!؟ ما

رأيك لو أنك سألتني نفس السؤال وأجبتك أنه ليس من شأنك؟.

قلت: ـ نهلة، ما الذي تريدين الوصول إليه، أليس قد أحل لنا الزواج؟.

قاطعتني: ـ تريد إذاً أن تتزوج، الآن صار كل شيءٍ واضحاً، ومن هي سعيدة الحظ؟.

قلت: ما الفرق عندك، ستعرفين عندما يحين الوقت.

قالت، وانحدرت الدمعة على خدها: ـ هل تظن أنني سأجلس معك وأتركك لتتزوج؟، كم أنت واهم.

قلت: ـ نهلة، لن أظلمك، ولن أترك أولادي يعانون ويتعذبون..

قاطعتني وهي تنظر في الاتجاه الآخر: ـ يا إلهي، إنه جاد. وتتحدث إلى نفسها: كنت أعرف، كنت أعرف. ثم تتوجه إليَّ ويدها على فمها: أنت لا تظلم!؟ أنت ظلمتني منذ اليوم الأول فكيف حين تكون لي ضرة. وانفجرت تبكي وتشتم حظها وتتوعد، ثم أردفت: أنا لا أجاور الساقطات.

قمت إلى الغرفة الأخرى وحاولت أن أهدئ من غضبي لكنها تبعتني ووقفت على الباب قائلةً: ـ أخبرني من هي الساقطة التي ستتزوجها، لا بد أن تخبرني.

قلت: ـ استهدي بالله يا امرأة.

صرخت بصوت عالٍ: ـ الله يخلصني منك، طلقني قبل أن أجعلك تندم.

قلت، وقد تملكني الغضب: ـ أذا أردت الطلاق فستحصلين عليه.

قالت: ـ تريد أن تطلقني!؟، أهلي سيجعلونك تندم على ما تفعله بي.

خرجت من البيت أسمع صوتها في الغرفة الأخرى توضب أغراضها وتكيل الشتائم.

رحت أذرع الشوارع غاضباً محبطاً يمنعني البرد عن الشاطئ ولا أريد أن أرى أحداً من أصحابي رغم اتصالات سلمان المتكررة. عدت متأخراً فوجدت البيت بارداً موحشاً، كانت ليلة شتاءٍ طويلة لم تكد تنقضي، شعرت فيها بالوحدة ورغبت بالبكاء.

مضى بعد ذلك يومان أو ثلاثة قبل أن يتصل والدي وقت الظهيرة على غير عادته ويطلب أن أمر به بعد العمل، ذهبتُ فاصطحبني بعد الغداء إلى المجلس الكبير وطلب أن أخبره سبب خلافي مع نهلة.

ومع أن الغضب كان يبدو على وجهه إلّا أنه حافظ على نبرةٍ هادئة متزنة وكنت خائفاً من ردة فعله، فليس من السهل أن تعرف ما في قلبه، كما أني لا أدري ما الذي أُخبر به وكيف صُورت له الأمور. تمنيت لو كان الموقف مختلفاً لأخبره عن صبرا وعن والدها وأسرتها، علَّ ذلك أن يجد قبولاً، لكن هيبته ربطت لساني.

قلت: ـ أبداً يا والدي، خلافات عائلية كالتي..

قاطعني: ـ هل صحيح أنك تعرف امرأة في فرنسا تنوي طلاق زوجتك من أجلها!؟.

سكتُّ، فلم أكن أريد أن أكذب عليه.

قال، وهو يشيح بيديه: ـ ما لك لا تتكلم إلّا أن يكون ما قالوه صحيحاً.

قلت: ـ الأمر يحتاج إلى بعض الشرح يا والدي، إنها فتاة صالحة من لبنان أعجبت بأدبها وأخلاقها ووالدها من خيرة الرجال.

بقي متسمراً في مكانه متكئاً على عصاه وبدا الاستغراب جلياً على ملامحه.

قال ساخراً بعد لحظات صمت: ـ لبنانية!، ما هو أصلها وإلى من

تعود، تعرفت عليها في الشارع أم في أماكن السهر، ماذا تقول يا عمار؟، متى تصبح رجلاً؟؟.

قلت: ـ لكن يا والدي..

قاطعني وهو يهوي عليَّ بالعصا: ـ اسكت، أخجلتني أمام الناس، إذا سمعتك تعيد هذا الكلام التافه سترى ما لا يسرك.

سكتُّ كما لو كنت مخطئاً، فما ينفعك أن تكون مصيباً عند من لا يستمع إليك ومحقاً عند من لا ينصفك.

لملمت غترتي وعقالي من الأرض، وقبل أن أصل إلى الباب ناداني من جديد: ـ إذهب وصالح زوجتك ولا تعد إلى مثل هذا، لا ترني وجهك قبل أن تعيد زوجتك إلى البيت.

كنت ووالدي نتهاتف من زمنين متباعدين لا يلتقيان وإن جلسنا على كرسيين متقابلين!.

أعدتها بعد جلسةٍ قصيرة مع والدها، تأسفت عن إغضابها لكنا لم نتطرق إلى موضوع الزواج، يبدو أن حضوري جعل الفكرة مستبعدةً من أذهانهم، لم يكن رجوعها إلى البيت من دواعي سروري لكن لا حيلة لي أمام أبي.

قابلتني نهلة عند باب النساء ومعها الطفلان، كان واضحاً حال دخولنا المنزل أنها لم تقتنع باعتذاري لكنها مجبرةٌ ربما أكثر مني.

أخذت الأمور تنحو نحو الأسوأ بعد تلك الليلة وراح كلانا يشد في اتجاه معاكس في أتفه الأمور كما في أهمها، وبدأت مرحلةٌ من النكد والتعقيد، يبدو منها الخوف أحياناً على مستقبلها ومستقبل الأولاد، لكن طريقتها في الدفاع تذهب بي في الاتجاه الآخر وهذا ما خفف شعوري بالذنب والتقصير.

بقيت أيام قلائل على زواج عوف، ولا بد من التريث حتى تمضي أيام العرس ويتفرق الناس لأرى كيف سأواجه أموري من جديد.

كنت أتصل بصبرا وأكتب خواطري تقريباً كل يوم، أمّا تعمد والدي ألّا ينظر في وجهي وألّا يكلمني إلّا بأقل ما يمكن فأشد ما آلم روحي وجرح قلبي تلك الأيام.

بدأت طبول الفرح تدق، وتوافد المدعوون إلى قصر الأفراح الكبير الذي استأجره الوالد بمبلغ من المال يعدل مصروف أسرة متوسطة الدخل لبضعة أشهر، كانت الأفراح ـ حتى الماضي القريب ـ تقام في أفنية البيوت أو في ساحات الأحياء، يشترك في تكاليفها ويتقاسم أعباءها الأقارب والجيران، أما اليوم فيأتي أهل العروسين بكامل أناقتهم مثلما يأتي الزوار والضيوف، لا يتكلفون شيئاً سوى استقبال الناس وتوديعهم، ولم يبق من تكافل الماضي غير ما نسميه إعانة العريس، مبلغٌ أو هديةٌ يتحكم بقيمتها درجة القرابة أو المودة.

أما النساء فقصةٌ أخرى تبدأ قبل العرس بأيام، يشترين الملابس والإكسسوارات الفاخرة، وتأخذ تجهيزات قريبات العروسين في التصاعد حتى إذا كان يوم الزفاف تدافعن من صالونات التجميل إلى قصر الأفراح محملاتٍ بالجواهر والحلي، ومتوارياتٍ تحت العباءات التي ما تلبث أن تكشف عن الصدور والأذرع العارية.

تكتفي كبيرات السن بالثياب الجديدة والذهب والحناء، ويجدن في الاجتماع فرصةً لرؤية بعضهن وتناقل أخبار البيوت والشكوى من زوجات الأبناء!.

تحرص أم الفتاة على أن تبدو ابنتها في أوج بهائها، تشجعها على الرقص والظهور علّها تلفت انتباه من جاءت تفتش لابنها أو لأخيها عن عروس، أما البقية فيراقبن ما لبست فلانة وما قالت علّانة، وفي كل عرس مهرجان لا ينتهي من أحاديث النساء..

يتكون القصر من ثلاث قاعات كبيرة، واحدة للنساء تتوسطها مساحةٌ للرقص تستدير حولها الطاولات المزينة بالورود وأطباق

الحلوى والمكسرات، وأخرى للرجال تقابلت فيها الأرائك الفخمة على شكل مستطيلات واسعة، وثالثة للطعام تفرش فيها الولائم من ذبائح الضأن فوق الأرز الهندي الفاخر.

بدأ الاحتفال بعد صلاة العشاء حين حضر العريس لابساً العباءة المقصَّبة فسلَّم على المدعوين ابتداءً بوالده وأعمامه، ثم أُدير البخور على الحاضرين تبعته القهوة والشاي وأنواع العصائر.

رقص الشباب على وقع طبول العرضة حتى نودي الجميع إلى المائدة، فتقاطروا إلى صالة الطعام الفسيحة التي قدم فيها أكثر من خمسين ذبيحة تلك الليلة، وبعدما انصرفوا من العشاء بما يقرب من ساعتين ذهب الوالد مع بعض الأهل بالعروسين إلى الفندق، وبدأ كبار السن بالانصراف ليتفرغ الشباب للعرضة والسامري، وهو نوع من الغناء الجماعي يؤديه صفان من الرجال وهم جلوس يتغنَّون بالغزل والعاطفة، أما العرضة فأهازيج الحماسة والفخر تزينها الطبول والسيوف اللوامع في أيدي الرجال وتسمى رقصة الحرب.

استأجرت أم إبراهيم امرأة تغني للنساء بالدفوف والتصفيق، كما وعدت عوف، رغم أن أخواتي البنات تمنين لو أحضرت مغنية مع الموسيقى، كما يفعل الآخرون تفادياً للقيل والقال ولئلا يبدو «فرحنا باهتاً» كما قالت نورة.

انشغل شباب الأسرة باستقبال المهنئين والعناية بهم عدا سعود الذي بدا خارج النظام، خفنا أول الليل أن يتصرف بشكلٍ مهين أو يسبب إحراجاً لكنه ظل قابعاً في إحدى الزوايا متأملاً عالمه الخاص وهذا خير ما فعل، ورغم أني كرهته لما ضرني وآذاني ولمته لضعفه أمام المخدرات وتفريطه بكل ما له قيمة في حياته، إلّا أنه قد يكون أسلم قلباً من الكثيرين ممن عابوا عليه وانتقصوه، ولو كانوا في مكانه لكانوا أبرع في السقوط، أعتقد أن للتناقض الذي يعيشه والده

وطريقة استغلاله للدين أثراً في اضطراب شخصيته ونفوره من المتدينين.

لم أقابل نهلة منذ أوصلتها إلى الصالون من دون أو نتحدث أو حتى نتبادل تحية الصباح إلى قرب الفجر عندما انتهت حفلة النساء، أحببت النوم في غرفتنا لكنها كانت متعبةً وغاضبة، ما إن دخلت الغرفة المعتمة حتى ألقت بنفسها على السرير وغطت في النوم.

وقفت لبعض الوقت في الممر أتأملها عبر الباب نصف المفتوح وأتساءل ما الذي يجبرنا على الاستمرار والتظاهر بالسعادة في حياةٍ صارت بائسة ولمّا تزل في بدايتها، ما الذي يوقفني عن الحياة التي تمنيت بعدما وجدتها، وإلام أظلم نفسي وأظلمها؟، وقفت هناك طويلاً ثم تراجعت إلى سريري البارد.

عشت أياماً عصيبة أطوف الشوارع وأقضي الساعات مطرقاً أدخن الأرجيلة وأفكر في طريقةٍ لإقناع والدي، لوكنت ابناً لأم إبراهيم لفتحت لي أبواب قلبه ولسهلت عليَّ الأمور، ما حيلتي وقد أضناني السهر والتفكير؟.

كان سلمان يعذلني وينهاني عن التمادي في حبها، فإذا رأى جزعي وتأثري انساق معي وواساني.

عاد إليَّ مرة في المقهى فوجدني مستغرقاً في التفكير فنبهني: ـ كنت تبكي؟.

قلت: ـ لا، لكن لا تستغرب من العاشقين البكاء، أما سمعت قول ذي الرمة:

فواللَّهِ ما أدري أجولانُ عبرةٍ تجودُ بها العينانِ أحجى أم الصبرُ
ففي هملانِ العين من غَصَّة النَّوى شفاءٌ وفي الصبر المثوبة والأجرُ

قال، وقد كسته مسحة الحزنِ وأطرق ببصره نحو البحر: ـ لا أدري إلى أين سيذهب بنا حبك هذا!؟.

قررت أخيراً أن أعود إلى والدي وأقنعه جهدي فما عاد الصبر ممكناً.

وبدأت فكرة مفاتحته وإقناعه تتبلور في ذهني وتتمكن مني، كنت محتاراً من أين أبدأ وماذا أقول؟، من سيقف معي بعدما صدني أخي، كنت أعرف أن بعض الأقارب يوغرون صدر أبي، وأنه ينساق مع إيحاءاتهم حين يظهرون بثياب الناصحين المشفقين وما أرادوا سوى إشباع الحقد والحسد ورغبة الشر في قلوبهم المريضة.

هكذا هم الأشرار، يجدون المتعة في إفساد حياة الآخرين وإلحاق الأذى بهم وإن لم ينلهم من ذلك شيء.

كنت أتلافى الموقف المحتوم الذي سيدفعني إلى المواجهة والقرار حتى أصبحت متوتراً وعصبياً أثور لأشياء لم تكن تغضبني أو حتى تعنيني.

أتذكر نقاش الشباب في إحدى الليالي حول الطائفية والقبليَّة والمواطنة..

قال سلمان: ـ على دول الخليج أن تشجع المواطنة على حساب القبلية والمناطقية، عليها أن تدمج الناس في مناطق سكنية مشتركة، وأن تحارب الانتماءات الضيقة المتعصبة بطريقة ذكية تضمن انصهار مكونات المجتمع ليتشكل نسيج المواطنة الشامل المتماسك، مع المحافظة على شيء من التنوع الذي يغذي ويثري الثقافة الجامعة المتولدة من مجموع الثقافات المحلية.

قال أحد الشباب: ـ تريد ان تجمعنا مع الفرق المخالفة؟.

قال سلمان: ـ أليسوا مواطنين لهم نفس الحقوق؟.

أجاب الشاب: ـ إنهم خطرٌ على عقيدتنا وعلى أمن أبنائنا.

قال سلمان: ـ يا أخي، الاختلاف لا يعني الكراهية بالضرورة.

قال راشد: ـ سلمان، أنظر إلى الكتب وما تذكره من غريب عقائدهم وأفعالهم.

قال سلمان: ـ يا شباب، أنا لا أقول أننا متفقون معهم، لكن صدقوني إن كثيراً مما تمتلئ به رؤوسنا وكتبنا عنهم ليست سوى أساطير تماماً كالتي في أذهانهم وكتبهم عنا، ما زلنا نحمل الأفكار المغلوطة عن بعضنا، وما زالت جاذبية الأسطورة تسيطر على عقولنا رغم ما نزعمه من الانفتاح والتواصل.

عاشت مجتمعاتنا ـ وإن تجاورت لقرون طويلة ـ في عزلةٍ فكرية ما أوجد بيئةً مناسبةً لنمو الأساطير والمبالغات، ولو تعايش الناس وتناقش أهل العلم بالحكمة وتجادلوا بالتي هي أحسن، كما أمرالله جل شأنه، مغلبين حسن الظن ومقدمين المصالح الكلية لزال الكثير من الارتياب ولترسخت الثقة والعلاقات الطيبة. ثم التفت إليَّ قائلاً:
ـ ما قولك يا عمار؟.

قلت: ـ أعتقد أن ما تقوله صحيح، يجب أن تبنى وترسخ ثقافةٌ اجتماعية شاملة تساهم في بنائها كل مكونات المجتمع.

قال الشاب: ـ أبداً، يجب أن يغلَّب الحق.

قلت: ـ يا سيدي دعك من هذا، الصحابة اختلفوا في فهم بعض النصوص، فأي آرائهم نغلب إذا لم نقبل الاختلاف، الاختلاف ظاهرةٌ صحية والحق قد يتعدد، لماذا يعتقد البعض أنهم على الحق المطلق وأن من سواهم على الباطل المحض، ألا تؤمن معي أن العائلة الواحدة قد تختلف بأشد مما يختلف به الأعداء، إذا كان الشافعي قد غيَّر الكثير من فتاويه حين هاجر من العراق إلى مصر معللاً باختلاف العادات والأعراف والحاجات الاجتماعية، ترى ما الذي سيغيره لو التحق بزمننا الحاضر؟.

الفضاء رحب واسع إنما عقولنا هي الضيقة المتحجرة، إذا اختلفت معي سأحقد عليك، فأنت حتماً تكرهني..

انتبهت لنفسي حين بدا الاستغراب واضحاً على وجوه الاصحاب، كنت جاثياً على ركبتيَّ أهدر مثل جمل، يا إلهي! لم يكن هذا من طبعي.

لازمتني بعد ذلك رغبةٌ في الصمت والتأمل، وقررت أن أكتب رسالةً أجمع فيها بعض ما تناثر من خواطري، فكتبت في ليلة ضجر:

«حبيبتي، ذهبت معك الليلة إلى آخر المدى حيث لا شيء غير عينيك.

وحيث تساوى من راح من الناس ومن بقي إلّا أنت.

وحشتني عيناك كأنما حال بيني وبينهما دهرٌ طويل، ولم أعد أحلم بشيء سوى أن أراهما تبتسمان.

البارحة سمعت أغنية فيروز «من عز النوم» هل تذكرينها؟، فكرت فيك حتى طلع النهار.

لا تحزني حبيبتي، فقريباً سنحتفل باللقاء ونشعل شموع أفراحنا».

أخبرتها أني على وشك إنهاء المعاملات التي تؤخرني وطلبت أن تسامحني على سوء ظني.

كان لاشتياقي العارم وللجفوة مع والدي وأخي وانهيار أسرتي الوشيك أثر بالغ على نفسي وعقلي، أصبحت مشوشاً دائم التوتر، ومن هنا جاءت لسلمان فكرة الذهاب إلى دبي لبضعة أيام نستجم ونغيِّر فيها الروتين، على حد قوله.

الجو لطيف في بداية مارس، حين تلبس دبي أبهى حللها لاستقبال مهرجانها البديع وكأنما هو عرس يتداعى له الناس من أنحاء العالم، قوم يبحثون عن المتعة وعن منافذ لصرف المال،

وآخرون يبحثون عن الفائدة وعن منافذ جديدة لكسب المال، ولك أن تتخيل. .

نزلنا منتجعاً ساحلياً لم أشاهد شيئاً بفخامته وحسن تنظيمه من قبل، ربما لأني لم أعرف الكثير من المنتجعات.

وجدنا هناك كل ما تشتهي النفوس، البحر والمناخ اللطيف والحرية اللامحدودة، يمكنك أن تشرب أو تلعب حتى الصباح، وأن تستأجر الحب كما تستأجر أشرطة الفيديو.

صادفت كل ما يلزم ليكون المرء سعيداً لكني لم أكن، جزءٌ مني كان خائفاً يصيح بي ألّا أنزلق إلى المهاوي التي عبتها على الآخرين، كنت أدرك أن الأشياء تفضي إلى بعضها، تقود كل متعةٍ إلى الأخرى وتمسك بطرفها حتى تحيد بك عن الطريق فتستيقظ تحت شمس العار يضحك الناس ويسخرون منك.

كان صاحبي يلامس بعض الأمور على وجل كالخائف أو كالمرتاب. وللحقيقة كان الأمر ممتعاً ومسلياً، فاستراق اللذة لذةٌ بحد ذاتها.

جلسنا نستمتع بشمس الصباح الدافئة بعد ليلة مطيرة في إطار جميل من عرائش الياسمين المزهرة وأشجار النخيل العالية، قال سلمان: ـ المكان فاتن هنا والشمس دافئة.

قلت متمثلاً: ـ

ولمّا نزلنا منزلاً طلّهُ النّدى أنيقاً وبستاناً من النَّورِ حاليا

أجدَّ لنا طيبُ المكانِ وروقه مُنىً فتمنينا فكنتِ الأمانيا

قال، كأنما أراه مستلقياً على الكرسي الطويل واضعاً يديه تحت رأسه ومرتدياً نظارته السوداء: ـ جئنا لكي ننساها، لا تترك فكرة الحب تسيطر عليك، فإني أخشى ألّا تستطيع الفكاك.

قلت: ـ لا أدري كيف أصف لك حالي لكني أتخيلها باستمرار

وأشعر أنها وحدها ما يخصني من عالم النساء، كم حاولت التخلص من أسر حبها من دون جدوى، ربما راقني الأمر في البداية، على رأي من قال: ـ

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكَّنا

وبقدر ما أعاني اليوم من نار أشواقي ومن لوعات بعدها، بقدر ما هو لذيذٌ حبها ومسليةٌ أحلام لقائها، حتى كأنما أستعذب في حبها الألم، وتمثلت: ـ

أريد لأنسى ذكرها فكأنما تمثَّل لي ليلى بكل سبيلِ

ما بيني وبينها عاطفي روحاني أكثر منه جسدي شهواني، حسبك يا سلمان، ولم أبح بهذا لأحد، أني لم أحصل منها على أكثر من قبلةٍ مختلسة في بلاد تبيح القبل.

انتزع نظارته قائلاً: ـ كل هذا الهيام ولم تحصل منها على شيء!.

قلت: ـ يتأجج الولع بالوعد والانتظار، ألم تسمع أن «الحب رجل وامرأة وحرمان»، لوكانت هينة ما كان لي كل هذا الشغف.

قال: ـ صحيح، قرأت أن أعرابية سئلت: ما الهوى؟، فقالت: ـ «هو الهوان غُلط باسمه»، لا يا سيدي لا نريد هذا، نريد حباً لا التزام فيه ولا حوادث مؤلمة، نريد حباً يربح فيه الطرفان سعادتهما الوقتية ويسلمان من لوعات الوجد والهيام، يذنبان في الليل ويستغفران إن صحيا في النهار.

قلت: ـ لا أدري، لكن لا أجدني هناك.

رجعت من دبي ببعض الانشراح الذي ما لبث أن تلاشى، وعاد الضجر والتوترليطبعا أيامي من جديد، غضب الوالد وجفاء إبراهيم، نزاع في البيت وجفاف للمشاعر، كل ذلك أرهق أعصابي وجعلني في حالٍ من الحزن والقنوط.

زادت الغيرة من اشتعال نهلة وقسوة طبعها فامتنعت عن معاشرتي

ما زادني عصبية وحنقاً، كان أحدنا يتعمد الإساءة لا لسبب سوى إغاظة الآخر، ولأني كنت أقل تحملاً وأكثر احتراقاً فقد أصبحت بائساً حقاً!.

كنت أغبط ـ حين نجلس في الاستراحة ـ من يأتي من بيته مبتسماً حسن الهندام، تشع من عينيه السعادة، ولطالما رددت لنفسي أو لسلمان قول الحكيم «أسعد الناس من كانت زوجته حبيبته».

كم حاولت أن أعيد النظر من دون جدوى، فلا يمكنك أن تخادع نفسك وتحل شيئاً مكان آخر.

أما هي فكثيراً ما رأيت أثر البكاء على عينيها أو لمحت ميلها إلى الهدنة، لكنها سرعان ما تعود إلى المكابرة، يبدو أنها الجبلَّة والطبيعة التي تغلب صاحبها، يثورغضبها سريعاً لتلقي عليَّ باللوم وتنعتني بالضعيف البائس، أو تعيرني بأزواج أخواتها، ما يغضبني ويدفعني بعيداً في الاتجاه الآخر.

قضيت الكثير من الوقت مكباً على الكتب في غرفتي، أو معاقراً الأرجيلة في المقهى حتى تسلمت رسالتها التي أخرجتني من الضجر قبل أن يصاب عقلي.

«حبيبي عمار، مثلك أنا لا أعرف كيف أقول كل ما في خاطري على الهاتف لذا كتبت لك بعضاً منه لتقرأه على مهل.

بعد سفرك.. اكتشفت كم أحبك، وكم أنا متعلقةٌ بك لدرجةٍ لو أدركتها لمنعتك من السفر، صحيحٌ أننا لا نقدر قيمة الأشياء إلا بعدما نفقدها.

دعني أخبرك اليوم، وقد أصبحت بعيداً عني، أن الأرق والسهر أرهقاني وغيَّرا ملامحي وأنا صابرةٌ أنتظر يوم رجوعك.

بعيدٌ أنت في أرض العرب الدافئة بين أهلك وأصحابك، ووحيدةٌ

أنا في أرض الغربة والصقيع، أصيح فلا يسمع صوتي سوى شيخ مريض تقاطرت أيامه ويوشك على الرحيل.

تنام عيناك يا حبيبي، وأقضي الليل ساهرة تلاحقني أشباح الماضي ويروعني المستقبل المجهول.

أدفن رأسي في معطف ذكرياتك كلما عاودني الخوف ألّا أراك، كيف لا أراك وأنا أشعر بسر غريب يربط روحي معك منذ الأزل.

لا أعرف الاقتصاد في الحب لأكبح مشاعري، ولا أعرف أصلاً للحب لأحبك حسب الأصول، كل ما يهمني هو أن أراك قربي لأشعر بالأمان.

حبيبي، كيف استكثرت عليَّ فرحتي بريموند، ألا يحق لي القليل من الفرح، أم أنك تغار!؟، آه.. يا لك من بدوي.

قسماً بأشواقي إليكَ   وتربةَ الصبرِ الجميلْ
ما استحسنت عيني سواكَ   وما صبوت إلى خليلْ

ألم تعلم أن الحب هو الثقة وأني لا أعرف كيف أحب أحداً سواك.

أيها الرجل الذي سلب قلبي ويمم به نحو المشرق، تحمَّل مسؤوليتك فقد لا أتمكن من العيش من دونك، لا تلمني على اندفاعي فقد أفقد حياتي أو أفقد عقلي إذا أفلس حبي.

أما عودتي للعزلة والتي أكثرت عليَّ بسببها التعنيف فدعني أعاتب العالم على طريقتي حين حرمني منك ولم يبق لي ما أخرج من أجله».

كان لرسالتها وقع مدوٍ على قلبي، بكيت حين قرأتها اشتياقاً إليها وألماً من بعدها، وبكيت إشفاقاً عليها من الغربة والوحدة، ربما كان للعوائق الكثيرة التي تقف دونها دور في تلك الدموع المنسكبة، كيف أصنع وأنا أخجل أن أرد على والدي بكلمة، أكره أن أغضبه وأخاف

من مواجهة المجتمع، معضلتي أني أحمل أفكاراً ومشاعر جيدة وصادقة لكني لا أملك آلية إيصالها أوالدفاع عنها!.

زودتني رسالتها بالشجاعة فبدت الطريق واضحة ولم يعد من سبب يستدعي التأخير بعد اليوم.

كنت مهتماً كيف أقنع أبي وكيف ستستقبل عائلتي أمر الزواج، ظننت أن أجواء العيد قد توفر الفرصة المناسبة لمفاتحته من جديد لا سيما اليوم الثاني، إذ عادةً ما يكون اليوم الأول مزدحماً بالمعايدات والزيارات وتقسيم الأضاحي، أما الثاني فيكتفي الوالد بزيارة كبار السن وبعض عجائز العائلة، لا تستغرق الزيارة أكثر من ربع ساعةٍ تكفي لتناول القهوة والشاي والتطيب أحياناً بالبخور وتبادل أحاديث العيد المعادة، أما نحن مرافقوه من أبنائه فنكتفي، يوم كنا مراهقين، باختلاس النظرات علَّ ثوباً أو كفاً يلوح من وراء الأبواب المواربة.

كنت خائفاً من ردة فعله لدرجة الاكتئاب، لكن ذهن سلمان تفتق أخيراً عن فكرة الحل.

قال: ـ هل من الضروري أن يعلم.

قلت: ـ كيف تقول!؟.

قال: ـ ما دمت مصراً على رأيك، فجهز أمورك من حيث الموافقات الحكومية والفيزا والمال الذي تحتاج وتوكل على الله، أهلك سوف يقتنعون ويتقبلون حينما تضعهم أمام الأمر الواقع، ليست معارضتهم اليوم سوى وسيلة لمنعك، ربما سيقاطعونك لبعض الوقت لكنهم سيعودون حين لا يبقى لقطيعتهم مبرر، فأنت في النهاية لم ترتكب جريمة، وأرى من وصفك لصبرا أنها مقنعة وسوف تستميل قلوبهم حين يعرفونها، لا تلمهم، يخافون أن تكون المرأة قد

لعبت بعقلك أو سحرتك أو أنها محتالةٌ وجدت فيك زوج الغفلة، وستنتهي هواجسهم حين يعايشونها.

قلت بعد فترة تأمل: ـ أعتقد أنك على حق «إفعل ما تظنه الصواب ودع الأيام تأخذ دورها في إصلاح ما يعطب».

فرحت عندما اكتملت الفكرة، كأنما فتح لي باب من الفرج لم أكن أعلم بوجوده، وبتُّ أحلم باليوم الذي أزور فيه والدي متأبطاً ذراع صبرا وهو راضٍ عني.

عزمت على البدء في إنجاز المعاملات الرسمية بعد العيد، تعهد سلمان وناجي في التوسط لإنهاء بعض الأمور وبدأنا تجهيز الأوراق المطلوبة، كنت سعيداً مغتبطاً بعد أيام الضيق التي مرت.

سهرت إحدى الليالي مع نهلة في بيتنا، وكنا نعيش هدنةً بدأت صباح العيد حين أحضرت لها الهدية، إسوارة من الذهب المصقول تتدلى منها نجوم صغيرة وينتهي طرفاها بفصين من الياقوت الأحمر، وكان حناء العيد ما يزال نضراً على يديها.

ثمة أسباب وجيهة لتلك العيدية المميزة، أحدها أني أشعر في قرارة نفسي بالذنب، فلا تعدو ثورات غضبها أن تكون زوبعةً في فنجان كما يقال، وهي في النهاية امرأة ضعيفة لا حول لها، كما أنها اعتذار مسبق عما نحن مقبلون عليه والعيد مناسبةٌ للتسامح لا تستغرب فيه المصالحات والهدايا على كل حال.

سهرنا تلك الليلة على فيلم «فورست جامب» وكنت معجباً بالفيلم الرائع وبعبقرية توم هانكس الفذة، بدأ التقارب كلمة فكلمة ونظرة فابتسامة انتهت بنا في غرفة نومنا.

وجدتها حين أفقت قرب الظهيرة جالسةً على الأرض في الغرفة الأخرى غارقةً في دموعها وفي يدها نموذج طلب الموافقة على

الزواج، يبدو أنها صادفته بينما تفتش عن الدراهم لترسل على الخبز للإفطار.

جددت بكاءها حين رأتني من دون صراخ ومن دون شتائم هذه المرة، ووقفت مصدوماً محرجاً، يا إلهي كيف لم أنتبه!.

قالت، وهي تضع يدها على جبهتها وتنشج: ـ واضح أنك تحبها، لقد سحرتك وأنستك بيتك وأولادك، لماذا تبقيني إذاً؟، هل أنا امرأة مؤقتة؟ لماذا خدعتني ونمت في سريري بينما قلبك مع أخرى؟.

بقيت متسمراً في مكاني لم أبرحه ولم أتكلم حتى أردفت: ـ طلقني قبل أن يضيع المزيد من عمري فأنت لا تستحقني.

واصلت الصمت بينما تتصاعد موجات غضبها، هددت أن تخبر أهلها وحلفت أنها لن تعود أبداً إلى منزلي الكئيب وستحتفظ بالطفلين، وأخذت تهذي..

خرجت قبل أن تفلت أعصابي، وكنت آمل أن تبقى الخواطر هادئة حتى أنجز أموري وأسافر بسلام.

عدت في المساء لأجد البيت خاوياً كما توقعت، ولحسن الحظ كان أبي قد سافر صبيحتها إلى مخيم الربيع.

* * *

تعوَّد والدي الخروج إلى الصحراء لأسبوعين أو ثلاثة مع من يرغب من الأسرة في مثل هذا الوقت، تلك عادة الكثير من العائلات الخليجية، يستمتعون بالجو اللطيف وينعمون بأيام الربيع الزاهية، لا سيما إن كان الشتاء مطيراً.

تخضرُّ الأرض وينتشر الناس في الفيافي يبحثون عن الكمأ، فلتتبُّع منابته وجمعه متعة خاصة في الأيام المشمسة الجميلة، نتفرق في المروج الخضراء من الصباح الباكر، يحمل كلٌّ منا أداةً للحفر

وحقيبة لجمع المحصول، ونجتمع وقت الغداء ليستعرض من جمعوا الكمية الأكبر ويفخرون بها على الآخرين.

أم إبراهيم أكثر العائلة مهارةً في اكتشافه، كنا نجري خلفها تعلمنا كيف نلاحظه من تحت الرمال وتساعدنا في استخراجه ضاحكةً على معاركنا الصغيرة، نجلس حول النار في الليالي الباردة نستمع لقصص الوالد عن أيام الفقر والكفاح والهجرة من القرية سعياً وراء الرزق في المجتمعات الناشئة حول حقول النفط، قصص مكررة في أكثر بيوت الخليج عن التحول الكبير، يوم انتقل الناس من حالة الركود الأزلية ورعاية الخيل والإبل وسكنى بيوت الشعر والطين إلى الفلل والعمارات الفارهة من دون أن يتزحزحوا كثيراً عن مفاهيم ومبادئ رعاة الإبل، ما أحدث نوعاً من الارتباك.

رؤيتنا وقراءتنا لما يحدث حولنا مشتتة بين ما نسميه أمسنا الجميل الأصيل وبين حاضرنا المواكب لتيار التطور العالمي المتسارع.

ثمة من يدعو إلى الاندماج في الحضارة العالمية والانسلاخ من الماضي بحجة أنك لن تحصل على ثمرات الحضارة الحديثة ما لم تستوعبها كاملة وتتجرع مراراتها، آخرون على النقيض ينادون إلى المحافظة على الماضي بأدق تفاصيله ومحاربة ما جاء به شيطان الحداثة، مما قد يبدو خيراً في ظاهره بينما ليس سوى الشر والمكائد التي تستهدف الدين والتراث.

وقوم يقفون في الوسط يدَّعون الاعتدال ويرون أن يُقطف من ثمرات الحضارة ما يناسب الدين والفضيلة ولا يتصادم مع تقاليد المجتمع المحافظ، ولا أدري إلى أي مدى ستصمد نظريتهم!؟.

* * *

سعود رجلٌ فظٌ قد يذهب به الغضب إلى أبعد مدى، كنت أتجنب مواجهته حتى قبل قصة الإدمان، لم أتمكن من تقبله كصديق رغم

علاقة النسب والقرابة، وحاولت دائماً ترك مسافة بيننا والاحتفاظ بحدٍ أدنى من القبول.

دخل الاستراحة واجماً إحدى الليالي وقد بدا عليه أثر التعاطي المفرط، ما إن ارتمى في زاويته حتى قال مخاطباً راشد: ـ ما شاء الله يا راشد، أرسلتكم الدولة لتدرسوا أم لتبحثوا عن النساء! هل ستتزوج أنت أيضاً من فرنسية. ويضحك.

قال راشد، محاولاً تلطيف الجو وقد أنتبه إلى حالته: ـ إذا صادف الإنسان ما يروق له فلم لا.

قال سعود: ـ من يغدر بابنة الرجال لأجل عاهرة صادفها في المرقص أو في الشارع ـ وجثا على ركبتيه وبدأ يرغي ويتطاير الزبد من شدقيه، يهدد ويتوعد ـ أيها الجبان تعبث بحياة أختي ثم تريد أن تطلقها، والله لأفعل وأفعل..

عبثاً حاولنا إقناعه وتهدئته لكنه لم يكن يسمع شيئاً مما نقول.

وقف الشباب بيني وبينه مخافة أن يؤذيني، وجاء الخادمان يهرولان من المطبخ على صراخه وهديره.

أمسك عامر بعضدي وقال مناجياً وقد تملكني الغضب: ـ لا تتعب نفسك معه وأردف: ـ

ومن البليةِ عذلُ من لا يرعوي عن غيِّه وخطابُ من لا يفهمِ.

ثم جذبني إلى الخارج حتى أركبني سيارتي، وحسناً فعل.

استولت عليَّ تلك الليلة فكرة أن سعود قد يؤذيني أو يقتلني كما هدد ومن يضمن مدمناً مثل هذا ألّا يفعل، لذا صرت أقفل أبواب شقتي وأحمل مسدسي في سيارتي أينما ذهبت.

عملت على الأوراق والمستندات، واستغل أصحابي شبكات معارفهم وأصدقائهم من أجل موافقة الزواج، الأمر الهام الذي بدا

كأنما يتعدى الحرية الشخصية!، ومع ذلك فقد طالت الأيام وأنا أتردد بين إدارةٍ وأخرى لا تكاد أموري تتقدم.

زرت ناجي نهاية ذلك الأسبوع وتعرفت إلى والده عن قرب، فلم يكن قد تسنى لي في المرات السابقة الجلوس معه، كنا نسلم عليه ونمكث قليلاً للمجاملة ثم نستأذن لنستكمل سهرتنا في مجلس الشباب. غرفةٌ خارجية تطل على حديقة المنزل مفروشة بالسجاد والوسائد اعتدنا أن نسهر فيها من وقت لآخر، تعجبت حين لاحظت على الطاولة القريبة كتاب بالإنجليزية علية صورة المؤرخ الأمريكي فوكوياما، وارتحت لأفق أبي ناجي الواسع ولحديثه الممتع اللطيف، رؤيته الواضحة وتحليله المنطقي المقنع للأحداث، يرى في التنوع والاختلاف مصدر ثراء للأمة إذا وظفت معطياتهما بشكل متناسق وحكيم يحقق التكامل، لا توجد مثل تلك الأفكار عادةً عند أكثر كبارنا الذين يرتابون حتى ممن يخالف لهجتهم وتسمياتهم للأشياء، ويعتقدون أن على بقية العالم أن ينضم إليهم!.

راقني رأيه القائل: ـ يجب أن نميز بين ما هو دين ثابت لا يمكن المساس به وبين ما هي مجرد عادات وتقاليد تجاوزها الزمن، جعلناها أغلالاً تحد من حركتنا ومن تطور حياتنا، وأن المجتمع سيجتازها حتماً لكن ذلك قد يأخذ أشكالاً غير مرغوبة وقد يحدث خللاً في التركيبة الاجتماعية واستقطاباً حاداً بين طرفي الطيف الاجتماعي.

آراء ومفاهيم ما كان له أن يتوصل إليها أو يتقبلها أصلاً لولا تأثير المزيج الكبير من القناعات والأفكار والخلفيات للرجال والنساء الذين جمعتهم شركات النفط لعقود من الزمن فكوَّنوا بيئتهم الجديدة التي اتسعت للجميع واستوعبت تبايناتهم.

خرجنا بعد مكبوس السمك، الذي تعده أم ناجي بطريقةٍ فريدة،

لاستكمال سهرتنا في مجلس الشباب، أخبرني هناك عن اتصال ليزا من أمريكا وسؤالها عني وعن راشد وأعطاني رقم هاتفها، وحدثني باقتضاب عن تعلقه بلطيفة ومقابلاتهما وأسرَّ لي أنه يتمنى لو يرتبط بها.

كدت أصرخ فيه: ـ ولم لا، تجاهل أن كنت تحبها، ما سوى الحب فليست مخاوفك سوى أوهام!.

اتصلت صبرا إحدى تلك الأمسيات، وكان في صوتها أثر الحزن الذي أعرفه، أخبرتني عن تدهور صحة والدها وأنه أصيب باكتئابٍ حاد وأصبح يلوذ بالصمت لساعات طويلة، وأجهشت بالبكاء..

شعرت بالحزن يكبل قلبي وأنا عاجزٌ عن الوقوف إلى جانبها في محنتها، ولا أدري كم من الوقت وكم من متطلبات موافقة الزواج والأوراق والمعاملات تبعدني عنها.

قالت: ـ آسفه حبيبي، أزعجتك، لا أحد سواك يمكنني أن أشتكي له.

زادني حديثها شعوراً بالأسف على نفسي لكني لم أرغب أن أزيد حزنها، لذا أمسكت لجام عواطفي وسألت في نهاية المكالمة إن كان ينقصها شيء، بعدما أخبرتها أني أنتظر انتهاء بعض الإجراءات لأكون معها.

استعبرت مرةً أخرى وقالت: ـ لا شيء من أمور الدنيا، أريد فقط أن أراك قريباً مني، على فكرة، سألني عنك والدي أكثر من مرة.

قضيت الليل في بيتي الموحش أفكر في حال المرأة التي أحببت وهي تقابل متاعب الحياة وحيدةً غريبة، فكرت في مسؤوليتي تجاهها وفكرت في حال والدها، ذاك الهيكل العظيم الذي يوشك أن يتهاوى.

تشدني ألعاب أطفالي المبعثرة على الأرض فأشعر بالاشتياق

وتكاد تخنقني العبرة، اشتقت للعبهم وصراخهم حين يملأ المنزل وتعطش قلبي لعناق عمر، يبدو أن في رائحة الأطفال شيئاً من السحر أو الإدمان.

يروعني حال أسرتي التي توشك على الانهيار، يا إلهي!، ما ذنب أطفالي؟، أمقدرٌ لهم أن يعانوا الشتات الذي عانيت؟، تعبرني صورة نهلة، ملامحها الغاضبة وعيناها الغارقتان بالدموع، أصفن أفكر فيها فلا أجدني أكرهها لكني أيضاً لا أحبها ولا أجد لها من الألفة ما يحرك ساكناً في قلبي.

أفكر في أبي وكيف سأحتمل غضبه وإعراضه، أحاول أن أقنع نفسي بكلام سلمان لكنَّ معرفتي بوالدي تأبى، ثم تشرق صورة صبرا ليرف قلبي مثل طائر معلق.

ذهبت صباح الخميس التالي إلى أمي فاستقبلتني بيدين مشرعتين كعادتها، أطلت معانقتها وودت ألا أرفع رأسي عن خمارها.

قلت: ـ أمي، أحب رائحتك.

ضحكت وهي تجلس قربي وتضع يدها على كتفي، كأنما تعرف حالتي وقائمة همومي.

قالت، وهي تتناول صينية الإفطار من الخادمة: ـ عمار، صحيح أنك على خلاف مع زوجتك وأنها تركت البيت؟.

ترددت، فلم أكن أرغب في إزعاجها، إذ كانت مبعدةً عن كل ما يخصني.

حاولت تجاوز الألم وقلت: ـ لا عليك يا أمي، أخبريني أنتِ ما حالك؟.

قالت بإصرار: ـ أخبرني، أرجوك يا بني، أتظنني لا أعرف ما تعاني، أم تراني مرتاحة لما أنت فيه.

قلت: ـ يبدو أننا لن نستمر، لا يمكنني الاستمرار مع هذه المرأة، لا يمر علينا أسبوع من دون نزاع.

قالت متنهدة: ـ آه، مثل أمها، لا تعيش من دون نكد ومشاكل، لم يستشرني أحدٌ في أمر زواجك منها. ونظرت إليَّ كأنما تعاتبني.

قلت ضاحكاً: ـ وأنا لم يستشرني أحد.

سكتت قليلاً ثم قالت، وقد غلبتها العبرة: ـ لا يا بني، لا تطلِّق زوجتك، لا أرضى لك أن تطلقها وتشرد أطفالك، لا أحب لهم الضياع بين زوجة الأب وزوج الأم، أطفال المطلقين أشد بؤساً من الأيتام!.

قلت: ـ وتخبرينني!؟.

وكادت الدمعة أن تخونني وأنا أقبل رأسها.

التقيت شيخة في منتزه النورس وحدنا لأول مرة، تحدثنا عن همومنا ومشاكل أيامنا، أخبرتها ما أعانيه مع أهلي ومع زوجتي، وشكوت لها نار البعد التي أحرقت قلبي، أفاضت هي من مكنون قلبها فأدهشني حديثها حين لم تر في المال والشهرة سوى قيود إضافية تكبل المرأة الخليجية وتحد من فرصها في نيل حياة طبيعية كباقي النساء.

قالت: ـ أحلم ببيت صغير وأطفال جميلين أربيهم وأعتني بهم مثل سائر الأمهات، أحلم بزوج محب يعرف قيمة المرأة، ليس مهماً أنْ يكون مشهوراً أو غنياً، فقط أريده أن يكون محباً، إنني امرأة قانعة.

تأملت حديثها وفهمت كيف تلح الفطرة عليها وقد تجاوزت الخامسة والثلاثين، وكيف تتنازل المرأة عن كل ما يعترض طريقها حين تحب وتعتبره وهماً لا قيمة له!.

أرسل أبو سعود في طلبي واتصل على هاتفي النقال، لكني تهربت من مقابلته، رجلٌ سليط اللسان عالي الصوت لا يؤمن أذاه، كنت

أتجنب مجادلته حتى قبل المشكلة، قرأت حكمةً لابن عباس كأنما تتحدث عن حالتي معه «لا تجادل بليغاً ولا سفيهاً، فالبليغ يغلبك والسفيه يؤذيك» كنت آمل أن أنهي معاملاتي لأسافر قبل أن أراه.

لم يُجد التهرب، فقد وجدته ينتظرني في المكتب مرتدياً عباءته وقد اعتنى بلحيته الطويلة وصبغها بالسواد، جلس على الكرسي المحاذي لطاولتي بعدما سلمت عليه وقبلت رأسه، ثم تحدث في أمورٍ شتى كأنما يبحث عن مدخلٍ للموضوع.

تمنيت أن يطلبني المدير أو يدخل علينا أحد الزملاء لكنهم لم يفعلوا، كأنما تمالأوا مع ضيفي الثقيل، سألني أخيراً: ـ عمار، ما الذي طرأ على حياتك مع زوجتك، هل هناك شيءٌ لا نعرفه؟ كنتما متفقين طيلة السنوات الماضية، ما الذي جد عليكما؟.

كنت على يقين أنه قد أُخبر بكل شيء لكنه يريد أن يسمع مني، أو يفضل تجاهل أسباب الخلاف ويعتبرها نزوة أحدثت خلافاً زوجياً سرعان ما يزول.

قلت: ـ يا عم، لم نكن على وفاق كما تظنون، إنما بدأت خلافاتنا تظهر للعلن ولم تعد قابلةً للتجاهل.

قال: ـ هل من خطأ في سلوك ابنتي، أخبرني؟.

قلت، وقد لمحت ما يقصد: ـ النكد والتطلع لما في أيدي الناس وسوء العشرة، أعذرني على صراحتي.

قال ضاحكاً: ـ هذه أمورٌ هيِّنة تزول مع الوقت، فالجاهل يتعلم والصغير يكبر، لكن لا تترك خلافاتك الزوجية تخرج عن أسوار بيتك فإنك تصعب حلها وتعطي للناس فرصةً للتدخل في حياتك الخاصة، أخبرني، أليس هناك شيءٌ آخر؟.

قلت محاولاً استغلال الجو الإيجابي: ـ إذا أردت الزواج ونويت

العدل والإنصاف مثل كل الناس ـ وفي هذا إشارةٌ إلى ما فعل ـ هل من مشكلة؟.

قال، وقد تغير صوته قليلاً: ـ عمار، أنت شاب وزوجتك شابة وجميلة، ماذا سيظن الناس إن تزوجت الآن؟ أنها مقصرةٌ في بيتها أم أنها لا تحسن عشرة زوجها، عندما تكبر زوجتك الأولى يمكنك التفكير في الثانية من بنات البيوت المحترمة.

قلت، وتجاهلت الإشارة في عبارته الأخيرة: ـ لكني أريد الزواج الآن.

قال، وقد تغير صوته أكثر: ـ إذاً صحيح ما يقال من أنك تعرف امرأة أجنبية.

قلت: ـ لا يا عم، إنها عربية، تعرفت..

قاطعني غاضباً، وتحول صوته إلى ما يشبه نقيق الضفدع: ـ عربية، عربية، قل لبنانية عرفتها في فرنسا، ألهذا كنت لا ترد على اتصالاتي؟.

قلت، محاولاً تهدئة انفعاله: ـ لا والله يا عم، كنت أنوي أن أزورك بدلاً من الهاتف لكن كنت مشغولاً..

قاطعني، وقد بلغ زعيقه المكاتب الأخرى: ـ اسمع يا ولد، لن تدخل على ابنتنا ضرةً أجنبية لا ندري ما هي ولا من أين ستأتي بها، لا تدخلنا وتدخل نفسك في المشاكل.

ساد الصمت بعد هذا التهديد إلى أن قال، بعدما هدأ انفعاله قليلاً: ـ عمار، كنا نعرفك شاباً صالحاً، ترفَّع عن هذه السفاسف، فليس هذا مستواك، ماذا تريد أن يقول الناس، ألا تحسب حساب والدك، لا لا أظنك جاداً فيما تقول، أنت ابن الرجال الكرام تفعل هذا!؟.

تلك طريقة كبارنا في حمل الشاب على الأمر الذي لا يحب،

يخلقون له جواً من الرهبة كأنما سيرتكب الذنب الذي لا يغتفر ويلحق العار بأهله وأقاربه، ثم يوقظون في قلبه الحمية ويدفعونه إلى حيث يريدون.

قلت بهدوء: ـ أنا من يريد أن يتزوج، وأنا وحدي المسؤول عمن أردت الاقتران بها.

هبَّ واقفاً يشير بيده: ـ من أين هي المرأة التي تريد أن تتزوجها، أنت جاهل، أنت... وبدأ يكيل الشتائم ويتوعد، بينما وقفت ملتزماً الصمت.

لم أستغرب ما حدث، فقد كان الخلاف بين طبيعتينا مغطىً برمادٍ خفيفٍ سرعان ما تطاير عند أول اختلاف، لم أكن أطيقه وأظنه لم يكن يطيقني، لم يزوجني ابنته لذاتي إنما لاعتبارات عائلية وقبلية، كان يأمل أن يحتويني القالب ويصوغني مع الأيام نسخةً عنهم لا أختلف في شيء.

الناس عندنا متشابهون، لهم ذات نمط المعيشة ويحملون نفس الأفكار والمسلمات، يتبعون مدرسة واحدة في الفقه والعادات والتقاليد وحتى في زراعة النخيل وارتداء الملابس، فلو غيرت مثلاً لون غترتك لصادفت عند الباب من ينكر عليك!، إذا عرفت واحداً منا فقد عرفت الجميع، إذ لامكان عندنا للتنوع، لذا عليك أن تعذرنا حين لا نستطيع تقبل الأشخاص أو الأفكار الجديدة.

صحيح أننا نزلنا المدينة وسكنا الفلل والقصور الفارهة وركبنا السيارات بدل الإبل إلّا أن القبيلة ما زالت تسكن وتحكم وجداننا، نرى بعينها ونقيس بمفاهيمها رغم ما ندعيه من العلم والتحضر.

شعرت باكتئاب شديد، فأغلقت الباب وانزويت على الكرسي الذي لا يواجهه، ما الذي يريدونه مني، كأنما ستؤثر قضية زواجي في أمن العالم وأسباب معيشته!، لماذا يحولون بيني وبين من أحب،

وإلى متى يجب أن ألبس قناع الكذب الذي أثقلني؟، ما ذنبي وما ذنب المرأة التي لم تحبني يوماً وقد ظلمت مثلي؟.

هربت في المساء إلى البحر، إلى المكان الذي ألفت، جلست أراقب السفن العابرة وأسرِّح الخيال بعيداً نحو من أحب، لا أدري ما هذا السر الأزلي الذي يربط روحي بالبحر، هدوؤه أم غموضه وما يخفيه من أسرار، أم تراه يعيدني إلى أيام طفولتي حين كنت أبكي كل ليلة مشتاقاً إلى حضن أمي، وأغطي رأسي كي لا يروا دموعي فيعنفوني.

كانت مرارة الشعور بالذنب تجاه زوجتي وأطفالي وما هم مقبلون عليه تحز في قلبي، ما إن أتذكر وجوههم حتى يتصاعد قلبي إلى حنجرتي حزناً واشتياقاً، لم أر سلطان ولم ألعب مع عمر منذ زمن لا أكاد أتذكره، اشتقت إليه وهو يتسلقني، يقبلني ويرمي بيديه الصغيرتين حول عنقي، سلطان يأتي بيني وبينه ويلقي بنفسه في حجري يشاغلني عن أخيه، يا لغيرة الأطفال، وتتداح الذكريات فتحاصرني العبرة، يا إلهي..!، ماذا صنعت بنفسي وما الذي سيصبرني عنهم، أتصل بنهلة؟.

هاه..، لا بد أن أتصل، أريد ان أراهم، أدير الرقم ثم أتراجع، وتقطع أبواق السفينة العابرة خطوط أفكاري، ترى أين هي صاحبة الصوت، لا بد أن تكون تلك المتميزة بأنوارها الكثيرة المنعكسة على صفحات المياه، إلى أين تراها تسافر، وتشرق صورة صبرا فيطير إليها قلبي.

ربما كنت مخطئاً في نظر أهلي وقومي، وحتى أصدقائي الشباب لم يجد بعضهم منطقاً معقولاً لما أفعل، لكني منحازٌ إليها حتى قبل أن أفكر بما هو صحيح أو غير صحيح، قلبي لا يقبل في حبها المساومة.

كتبت في الصباح أخبرها أني سأكون معها قريباً، ورجوتها أن تصبر، فما بعد الشدة إلا الفرج، ما أجمل الصباح المشرق حين تغرد الطيور وتتفتح الأزهار بعد ليلةٍ عاصفة مطيرة.

سيطر التوتر عليَّ بشكل متزايد مع قرب وصول والدي، خصوصاً حين تأكدت أن أفراداً من العائلة سيوغرون صدره، وربما بدأت حياكة بعض القصص في بيت أم إبراهيم التي كانت تستضيف نهلة وأمها البارحة.

لم أعد أعرف إلى أين أذهب وإلى من أشتكي، وقد صار الجميع يلومني ويخطئني، حتى أصحابي تراخى أكثرهم رغم ما ينادون به من استقلال الشباب وحريتهم في اختياراتهم الشخصية.

ظلت شيخة تتصل بي وتسأل عن أحوالي وأحوال صبرا، دعتني إلى الغداء في أحد المطاعم العائلية الراقية، وشجعتني على اتباع قلبي حين أخبرتها أني عزمت على السفر وعرضت المال لكني رفضت شاكراً وفاءها.

قالت: ـ أعلم أنك تحب صادقاً، وأن حياتك مع زوجتك قد أصبحت عبئاً عليكما ولن يزيدكما الاستمرار إلا عذاباً، وأعرف أن هناك من يستحقك ويرهن حياته في انتظارك.

تحدثنا مطولاً عن الذكريات الجميلة وعن الأصحاب، وكان جميلاً منها ذلك الموقف، وبينما تدفع ثمن الغداء قالت كالمستدركة: ـ أريد أن أستشيرك في أمر.

قلت: ـ شيخة، أنت صديقتي العزيزة، فأخبريني ما عندك.

قالت: ـ لا أدري. وسكتت قليلاً ثم تابعت: تعرف ما بيني وبين راشد، بدأ تقاربنا في باريس ثم تطور بعدما عدنا وأصبحنا نتهاتف كل يوم، التقينا عدة مرات قبل أن يعرض عليَّ الزواج ويعدني بالكثير

مما تحب أن تسمعه النساء، لكنه تغير في الفترة الأخيرة وصار يتهرب مني ولا يرد على هواتفي، فما رأيك؟.

قلت: ـ أعرف ما بينكما، كان معجباً بك منذ البداية، لا أدري ما الذي حصل له الآن، لكن دعيني أستوضح الأمر.

قالت، وقد خافت أن أسيء فهمها: ـ عمار، التقينا في أماكن عامة، مطاعم ومتنزهات، أنت تعرف أخلاقي وحدودي.

طمأنتها إلىْ حسن ظني بها ووعدت أن أناقش الأمر مع راشد، وانتقصت فرحة لقائنا بهذا الاستدراك.

ذهبت في المساء بصحبة سلمان إلى المقهى، وكان غاضباً لأننا رشينا أحد المتنفذين ليسهل لنا موافقة الزواج.

قال، بينما نأخذ مكانينا: ـ لم تعد هناك قيود أو ممنوعات، صار لكل شيء ثمن، بل إن بعض الممنوعات إنما منعت ليستفيد من تمريرها من يستفيد!، لم تعد للبشر مبادئ تحكمهم.

قلت: ـ إنه عصر المادة يا صديقي، ولّى زمن المبادئ، سيطرت نظرية المنفعة على عقول الناس وصار لكل شيء ثمن يشترى به، تحسب كل ما حولك حسب منفعته وقيمته المادية.

قال متنهداً: ـ عندها سيكون لكل ما تملكه قيمة وثمن إلّا أنت لن تساوي حينها شيئاً، وتمثل بقول أبي العلاء: ـ

صم ثم صلِّ وطف بمكة زائراً   سبعين لا سبعاً فلست بناسكِ
ليس التقيُّ من إذا عرضت له   أطماعه لم يلف بالمتماسكِ

اقتصر الدين على المظاهر والشعارات، أما جوهره فأول ما ينحسر عن القلوب على أعتاب المطامع!.

استمر في الحديث بينما سرحت أتأمل البحر الكسول يرخي أمواجه على الرمال البيضاء، ومفكراً فيما سأفعله مع أبي سعود وتهديداته، ظننت أنه سيستخدم الدين لإيذائي، سينصب نفسه ـ كما

يفعل دائماً ـ مقيِّماً لسلوك الآخرين ويتحدث عن مثالياتٍ هو أبعد الناس عن جوهرها . . «يمقت الله الشفاه الكاذبة».

انتبهت لطفلٍ يشبه سلطان يلعب قريباً من والده لا يفصلنا عنهم سوى الزجاج، تاق قلبي اشتياقاً وأنا أراقبه يجري خلف كرته الصغيرة بين الطاولات، تذكرت ابنيَّ ولعبنا وضحكنا حين نستلقي لمشاهد أفلام الكرتون، وكيف يبكيان ويصرخان حين أدير القناة، كادت العبرة أن تغلبني حين فكرت في مستقبلهم وكيف سيكبران بعيداً عني، كم كان حزيناً قلبي ومشتتاً بين الحب وبين الواجب، بين أطفالٍ كالعصافير لا ذنب لهم ولا عذر لي بتركهم وبين المرأة التي تعلقتها روحي تنتظرني على الضفة الأخرى يملأ قلبها الخوف وتوحشها الغربة.

فكرت حين غلبني الشوق أن أذهب إلى بيت أبي سعود أو أرسل أخي عوف فيأتيني بهما، ما عدت أطيق الصبر وما بيني وبينهما سوى شارعين أو ثلاثة.

ذهبت لأسلم على والدي بعد عودته صباح الجمعة، وكنت آمل أن أجد عنده من يحبهم من أصحابه، فلم يكن يؤدبنا أو يصرخ فينا بحضور الناس، وفعلاً وجدتهم، كان حديثهم وضحكهم عالياً سمعته حال دخولي الباب الكبير وقد تحلقوا حول صندوقٍ من الكمأ، تغير وجه والدي حين رآني، سلمت عليه وقبلت رأسه ويده وهو يتمتم بينه وبين نفسه من دون أن ينظر إليَّ، جلست متنحياً ومكتفياً بالاستماع بينما واصلوا أحاديثهم كأن لم يلاحظوا شيئاً.

أردت أن أستأذن لكنه أشار إليَّ أن اجلس، ولحسن حظي بقي الأصحاب إلى قرب صلاة الجمعة ولم يبق من الوقت سوى ما يكفي للوضوء واللحاق بالصلاة، استمر حسن الطالع بعد الصلاة حين حضر بعض الأقارب وتغدوا معنا، وكان يرمقني بين حين وآخر كأنما

يتوعدني وأنا خائف ومتوتر، تسللت حين قام إلى صلاة العصر وهربت إلى شقتي غير مصدقٍ بالسلامة.

اتصل بي وقت المساء فلم أجب، ثم عاود الاتصال في العمل فوعدته أن أحضر بعد العشاء حين لم أجد عذراً.

سيارة أبي سعود الواقفة أمام الباب أول ما رأت عيني تلك الليلة، استجمعت قواي ودعوت الله ألّا يمد والدي يده عليَّ أمام الناس، فلن أتحمل شيئاً كهذا.

أشاع بعضهم أني مسحور، ورأى آخرون الأمر طيشاً وسوء تربية، وقلل بعضهم من أهمية القصة واعتبروها حكاية حبٍ يمكن أن تحدث، وللأسف لم يكن والدي من هؤلاء، فقد بادرني غاضباً حال جلوسي: ـ هل صحيح أنك تخليت عن بيتك وأولادك من أجل امرأة، ما هذا الذي أسمع؟.

سكت، لكنه نهرني قائلاً: ـ أجبني، ألا تسمع؟.

قلت: ـ يا والدي، لا أريد أن أظلم نفسي وزوجتي، فنحن على خلاف مستمر ولا نصلح لبعضنا.

قال أبو سعود: ـ قصرت معك في شيء؟ أخبرني وسوف أؤدبها.

ثم أردف متهكماً ـ وجدتها تنظر من النافذة؟، أم خرجت من بيتها من دون إذنك!؟.

قلت: ـ لا شيء من هذا، لكني أريد أن أتزوج مثل من يتزوجون من الرجال، فأين الخطأ؟.

هز والدي رأسه وهو مطرقٌ ينظر إلى الأرض، ثم نظر إليَّ بعينين ملؤهما الازدراء وقال: ـ أنت مسكين لا تعرف معنى السمعة والشرف وإلّا لما تركت ابنة عمك ومن تعرف حسبها وأصلها وتوجهت إلى أجنبية يعلم الله أين التقيت بها، لتضحي بأبنائك

وأهلك من أجلها، ما هذا؟ أليست لك غيرة الرجال، ألا تستحي من كلام الناس.

كلام والدي وتعريضه بالغيرة والرجولة مؤلمٌ وشاق لكني سكت رجاء أن أستوعب غضبه.

قال أبو سعود، وهو يرمق والدي: ـ عمار، يا بني، لا يمكنك العبث ببنات الناس هكذا من دون سبب، كنا نظنك شاباً صالحاً تحافظ على نواميس أهلك وعائلتك، ما الذي حدث لك؟.

دخل إبراهيم في هذه الأثناء، فعاجله أبي قبل أن يجلس: ـ إبراهيم، ألا ترى ما يفعل أخوك؟، يريد أن يجلب علينا العار!.

قال إبراهيم، وهو يتناول فنجان القهوة وينظر إليَّ بغضب: ـ حذرته من قبل، لكنه أرعن.

تصورت أن إبراهيم جاء مشحوناً من الداخل، فلم يعد لدى نساء العائلة سيرة أخرى، تفرح العجائز بالقصص المثيرة مثل قصتي، يمزجنها بشيء من الخيال والتخمين فيكسبنها الإثارة، ويجدن في تكرارها والزيادة عليها والنقص منها التسلية مع شاي الضحى كل يوم.

قال أبو سعود بلسان الناصح لوالدي: ـ يجب أن يمنع الجاهل من جهله لمصلحة العائلة ولمصلحته، سيفيق يوماً ليعلم كم هو مخطئ، كما أننا لا نرضى أن تكون لابنتنا ضرةٌ من هذا القبيل ولا أن تربي أحفادنا..

استمروا في عذلي وتعنيفي وتسفيهي وأنا ساكتٌ كما لو كنت مخطئاً فلن تنفعني الحجة عند من لا ينصف، لم تكن تنقصني الحجج بقدر ما تنقصني الجرأة والقدرة على التعبير في حضور والدي.

شعرت بالحزن وبالغضب الشديد حين شتموا صبرا واتهموها بالباطل، وغادرت البيت مطروداً تتبعني الشتائم.

لفحتني رائحة البحر في نفس المكان الذي أهرب إليه حاملاً حزني وهمومي من دون أن أشعر بالطريق، الجو بارد وسلمان يتصل بإلحاح حتى أجبته وأخبرته ما حدث، فجاء واصطحبني إلى المقهى.

لبثت يومين كئيبين بعدها، لم أغادر خلالهما منزلي الصغير، اكتفيت بالاتصال بأبي عبد الله وادعيت المرض فأذن لي من دون جدال، ربما لأنه كان يعلم زيف حجتي أو لأنه ملَّ من كثرة غيابي وأعذاري.

ذهبت في نهاية الأسبوع لزيارة راشد في قريته التي لا تبعد أكثر من ساعة، كنت بحاجة إلى الابتعاد لبعض الوقت.

ليست جميلة ولا مرتبة على غرار المدن والقرى الحديثة لكنها مريحة للنفس تدخل قلبك من أول مقابلة، قد تحب المدينة من أول يوم ثم لا تزال تحبها لبقية عمرك.

بلدة قديمة، بعض منازلها ما يزال من الطين، تزينها بساتين النخيل وتحتضنها الكثبان الرملية الحمراء من كل اتجاه، وصلت وقت صلاة العصر فلم أجد من أسأله عن الطريق، البيوت مسورة والأبواب مغلقة في الشارع المرصوف الوحيد في القرية، الجميع في المساجد، لا ازدحام ولا أبواق ولا أدخنة سيارات، يا للهدوء الذي نفتقد!.

توقفت عند المحطة القريبة من مدخل القرية واتصلت براشد فجاء مسرعاً معتذراً أنه كان في المسجد وإلّا لانتظرني.

قال: ـ تحب أن نتجول لأريك القرية القديمة أم نذهب إلى البيت لتناول القهوة؟.

قلت: ـ بل نسلم على والدك إن كان الوقت مناسباً.

فاجأني الدكان المعتم في البناء المتهالك، رفوف الخشب القديمة وقد أصابها الاعوجاج وتراكم عليها الغبار، بضاعةٌ تمتد من الأواني المنزلية وأدوات الكهرباء والمواد الصحية إلى الفوانيس القديمة وقرب الماء ومواقد الكاز ولوازم القهوة، يجلس في زاويته خلف طاولةٍ صغيرة رجل مسن يلف شماغه على رأسه من دون عقال، يقف خلفه عاملٌ من الجنسية الهندية خط الشيب مفرقه وصدغيه، يبدو أن كل ما في هذه القرية أثري وقديم.

راح الشيخ يحدق بي ويعبث بلحيته البيضاء الخفيفة، يسوك فاه الذي لم يصمد فيه سوى سنان أو ثلاثة ولم يتحرك من مكانه، أمال رأسه وصر عينه ينظر إليَّ بينما أنحني للسلام عليه وراشد يرفع صوته من ورائي يعرِّف بي: ـ هذا زميلي عمار، جاء يسلم عليك.

جلست على الكرسيْ الخشبي قريباً منه، وجلس راشد على صندوق البضاعة المقابل.

أشار الشيخ إلى الهندي ففهم وانطلق بينما رحت أسأله عن صحته وأجامله وهو يحدق بي من وقت لآخر لا يزيد على «أهلاً وسهلاً وحياكم الله»، ثم يعود ليتأملني ويعبث بلحيته بشكل عفوي.

مال راشد نحوي وقال ضاحكاً: ـ ارفع صوتك فهو لا يسمعك.

رفعت صوتي فتحسنت الأمور قليلاً لكن لا أزال أشعر أنه يتوجس مني أو يستغربني، لم يبتسم مرة واحدة رغم جلوسنا لأكثر من نصف ساعة.

شربنا الشاي وأجلنا أنظارنا في الدكان الذي يصلح لأن يكون متحفاً أو معرضاً للتراث أكثر منه محلاً للبيع والتجارة.

تجولنا بعد ذلك في البلدة القديمة وتمشينا بين بساتينها وأزقتها المتعرجة الضيقة قبل أن نعود إلى البيت وقت صلاة العشاء.

صادفنا الشيخ عند الباب متوجهاً إلى المسجد، وقد تبللت أكمامه ولحيته من أثر الوضوء.

قلت ممازحاً: ـ لم يؤذن بعد يا عم.

قال: ـ لا تكن مثل عبد السوء لا يأتي إلّا بعد النداء. ومضى من دون أن يبتسم!.

أمتعتنا قراءته حين صلى بنا في مسجد الطين ذي الأنوار الخافتة والسقف الخشبي الذي تدلت في زواياه أعشاش العناكب، كان لسورة الفجر، بصوته الأجش العميق، إيقاعٌ لذيذٌ يلامس شغاف القلب.

انصرفنا من الصلاة إلى المجلس التقليدي الدافئ الخالي من كل مستلزمات الحضارة الحديثة سوى مكيف الهواء، لم يحضر أحدٌ من إخوة راشد المتفرقين في مدن الخليج يتتبعون أرزاقهم مثل أبناء جيلهم، بينما جلس الكبار يحرسون الدور والبساتين القديمة كأنما يخافون أن يغادروا الماضي.

تأملت الشيخ، وأنا أتناول القهوة مقابلاً له، رجلٌ مسنٌ حفر الزمن أخاديده على جبينه وصدغيه، من جيل القدماء الذين لا يجيدون تغليف الكلمات ولا يعرفون تبذير المال ولا الاستمتاع بالحياة، لم يسمعوا بشيء اسمه تقاعد ولا يصدقون أن أحداً يسافر لمجرد المتعة، يرتابون من كل ما هو جديد، لا يؤمنون بصداقة الغرباء ولا يثقون بهم، قومٌ توقف بهم الزمان قبل عصر الكهرباء.

نعس الشيخ فتركنا بعد عشاء المرقوق اللذيذ، وبقيت وراشد ساهرين يحدثني عن والده وعائلته وقريته حتى مال بنا الحديث صوب الذكريات الجميلة، فتذكرت شيخة وما كنت وعدتها.

قلت: ـ راشد، أريد أن أتحدث معك بصراحة، لا تغضب مني. فأنت صديقي ويتحتم عليَّ مصارحتك.

قال، وهو يطوي الوسادة تحت كوعه ويصطنع ابتسامة: ـ أبداً، لا أغضب منك، بل أحب الحديث معك وأنت تعرف ذلك.

قلت، وتجاهلت ما بدا عليه من القلق: ـ اشتكت لي شيخة إهمالك لها مؤخراً.

قال بنبرةٍ لم تخل من الحدة وقد استيقظ فيه ابن القرية: ـ كلمتك!؟.

قلت: ـ إلى من تظنها ستشتكي أو تبوح بهمها، ألست صديقكما أم نسيت أننا عرفناها معاً؟.

قال بصوتٍ أهدأ: ـ ما كان ينبغي لها أن تفعل، فليست بيننا مشاكل!.

قلت: ـ كيف ذلك وهي تقول إنك قاطعتها بعدما وعدتها بالزواج.

قال، وهو يضحك ويشيح بنظره صوب النافذة: ـ زواج؟ لا أظنني سأتزوج بفتاة تعرف المكالمات والمقابلات.

قلت: ـ لكن أنت رضيت منها ذلك وشجعتها عليه.

قال: ـ كانت تعرف المقابلات والحفلات قبل أن نعرفها، هل نسيت أين قابلناهم أول مرة؟.

قلت: ـ هذا نمط حياتهم، بالتأكيد ليسوا مثلنا، وأنت أحببتها ووعدتها.

قال: ـ كان إعجاباً أكثر منه حباً، إعجابٌ بالغنى والثقافة والحياة المتحررة، ربما كنت أبحث عن الحب الذي لم أجربه، لكن الزواج شيءٌ آخر وإن وعدتها في لحظة تهور!، من يضمن إن تزوجتها ألّا تكلم أو تعرف رجلاً آخر، لا، الزواج مستحيل، ما مضى كان عاطفةً زائلة وعبثاً انتهى إلى لا شيء، وهي تعرف ذلك في قرارة نفسها..

صعدت الدرج الضيق أتبعه يرشدني إلى المكان الذي سأمضي فيه الليلة بعد أحاديثنا ومجادلاتنا الطويلة.

استقبلتنا رائحة البخور في الحجرة الصغيرة شبه المظلمة رغم وجود نافذتين صغيرتين تطل إحداهما على الشارع وتطل الأخرى على بساتين النخيل، يتوسطهما سرير خشبي فرش تواً بأغطيةٍ ووسائد جديدة.

غفوت أول الليل ثم أفقت لدخول الحمام من كثرة ما تناولت من الشاي والقهوة، حاولت بعدها العودة إلى النوم لكني تأرقت وبقيت مستلقيا أفكر في راشد وشيخة وفي أحوالي وما آلت إليه.

مضى الليل الطويل هادئاً لم يكدره سوى قرقعة الريح في النافذة القديمة وأصوات الكلاب الضالة تأتي من البساتين البعيدة.

عدت بعد صلاة الفجر وفتحت تلك النافذة، فإذا الكثبان الحمراء تنتصب على طول الوادي مثل أمواج عملاقة تنتهي أطرافها الدقيقة بين بساتين النخيل، جلست مطولاً أتأمل تغير ألوانها وتحول ظلالها مع الإشراق.

أصوات العصافيرعلى الأشجار وهديل الحمام فوق السطوح تختلط بأصوات مكائن الآبار القريبة.

عدت وقت الضحى إلى شقتي وارتميت على السرير فلم أفق إلا بعد الغروب، يا إلهي، أضعت الصلاة وتغيبت عن غداء الجمعة، لا بد أن والدي قد افتقدني.

مررت به في المساء وسلمت على رأسه فتمتم بكلمات لم أميزها، جلست متوارياً عن وجهه وهو يتحدث إلى أصحابه ولا يلتفت نحوي، قمت بعد بعض الوقت كأنما أريد دورة المياة، ولم آمن أن يناديني أو يرسل ورائي حتى ركبت سيارتي وتجاوزت الشارع.

منَّيت نفسي أن أكون جاهزاً للسفر خلال أسبوع يمكنني خلاله

الصبر ومماطلة أبي، أما بعد السفر فسأترك إصلاح الأمور للزمان، يمكنني مثلاً أن انتقل مع صبرا إلى مدينةٍ أخرى حتى يهدأ الخصام وتطيب الخواطر!.

كنت في غاية الاشتياق لرؤية سلطان وعمر لذا تجاهلت مشاعر الغضب واتصلت رجاء أن تمكنني نهلة من رؤيتهما، لكنها لم ترد على اتصالاتي الكثيرة فلم أفق إلّا وأنا واقفٌ أمام بابهم.

قرعت الجرس ففتح لي أبو سعود الذي فوجئ بزيارتي، دخلت من دون أن أسمع منه شيئاً حتى جلست، فباغتني: ـ ما الذي جاء بك؟.

أجبت: ـ أريد رؤية أبنائي.

ما إن أتممت جملتي حتى دخل سلطان يحمل لعبةً على شكل بندقية صغيرة فصاح: ـ بابا.. بابا. وركض نحوي، قمت إليه لكن أبا سعود كان أقرب إليه فحمله من يديه وأسرع به إلى الداخل وأنا أتبعه وأتوسل إليه حتى أغلق باب الحريم وراءه حيث لا يمكنني الدخول.

وقفت ذاهلاً يعتصر الألم قلبي، فعاد وأمرني بالمغادرة مشيراً بيده إلى الباب: ـ أخرج، فلا مكان لك عندنا، أنت لا تعرف قيمة الأبناء ولا الزوجة.

أجبت، وقد غلبني الغضب: ـ كيف تحرمني رؤية ابني أيها الظالم، أنت لا قلب لك.

شتمني وتوعدني وهو يسوقني، وحانت مني التفاتة فلمحت نهلة واقفة تنظرعلى النافذة.

أخرجتني الكآبة إلى الاستراحة تلك الليلة عسى أن أجد من الأصحاب من يأنس بقربهم قلبي ولو قليلاً، نزلت وتركت مسدسي مخبّأً في السيارة.

لم يكن ثمة أحدٌ من أصحابي المقربين، فجلست أقلب قنوات التلفزيون بينما تنهمك المجموعة في لعب البلوت، سرحت أفكر في أحوالهم حينما لم أجد ما يشدني على الشاشة، قلت في نفسي لا بد أن يكون لكلٍ منهم همٌّ يحمله ويظنه أكبر من هموم الآخرين لكن قلوب الرجال صناديق مقفلة، يلعبون ويضحكون ملء أفواههم ويتشاجرون كأن لا همَّ لهم سوى لعبة البلوت.

لم أنتبه إلّا والعصا تهوي على رأسي، وثبت محاولاً الدفاع لكن الثانية عاجلتني وكانت أقوى، فغشى الدم وجهي وحجب عني الرؤية بينما حال الحاضرون بيني وبين من ضربني وأنا أحاول الوصول إليه، كان يسب ويتوعد: ـ والله لأقتله، والله لأقتله، كيف يقتحم منزلنا ويشتم والدي!؟.

كان هذا آخر ما سمعت قبل أن أفيق في المستشفى معصوب الرأس، تجلس والدتي إلى جانبي وقد غلبها النعاس.

أفاقت على حركتي وأنيني فقبلتني وجعلت تبكي وتسب سعود وأباه وأمه، وتخبرني بلهجتها الغاضبة أن في رأسي ست غرز.

كنت أشعر بهم يقطبون رأسي في مثل الحلم، طمأنتها وتظاهرت أن الأمر بسيط لا يستحق دموعها وسوف آخذ بثأري من المدمن وأتزوج من هي خير من ابنتهم، ولاحظت عدم ارتياحها للعبارة الأخيرة.

أما في نفسي فقد أعفاني ما صنعه سعود من الإحراج الذي كنت أشعر به تجاه العائلة ومن الكلمات التي قلتها لأبيه في لحظة الغضب.

لم أخبر أحداً من أصحابي أو زملائي الذين لم يحضروا الحادثة حقيقة الأمر، شعرت أن الموضوع مهين لي ولعائلتي ولا يسرني أن يتناقله الناس، لذا ادَّعيت أني وقعت في الحمام.

يبدو أن عقلي الباطن كان يدفعني لكتمان الأمر مخافة أن تكبر المسائل ويتعطل أمر السفر، ونويت أخذ ثأري بيدي فذلك أعز من أن تأخذه لي الشرطة، هكذا نفهم الأمور!.

وصلت إلى البيت متعباً، فما زال أثر التخدير يثقل جسدي، كانت الساعة قد تجاوزت منتصف النهار، وبينما أرتب أطباق الطعام الذي أحضرت من المطعم المجاور اتصلت صبرا وسألتني عن سلامتي!.

قلت مستغرباً سؤالها: ـ مالك حبيبتي؟، كل شيء على ما يرام.

قالت بصوتٍ متهدج: ـ آه، كنت أعرف أنك في خطر، ما به صوتك؟.

قلت متصنعاً الضحك، بينما يطبق الصداع على رأسي: ـ صبرا، هل تنجِّمين؟ بلى، أصبحت تنجمين مثل العجائز.

قالت: ـ دعك من هذا وأخبرني ما حدث لك.

قلت: ـ ما أدراك!؟.

قالت: ـ رأيت حلماً مزعجاً، أرجوك، أخبرني.

قلت: ـ حادثة شجار بسيطة لا تستحق القلق.

قالت: ـ رأيت كأن عاصفةً قويةً تدفعك بعيداً عني وأنا أصيح من شرفة بيتنا في بيروت وأناديك حتى انقطع صوتي وأنت لا تسمعني، يطاردك كلب مسعور وتسيل من رأسك الدماء على شكل جدائل، ست جدائل.

قلت: ـ الأمر بسيط لا يستحق القلق، أرجوك.

قالت: ـ ست غرز، أليس كذلك، يا إلهي!، من آذاك حبيبي؟.

قلت، وقد أخذتني الدهشة: ـ صحيح، تشاكلت مع أحدهم.

قالت باكية: ـ من أقارب زوجتك!؟، أعرف أن كل هذا يحدث بسببي، أنا من سبب لك المشاكل، ماذا أفعل؟، ليتني لم أعرفك.

سكت حين خنقتني العبرة ثم قلت: ـ لا تقلقي حبيبتي، لا أتخيل نفسي مع الأخرى ولا أريد سواك، فلا معنى لحياتنا من دون من نحب، لا تلومي نفسك، فقد بُني الماضي على الوهم وبيوت الوهم لا تصبر على عوادي الزمان، لم يبق إلا القليل، فاصبري، أرجوك ولا تبكي.

قالت: ـ أصبر!، وهل أعرف سوى الصبر، لم أفعل شيئاً طوال حياتي غير الصبر، ألا ترى اسمي مشتق منه، أصحيحٌ أن لكل مسمى من اسمه نصيب؟.

قلت: ـ الصبر الجميل ذخيرة المؤمن.

قالت: ـ أفي الصبر شيء جميل؟.

قلت: ـ ما صاحبه الرضى والتسليم، ما لا شكوى فيه ولا جزع، ألا تقرأين القرآن.

قالت: ـ يا رجل، تريد صبر الأنبياء؟، مهلك عليَّ، فلست سوى فتاة ضعيفة.

قلت، وأنا أشد على الألم: ـ بل أنت قويةٌ وعزيزة، لا تستشعري الضعف يا أعزَّ الناس فتضعفي.

قالت بصوتٍ بائس وتنهدت: ـ من أين لي، يا رب ساعدني وخذ بيدي.

ساد الصمت لبعض الوقت ثم قالت تحاول الخروج من نفق الحزن: ـ عمار، تحبني؟.

قلت: ـ نعم يا سيدة أحلامي، وسأجعلك أسعد النساء.

قالت، وتضحك: ـ تحبني كثيراً؟.

قلت: ـ

تملك بعضُ حبك كلَ قلبي   فإن ترد الزيادة هاتِ قلبا

قالت، وبدا على صوتها بعض الانشراح: ـ الله، الله، تسحرني كعادتك. ثم استدركت: ـ آه نسيت، والدي يسأل عنك ويريد أن يسمع صوتك.

قلت: ـ صبرا، أنا الآن موجوعٌ، أفضِّل أن أتصل به في يوم آخر.

قالت: ـ صحيح، صحيح، صوتك اليوم لا يساعد، على فكرة، كتبت لك رسالة ستصلك قريباً.

ودعتها وهرولت أجيب الجرس الذي ألح في الرنين.

فوجئت بأخي عوف وابتسامته الهادئة وهو يتأمل الضماد الذي يلف رأسي ويتحسسه، عانقته وأمسكت بيده نحو غرفة الجلوس ليشاركني طعامي، تفقدني بعينين ملؤهما الحنان وأخبرني أنه سيأخذ بثأري من سعود، فنهيته وطلبت ألّا يؤذي أحداً.

سألني عن حقيقة ما يقال، فتوقعت أن والدي أرسله لينصحني بشأن من أسماها الفتاة الأجنبية وإلّا فليس من عادته أن يسأل عن شيء.

قلت، ورجوت أن يميل إلى جانبي: ـ عوف، أخي، أنت شاب متدين لا تؤمن بالعصبية ولا تسيء الظن بالناس، إنها فتاةٌ صالحة أحببتها وأردت أن أتزوجها، أليس الزواج مشروعاً.

قال: ـ إن كانت سافرة وناشئة في بيئة غير متدينه فلا أنصحك بها، النساء في بلادك كثير.

قلت: ـ لكن قلبي لا يميل إلا إليها.

قال: ـ لو ملأته بذكر الله ما مال إلا إليه!، ألا ترى ما يحل بالمسلمين وأنت منشغلٌ بالحب والترهات؟، شمِّر عن ساعديك والحق بركب المجاهدين الصالحين، مجدنا في الجهاد وسعادتنا في الجنَّة.

كنت سأجادله لكنني رأيت تياراً جارفاً لاطاقة لي به، ثم إن

الصداع قد اشتد من جديد ولم تعد لي رغبة في الجدال، فأمسكت برأسي واشتكيت الصداع.

آلمني إهمال والدي وأخي إبراهيم وعدم اكتراثهما لأمري، وكنت أسرع كلما رن جرس الباب أو الهاتف رجاء أن يكون أحدهما.

ازداد بعدي عمن حولي حتى اعتزلت الجميع وتعالى جدار الوحشة بيني وبينهم، فما عدت راغباً في السهرات والمجتمعات التي كنت أرتادها وإن مررت بشيءٍ منها بين وقتٍ وآخر فبدافع الضجر لا أكثر.

كان سلمان استثناءاً من كل هذا، شأنه منذ الطفولة، يأتي بعد صلاة العشاء حاملاً معه الطعام فنعدُّ الأرجيلة ونجلس على الأرض ندخن ونتابع التلفزيون أو نستمع إلى أغنيات محمد عبدو الذي كان قاسماً مشتركاً ضمن الكثير من مشتركاتنا، كثيراً ما سهرنا نردد «المعازيم» أو «كلك نظر» أو «الرسايل» التي يعشقها سلمان.

محمد عبدو، مطرب الشباب من جيلنا على امتداد الخليج، يرقصون على أغانيه في السهرات وليالي الأنس ويبكون عليها حين يعتريهم الضجر وتخنقهم الوحدة، تثير كل أغنيةٍ ذكرى لقاء أو فراقٍ أو موقف يستحيل على النسيان، يشكل هذا الفنان جزءاً من ذاكرتنا الجماعية في الخليج، نحمله في السيارات ونصادفه في الأعراس والأعياد والسهرات.

كنت أتعمد الذهاب إلى بيت والدي وقت وجود أصحابه ثم أتسلل لأغيب قدر ما استطعت، أما الهواتف فقليلاً ما أجبت عليها.

❊ ❊ ❊

تحول جو العمل الإيجابي إلى ساعات من الملل والرتابة حين تأخرت الاجهزة، وتبين أنها لن تصل قبل بضعة شهور سنحتاج حينها لدورةٍ جديدة نستذكر فيها ما كنا قد درسناه.

أصبحنا نقضي أيام العمل في وظائف بديلة تسند إلينا من الإدارة أو نقوم مكان الغائبين من زملائنا، أما معظم الوقت فنتسكع في المكاتب أو نقرأ الجرائد.

طلبني أبو عبد الله في الفترة الأخيرة إلى مكتبه مرتين ونصحني ووجه لي ما يشبه اللوم على تغيبي المتكرر وتقصيري فيما أوكل لي من عمل، وعندما اعتذرت بأن غيابي كان لبعض المشاغل الضرورية قال: ـ نعم مشاغل في مقهى السيف!.

شعرت بالحرج من الرجل المتسامح دائماً مع تقصيرنا وتساءلت: ـ من أخبره؟، هو بالتأكيد لم يذهب إلى هناك، فهو رجلٌ مسنٌّ مولعٌ بالإبل لم يذكر أحدٌ أنه صادفه يوماً في مقهى أو مطعم أو أي مكان للترفيه، لا بد أن أحد الزملاء تبرع بالوشاية.

ومع أدبه الجم وهدوئه وطيبته إلا أن علاقتنا لم تبق كما كانت، ربما لأن سلوكي لم يعد يطاق، أو لأني خذلته يوم كان يرى بي صورة الشاب الطموح التي رشحني على أساسها للدراسة في الخارج.

وصلتني رسالة صبرا وأنا أقفل مكتبي أحد الأيام، فرفرف قلبي وطار من عينيَّ نعاس القيلولة، أسرعت بها إلى البيت وفتحتها قبل أن أبدل ملابسي.

«حبيبي كم أنا سعيدة ومتشوقة ليوم لقائك، ستضاء باريس من جديد، وسيعود لها الفرح الذي هجرها.

جاء الكتابُ من الحبيب بأنّه	سيزورني فاستعبرت أجفاني
ياعين صار الدمعُ عندك عادةً	تبكين في فرح وفي أشجانِ
فاستقبلي بالبشر يوم لقائه	ودعي الدموع لساعة الهجرانِ

عمار، اشتقت إليك حتى بدأ صبري يتلاشى وما عدت قادرةً على المزيد، فلا تتأخر عني.

أيها الرجل الذي وجدت فيك الحبيب والأنيس والوطن ورأيتك العوض عن كل من فقدت من أهلي وما فاتني من أيام شبابي، أخبرني كم من الصبر يلزمني قبل أن يستهلكني الانتظار.

هل تذكر حديثنا عن سيطرة الفكرة ووجود الآخر في حياتنا، أنا اليوم أسيرة وجودك في حياتي، فلم أتمكن مذ أحببتك من تصور رجلٍ آخر يمكن أن يكون حبيبي، يبدو أني امرأةٌ شديدة الولاء.

إن كان للحب من حقيقة يتخيلها الكتاب ويتغني بها الشعراء فهي ما يملأ قلبي اليوم، ولولا حبك وأمل لقائك ما كان لي كل هذا الصمود».

لكلماتها وقعٌ شديد ولذةٌ لم أعرفها قبل أن تكتب لي، أظل مشدوهاً بعد رسالتها لوقت طويل، أعيدها وأتأمل عباراتها كلما سنحت الفرصة، أفكر في معانيها وإيماءاتها وأعرف صدق عواطفها، فقلبي لا تساوره الشكوك!.

* * *

اتصلت بالسيد عدوان ذات صباح، وكنت محرجاً إذ لم أكلمه سوى مرتين مذ سافرت، إلّا أنه استقبلني بترحابٍ أنساني الحرج وأطلق لساني، لاحظت ضعف وحشرجة صوته رغم ما طمأنني.

سألني: ـ سنراك قريباً؟.

قلت: ـ نعم سيدي، أيامٌ معدودة وسوف نزوركم.

لا أدري لماذا ساورني شعورٌ قوي أنه كان يستحثني، سألني، بعدما تحدثنا مطولاً، عما أقرأ، فقلت: ـ أقرأ لنيتشه، أقرأ زرادشت.

قال: ـ لا يذهب بك نيتشه بعيداً، اقرأ شيئاً يقربك من الناس وييسر عليك فهم الثقافات المعاصرة، أنت مثل صبرا تعيشان بين أناسٍ لا تتحدثان لغتهم.

سألته إن كان يرغب في شيءٍ أحضره معي من بلاد الخليج، فقاطعني: ـ لا شيء، فقط نريد أن نراك ونأنس بوجودك. ثم أردف بصوته المرتعد: ـ

كذاك الودادُ المحضُ لا يُرتجى له ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقابُ

ذهبت وسلمان في المساء إلى المقهى وجلسنا ندخن ونتحدث، بينما لا يزال صوت السيد عدوان يتردد متعباً متقطعاً في مسامعي، داخلني الخوف ألّا أتمكن من رؤيته إن تأخرت أكثر.

أخبرت سلمان عن رسالة صبرا واتصالي بوالدها وما دار من حديث، فكان تحليله أن الرجل يودني ويعرف صدق مشاعري تجاه ابنته وأنه ربما يستعجلني، وشجعني أن أمضي في الطريق الذي رسمت وألّا التفت إلى شيء.

استلمت موافقة الزواج نهاية الأسبوع وشرعت بإجراءات السفر، ولم تكن تستغرق لحسن الحظ سوى بضعة أيام، في حال وجود التذاكر وحجز السكن.

طلبت إجازة طويلة من العمل فمنحوني إياها بدون مرتب، وحصلت على قرض بمبلغ ثلاثين ألف دولار لتغطية مصاريف السفر والزواج. هكذا استكملت أموري بهدوء ولم يتبق سوى تجهيز حقيبة السفر بانتظار اليوم الموعود للقاء الأحبة.

قضيت ما بقي من الأيام متنقلاً بين المراكز التجارية، أنتقي الملابس والهدايا، وكنت دائم التفكير والتردد، أخبر والدي واستأذنه كما تقتضي الأصول أم أنِّي أصبحت خارج الأصول ولا حاجة لإزعاجه أكثر، الأفضل لي أن ألتزم الصمت حتى يصبح الأمر واقعاً، كان الخيار الأخير مؤلماً ومربكاً، فلم يخطر ببالي يوماً أن أكون متجاوزاً إلى هذا الحد.

ظل سلمان يقسم لي أن يرضى عني والدي ما إن يرى الأمر واقعاً ويطمئن إلى حال الفتاة التي عصيت من أجلها العالم.

ذهبت إلى أمي صباح يوم السفر وأخبرتها نيتي، وطلبت منها الدعاء، حاولت في البداية أن تثنيني ثم تراجعت حين لاحظت عصبيتي وإصراري ودعت لي وهي ممسكةٌ بيدي، ثم قالت: ـ يا بني، تعرف ما يجب عليك وما يليق بمثلك، ولا أظنك ستخالف أملي.

كلامها ذاك كان أمضى في قلبي وأبلغ أثراً من كل ما سمعت من العذل والوعظ، استولى على تفكيري حتى فوجئت بزيارة إبراهيم غير المتوقعة وغير المريحة ليس فقط لأنها جاءت وقت الظهيرة بل لأنه شاهد الأرجيلة ولأنه جاء محاولاً ثنيي عن هجر زوجتي، لم يكن يعلم بقصة السفر ولم أكن أريده أن يعلم لكنه رأى التذاكر ـ لسوء حظي ـ على طاولة الطعام وسأل عن حقيبة السفر في الممر المؤدي إلى غرفة النوم، أقررت له بما عزمت عليه فلم يبق لإخفاء الأمر من مجال لكني زيفت الموعد، زعمت أني سأسافر مساء الغد وسألته بحق أخوَّتنا ألا يخبر الوالد.

حاول إقناعي وثنيي عن السفر، فأبيت وتجادلنا لوقت طويل قبل أن يغادر غاضباً رافضاً أن يعدني بشيء.

أصبحت الآن متأكداً أن الخبر سينتشر سريعاً، لكني تمنيت ألّا يعلم والدي إلا وقد سافرت، أما عائلة أبي سعود فاستبعدت أن يعلموا الليلة رغم ما يربط إبراهيم بإخوة زوجتي من صداقة.

ندمت حين خرج وأدركت خطأي. كيف لم أدَّعِ أني مسافرٌ إلى مصر أو بيروت أو حتى إلى العمرة، لماذا أخبرته الحقيقة؟، يبدو أن حديث نفسي كان عالياً فاعتقدت أنه يرى فرحة قلبي، لم أكن قادراً على الكذب.

قررت الذهاب إلى المطار عند الثانية ظهراً، أي قبل ثلاث ساعات من الإقلاع، تحسباً للظروف وتقرباً إلى حيث أحب.

غسلت بعض الفاكهة ووضعتها على الطاولة بعدما تفقدت حال شقتي وأغلقت نوافذها وأبوابها وتمددت أمام التلفزيون، ثم اتصلت بصبرا.

كان حديثاً عاطفياً طبعه الفرح بقرب اللقاء، أخبرتني عن الجو وما الذي يجب أن أحضره من ملابس وسألتني عن وقت الوصول، كنا مغتبطين تتسابق إلى شفاهنا الضحكات، محقٌّ من قال «**أجمل ما في الحياة أملٌ نغرسه وفرحةٌ ننتظرها ولقاءٌ نقطع من أجله آلاف الأميال**».

أنهيت المكالمة وغفوت على الأريكة حتى أيقظني جرس الهاتف فترددت قبل الإجابة، كان أبو سعود على الجانب الآخر، أغضبه أمر السفر كثيراً، فأخذ يتهدد ويتوعد، حاورته بما استطعت من هدوء وتجاهلت الشتائم والنعوت السيئة مخافة أن يحدث ما يعيقني ثم أغلقت السماعة وقد أرهقتني شتائمه.

تمددت محاولاً الاسترخاء وتناسي الموضوع لكن الوقت لم يطل حتى رن جرس الباب فقمت مذعوراً، يا إلهي لا بد أني قد غفوت، حان وقت الحضور وهذا سلمان جاء يوصلني إلى المطار، لكن سلمان لا يقرع الجرس بكل هذا الإلحاح، ترى من يكون؟.

فتحت الباب فدفعني سعود بقوة نحو الجدار وغشيتني رائحة الخمر الكريهة فسدت مناسمي وأنا ما زلت نصف نائم، تنبهت فركلته في أسفل جسده وأبعدته قليلاً لكنه استدار ولكمني لكمةً قوية أوقعتني على الطاولة التي ذهبت حطاماً وتكسر الصحن تحت رأسي، جثم فوق صدري وجعل يلكمني في وجهي، وقبل أن يطبق يديه على عنقي تحسست من حولي فوقعت يدي على سكين الفاكهة، تمكنت من قبضتها فطعنت القذر بكل قوتي في جنبه ثم أعدتها محاولاً

غرسها في قلبه، وثب حين رأى الدم فأمسك بجرحه وركض عبر الباب يصيح ويشتم، بقيت ممدداً منهكاً لبعض الوقت قبل أن ألملم أعضائي وأقف مترنحاً تملأ الدماء وجهي وثيابي.

لا أدري ما كان الصواب تلك اللحظة، لكني قررت أن أهرب قبل أن يلحقوا بي أو يبلغوا الشرطة، غسلت وجهي وحاولت ترميم الجروح والكدمات ولبست بدلة السفر.

ذهل سلمان وغضب كثيراً حين رآني، وأيَّد فكرة الهروب إلى المطار، فأخذنا الحقائب على عجل وخرجنا مسرعين نترقب أن يوقفونا أو يلحقوا بنا عند كل منعطف.

قطعت بطاقة صعود الطائرة باكراً وودعت صديقي الذي سيسافر صباح الغد مع بعض الأصحاب إلى المغرب، على أمل أن يزورنا من هناك ليحضر حفل زفافنا، حصلت على بعض الاطمئنان حين انتقلت إلى الصالة الداخلية لكن ذلك لم يدم طويلاً، فقد دنا مني رجلان مدنيان وهمسا بأذني أن أرافقهما بعدما أبرز أحدهما هويته الأمنية، دارت بي الأرض وكاد يغشى عليَّ حين مشيت بينهما إلى مركز شرطة المطار، طلبت من أحدهما أن يسمح لي باستعمال هاتفي النقال لعلمي أن أملي بالسفر اليوم قد تلاشى، لكنه رفض بتهذيب وقال إنه يمكنني الاتصال من المكتب إن سمح لي الضابط.

صعقت حين رأيت أبا سعود وأحد أبنائه، لماذا تسرب خبر سفري الليلة؟.

نهض، حال دخولي، بين الرجلين وضربني بالعصا التي في يده على حين غرة، وشد شعري حتى تفتقت الغرز التي أحدثها ابنه في رأسي قبل أيام، تدخل رجال الأمن فأبعدوه بعدما غشى الدم وجهي وتقاطرعلى قميصي.

انفلت زمامه فأخذ يزبد ويرغي، يتحدث عن سوء أخلاقي وعن

جريمتي بحق ابنه الذي جاءني ناصحاً عن مسلك الخطأ والحرام فجازيته بطعنات قد تودي بحياته، كان يلبس كلامه مسحةً دينية لا يكتشف زيفها من لم يعايش الرجل، أما والدي الذي جاء متأخراً يتبعه إبراهيم فقد وبخني وتوعدني قبل أن يجلس رغم أنه لم يبد مرتاحاً لما فعله أبو سعود ولا لكلامه وتهجمه الشديد، شعرت أنه لم يكره ما فعلته بسعود حين أخبرت الضابط أني كنت أدافع عن نفسي وفي بيتي.

رافقني إبراهيم إلى عيادة طبيب السجن مع الشرطي، وكان يسب من أسماها الشريرة التي سحرتني وعبثت بعقلي، تذكرتها وطلبت من الشرطي أن يسمح لي بالاتصال لكنه رفض، فأخذ إبراهيم حينها هاتفي بحجة أن هاتفه معطل وأنه سيتصل بمن يطمئنه عن حياة سعود ثم أعاده بعد بعض الوقت فاستلمه الشرطي وأُضيف إلى متعلقاتي في أمانات الحجز.

طمأنني إبراهيم حين رآني خائفاً مقيداً يقودني رجل الأمن: ـ لا تخف، فلا خطر على حياة الرجل، إصاباته متوسطة ولن يحتاج إلى أكثر من أسبوع في المستشفى.

كنت مرهقاً موجوعاً حين ألقوا بي في تلك الغرفة المنتنة، فبتُّ على فراش قذرٍ برفقة أربعة مدخنين شرهين يتناوبون السعال والشخير.

نُقلت في الصباح إلى سجن كبير في أطراف البلد مزدحم بالنزلاء من أرباب السوابق، وما إن أُعطيت فراشي وتمددت حتى طلبت للتحقيق الذي استمر إلى ما بعد الظهر.

هكذا لأيام عديدة، أُحضَر إلى غرفة التحقيق مقيداً في أوقاتٍ متفاوتة، فيعيد المحقق نفس الأسئلة السابقة بقصد إتلاف أعصابي وإنهاك مقاومتي.

س: ـ لماذا طعنته بالسكين؟.

ج: ـ دفاعاً عن نفسي، فقد هجم عليَّ في بيتي وضربني، وهذه آثار الضرب على جسدي.

س: ـ هل عندك دليل أنه اعتدى عليك أولاً؟.

ج: ـ ليس لي من دليل سوى أنه ضربني سابقاً أمام الناس، وليس بيننا من المودة ما يدعوه لزيارتي.

س: ـ لماذا لم تتقدم ضده بالشكوى إن كان يتهجم عليك كما تدَّعي؟.

هكذا استمرت التحقيقات الطويلة المملة، أصر المحقق على طرح نفس الأسئلة وأعدت نفس الإجابات من دون ذكر أو إشارة لموضوع المخدرات، فلو تحدثت عنها لغضب الجميع ولأساء الأمر إلى العائلة كلها، فهو في النهاية قريبي وخال أولادي، ولن يستمر الحجز لأكثر من أيامٍ يتدخل بعدها كبار العائلة للصلح ثم أمضي لسبيلي.

كنت أتحرق للاتصال بصبرا، فلا بد أن تكون قلقةً لتخلفي عن الرحلة ولعدم اتصالي.

كيف حمَّلتها همي في أيامٍ هي أحوج فيها إلى من يقف معها ويؤازرها.

تحاصرني الكآبة وأشعر بالضيق الشديد، أحاول أن أحبس عبرتي في قلبي عن الفضوليين ممن يشاركونني العنبر.

فكرت كثيراً فيمن يمكنه أن يوصلها خبر توقيفي أو مرضي أو أي عذر يطمئنها حتى ساعة الفرج لكني لم أهتدِ إلى أحد، الشخص الوحيد الذي أثق به ويملك الواسطة التي تخوِّله زيارتي مسافرٌ الآن إلى المغرب، أما الآخرون فلم يسمح لهم بالزيارة على اعتبار أني ما زلت رهن التحقيق، سمح فقط لأفراد عائلتي، لكن أحداً لم يرغب

في زيارتي سوى إبراهيم وعوف، كانا يحضران برفقة ضابط شرطة يضمن ألّا يلقناني شيئاً يخص التحقيق، لم أطلب منهما الاتصال بها لعلمي أنهما سيرفضان.

استمر الحال لثلاثة أسابيع غاية في القسوة فقدت خلالها الكثير من وزني وصحتي، المكان مزدحم منتن والصحبة سيئة، ليل السجن طويلٌ لا يكاد ينقضي، ونهاره جحيم ممتد من التحقيق والتهديد إلى الضجر من مقابلة الوجوه الكريهة.

تصبر وتصبر حتى يمل منك الصبر، وحتى يمتلئ قلبك غيظاً فتنفجر باكياً، تستمر بالبكاء لا يواسيك أحد إلى أن تجف دموعك وتعود إلى الصبر مرغماً من جديد، لامكان أكثر بؤساً من السجن!.

نما مع الأيام ما يشبة الثقة بيني وبين المحقق عوض، وبدأ يستكمل عني إجاباتي، يتبرع ببعضها أو يكتبها كاملة من دون أن ينتظرني، حتى جاء اليوم الذي أجهشت فية بالبكاء، فوضع القلم وانتظر ساكتاً حتى انتهيت ثم قال بصوت بدا متعاطفاً: ـ عمار، لا بد من جانبٍ آخر للقصة لم تخبرني به، روايتك للحدث عرجاء تنبئني أن هناكً ما لم تقله وأنت الآن في أمس الحاجة لما يساعد موقفك، أخبرني الحقيقة وأعدك ألّا أكتب ما لا يخص الحادثة، سوف أبحث لك عن مخرج من هذا المكان الذي لا تستحقه.

قلت: ـ أولاً أخبرني لماذا يستمر توقيفي مع أن الرجل لم يلبث في المستشفى أكثر من خمسة أيام وكنت مدافعاً عن نفسي!.

أسر لي، بعد أن وعدته ألّا أبوح بشيء، بأن سعود ووالده يرفضان التنازل عني ويسعيان في الخفاء لدى المسؤولين لأسجن مدة طويلة، وإن نجح مسعاهما فلن يفرج عني قبل عام.

انتفضت من الخوف والغضب، فأنا أعرف أن هذا ممكن لأصحاب النفوذ، وأخبرت السيد عوض بتفاصيل الحادثة وخلفياتها

وقصتي مع صبرا وخلافي مع زوجتي وتهجم سعود عليَّ، وأريته الجرح الذي سبق ورآه في رأسي، وذكرت له قصة المخدرات، فاستوقفني عندها ومال نحوي، مع أنه لم يكن أحدٌ سوانا في الغرفة: ـ عليك أن تدَّعي عليه لتجارته في المخدرات وترويجها وإدمانها وتطلب أن يخضع للفحص، فأثر المخدر يبقى في الدم لفترةٍ طويلة واذكر كل ما تعرف، إن لم تفعل فسوف تبقى في السجن لوقتٍ طويل.

لم تطلع شمس النهار التالي إلا وقد كتبت عريضةً محكمةً أعدت فيها بناء القضية من أساسها وذكرت ما قد يفيدني مما أشار به الرجل الشهم.

زارني سلمان في نهاية الأسبوع الثالث، على حين غرة، فكدت أبكي حين رأيته وحلف بالله لو علم لعاد مسرعاً من المغرب.

استعدنا اتزاننا قبل أن يفوت وقت الزيارة القصير، أعطيته رقم صبرا ليتصل بها ويخبرني حالما يستطيع، وطلبت منه أن يتابع قضيتي فأهلي متراخون عني كما يبدو.

حصل ما توقعه عوض وجاء من يعرض تنازلهم عن القضية مقابل سحب دعواي وما جاء فيها من ذكر المخدرات وتحليل الدم وما إلى ذلك، يبدو أن في دوائر التحقيق العليا من يعمل لصالحهم، قبلت العرض على الفور، فخرجت صباح اليوم التالي وكان سلمان ينتظرني، فلم يعلم أحدٌ سواه بخبر خروجي.

سألته عن صبرا قبل أن أغلق باب السيارة لكنه أجاب ألّا أحد يجيب، كان هاتفي الذي استلمت من مأمور السجن فارغاً من الشحن، لذا استعرت هاتفه واتصلت، وحاولت مراراً لكن لا أحد يجيب.

فوجئت والدتي برؤيتي، فاحتضنتني باكية وهي تشتم مسؤولي

السجن الذين منعوها من زيارتي، جلست عندها لبعض الوقت وكنت محتاجاً لحنانها وما تبعثه من الدفء والطمأنينة في قلبي المتعب.

عدت إلى بيتي الذي كرهته وارتميت على السرير البارد بعدما اغتسلت من رائحة السجن المنتنة، وكانت عادة التدخين قد تمكنت مني فلم تعد علبة السجائر بعد ذلك تفارق جيبي.

ورغم معرفتي أن والدي قد يصدني وقد يطردني إلا أنه لا بد من زيارته بعدما حدث، لذا اخترت وقت ما بعد الفجر، حين لا يحضر سوى رجلين من أصحابه يعودان معه من المسجد.

دخلت من الباب الكبير، وكان مفتوحاً كما هي العادة، ومشيت عبر الفناء على وجلٍ باتجاه المجلس الخارجي.

صُدِمت حين اقتربت ورأيته يجثو على ركبتيه ويشير بيده أن أُخرج، ويرفع صوته بكلام لا أسمعه، وثب عبد الرحيم نحوي، حين أمسكت بمقبض البّاب، فأمرني أن أعود من حيث أتيت ورافقني إلى الباب الكبير، بدا مشفقاً من غضب أبي حين قال: - والدك غاضب منك ولا يريد أن يراك الآن.

ركبت سيارتي وبكيت في الطريق إلى منزلي، تيقنت في قرارة نفسي أنه لم يعد لي مكان هنا.

استبد بي الحزن والسهر، لم يكن ثمة مكان أذهب إليه سوى البحر، ولا شيء أفعله سوى البكاء حتى جفت دموعي، وأدركت مرحلةً من الزهد أو الطمأنينة تتساوى فيها الأشياء وتقترب النتائج من المقدمات فلا شيء بعدها يستحق.

فرغت من البكاء، وكان لهدير الموج صدىً عميق في قلبي كأنما يتماوج بأحزاني ويقذفها زبداً على شواطئ الأيام الموحشة، غريبٌ أنا في بلدي، وحيدٌ بين أهلي، وحده سلمان كان صاحبي بحق،

يسأل عني ويتفقدني، يلاحقني من مكانٍ إلى آخر، يصبر على حزني ويستمع إلى شكواي باهتمام.

ولم أر في كنوز الناس ذخراً   كمثل مودةِ الحُرِّ الكريم

ذهبت إلى العمل أفتش بريدي، ويا لبرود عظامي وفوضى مشاعري حين رأيت رسالتها.

أأحتضنها وأفرح بها، أم اتركها وأهرب؟.

حملتها إلى البيت وبقيت ممسكاً بها لوقت طويل يغلبني خوف المفاجآت كلما هممت بفتحها.

«إلى الرجل الذي أحببت..

إليك، يا من علمتني كيف أحب وكيف أحلم، فقبل أن أعرفك يا سيدي لم تكن لي أحلام..

قضيتي اليوم أني أحبك، أعرف كيف أحبك ولا أعرف كيف أكرهك أو أنساك أو حتى أتجاهلك.

إن كان لليتم من فضيلة فقد علمني الاكتفاء، علمني كيف أنكفئ على ذاتي وآلف وحشتي وكيف أحبس مشاعري حين أنظر إلى اجتماع الأحباب فلا تتقاطر دموعي..

جئت يا سيدي فأخرجتني من قوقعتي وفتحت عيني على أفراح العالم، أذقتني طعم السعادة وبنيت لي قصوراً من الأوهام.

تماديت في الأحلام حتى بدا حبك وكأنه الحقيقة الوحيدة وكل ما سواها سراب لا قيمة له.

حضرت باكراً أحمل باقة ورودي واشتياقي، وقفت على طريق القادمين مرتدية الثوب الذي تحب، يخفق قلبي وتتطاير أنفاسي كلما اقترب الموعد، أغمض عيني لأتخيلك عائداً من أقصى الأرض، من أجلي، فأجري نحوك وألقي بنفسي بين يديك وأقبلك أمام العالم لتنتهي بحضورك سنوات عذابي.

افتح عيني لأرى الناس تحدق بي فيغلبني الحياء وتعرق يدي على باقة الزهور، وأعود لأنتظر..

يتدفق المسافرون من بوابة الوصول إلى أحضان مستقبليهم، فتختلط الضحكات والعبرات من حولي وأنا ساكتةٌ لا يتحدث إليَّ أحد.

يطول وقوفي وتؤلمني قدماي فأتقدم من موظفة الخطوط: ـ هل بقي أحدٌ من طائرة الخليج لم يظهر بعد؟.

قالت، كأنما تتحاشى أن تؤلمني: ـ لا أعتقد، لكن ربما يكون هناك أحدٌ في الجمارك.

عادت لتسألني: ـ ما اسم الشخص الذي تنتظرين؟.

وتنهمك في البحث بين قوائم القادمين أمامها، ثم ما تلبث أن تقول كأنما تواسيني: ـ آسفه آنستي، ليس على هذه الطائرة.

تراجعت يغلبني الحياء، وضعت باقتي على إحدى الطاولات وسحبت قدميَّ في الممرات الطويلة يتملكني الذهول والخوف، وتأكلني عيون الناس كأنما يصيحون بي: ـ هذه التي تركها حبيبها!.

ترى ما الذي حدث لك، ما الذي أخَّرك وقد هاتفتني قبيل الرحلة، حاولت الاتصال مراراً لكن هاتفك ظل مغلقاً، مررت بالمستشفى بعدما أرهقني الحزن والصداع، وأخبرت والدي أنك تأخرت لسبب لا أعرفه، وضع يده على رأسي وتمتم بما لم أفهم بعدما رأى الخوف والحزن في وجهي، قبلت يده واستأذنته هاربةً إلى البيت، وما إن أغلقت باب غرفتي حتى أطلقت لدموعي العنان، حاولت أن أتصل ذلك اليوم واليوم الذي يليه من دون جدوى، فقد ظل هاتفك مغلقاً.

أيقظني رنين الهاتف صبيحة اليوم الثالث، فكدت أطيرفرحاً حين رأيت الرقم من بلاد الخليج، لا بد أن تكون أنت لتطمئنني عن سبب

تأخيرك وتخبرني أنك قادمٌ على الرحلة التالية، لكن رجلاً آخر عرفني بنفسه على أنه أخوك إبراهيم وطلب مني أن أخرج من حياتك لأنك تصالحت مع زوجتك التي تحبها وذهبتما مع طفليكما في شهر عسلٍ جديد، أخبرني أنك أعطيته الرقم وطلبت منه أن يبلغني لأنك محرج مني ومشغولٌ مع زوجتك.

قلت مذهولة: ـ لكنه وعدني واتصل يؤكد وقت وصوله. .

قاطعني: ـ يا سيدتي، عمار أخي وصديقي، لا يخفي عني شيئاً، ربما أحبك فعلاً وقت خصامه مع زوجته، لكنه شعر بمناداة الضمير وبواجبه تجاه والده وأسرته وأطفاله، هل تعلمين أن له طفلين؟ لا تفسدي عليه حياته، فقد عاد إلى مكانه الطبيعي. .

تكلم أخوك بكلام منطقي وحلف أنه يقول الحقيقة، بينما بقيت ساكتة مغلوبة لا أملك جواباً، ثم طلب ألا أكلمك، وأخبرني أنك أوقفت رقم الهاتف الذي أعرفه تفادياً للإحراج.

ارتميت على وجهي ذاهلةً معقودة اللسان، فلم أدرك هول ما أصابني. حاولت الاتصال بك متجاوزةً حزني وغضبي، فلم ترقأ دموعي ولم يلامس النوم جفني لأيام.

كنت أتفقد حال والدي التي ساءت كثيراً، يغلبني البكاء عند باب غرفته فأتراجع قبل أن أوقظه لأجفف دموعي من جديد.

شعر بحزني وفجيعتي، وهو ملقى بين يدي الموت عاجز عن التعبير، أعرف البكاء في عينيه لكن لم تكن لوالدي دموع.

اتصلت زوجتك بعد ذلك بيومين أو ثلاثة، وما إن سألتني عن اسمي حتى أمطرتني بوابل شتائمها، ادَّعت أني سحرتك وأني أهدم بيتها وأيتّم أطفالها، وبكت على الهاتف وهي تدعوالله عليَّ، عقدت الدهشة لساني في البداية ثم حاولت أن أدافع عن نفسي لكنها لم

تترك لي فرصة الحديث، أخبرتني أنكما تصالحتما واتفقتما وقالت: ـ عليك أن تبحثي عن رجلٍ آخر لتضلليه.

شعرت أن بقية أمالي التي أعلل بها نفسي قد ذوت وتلاشت، يا لخيبتي... كيف أحببت رجلاً ليس لي؟، كيف أردت أن أقيم بيت أحلامي على أنقاض بيت امرأة أخرى، شعرت بالخجل الشديد، كأنما أيقظني صراخها ونبهتني شتائمها لأجد نفسي عارية من كل ما كنت أدَّعي من فضيلة.

شعرت بضعفي وبوحدتي بعدما انهارت أحلامي وتبددت وسلمت آخر معاقلي.

أما اليوم فلن يجديني الهرب، لا بد من مواجهة الحقيقة بعدما ظهر وجه الحياة الذي أعرفه.

هكذا تحطم حلمي يا سيدي حين اصطدم بالواقع ولم يصمد منه شيء.

كنت وكانت أيامك استثناءاً في حياتي، حلماً فرحت به وصدقته ثم تسرب حين هيأت أفراحي.

ورغم كل ما أقول فأنا لا أصدق أنك نويت إيذائي وإن فعلت!.

فقط لو أخبرتني بنفسك ولم توكل أمري إلى من يتهجم عليَّ ويتهمني بما ليس مني، أهذه هي الأمور التي كنت تحضِّرها لي؟.

الآن، يا سيدي، وبعد هذا الثمن الباهظ، أدركت أنك لست لي وإن تمنيتك.

عليَّ اليوم أن أنذر النذور وأُعلِّق التمائم علَّها تشفيني من داء حبك، وأن أحزم أمري وأسلك الطريق الصعب والوحيد وأدَّعي أني أفعل ذلك من أجل كبريائي إن كان قد بقي شيءٌ من كبرياء.

هذه رسالتي الأخيرة كتبتها، أودعك وأتمنى لك السعادة مع من تحب».

ألقيت بالرسالة وارتميت على الأريكة عاجزاً عن التفكير أو البكاء حتى قرع جرس الباب، فإذا سلمان يسرع بصحن الطعام الساخن نحو الطاولة، ناولته الرسالة وجلست أدخن قرب النافذة بينما يقرؤها متكئاً على الجدار، امتقع لونه ولمعت الدموع في عينيه لكنه بقي صامتاً لم يعلق بكلمة.

جلست أنظر إليه يعيد الطعام إلى المطبخ ثم يعود إلى كرسيه ليقلب القنوات ويسارقني النظر.

سألته، بعد فترة صمت طويلة، أن يرافقني إلى إبراهيم، لكنه أبى وقال: ـ أنتما أخوان ولا يجوز لي التدخل بينكما، إنما أنصحك ألّا تذهب الآن.

ارتبك إبراهيم وتلعثم حين اقتحمت مكتبه ورأى الغضب في وجهي، لم يجد من تبرير لما فعله سوى أنه يدافع عن مصلحتي ومصلحة العائلة ويحافظ على أسرتي، جادلته وشتمته ورششت الماء في وجهه حين أقر أنه من بعث بالرقم إلى نهلة وأشار عليها أن تتصل.

لم يكن يفعل شيئاً أكثر من ممارسة ما ألف من وصاية الأخ الأكبر، لذا وقف مذهولاً يمسح وجهه بشماغه حين غادرته غاضباً ساخطاً أما نهلة فقد عزمت على طلاقها، فقد خرجت من قلبي إلى الأبد ولم أعد أطيق مجرد التفكير فيها، كيف بعد الذي فعلت وفعل أهلها!؟.

لم يكن اتصالها بصبرا وادعاؤها ما أدعت شعوراً بالندم أو حرصاً على بيت الزوجية بقدر ما كان نكايةً وانتقاماً.

أشتاق لسلطان وعمر فأذهب فارغ العقل أطوف الشوارع حول بيتهم وأنظر إلى صورهم في محفظتي فيغلبني البكاء.

حاولت الاتصال بصبرا كثيراً لكن أحداً لم يجبني، فلزمت بيتي

آخر الأيام لا أخرج إلا قليلاً رغم أنه لم يعد سوى مساحة من الضجر والكآبة، ورغم سؤال شيخة وإلحاحها واحتفائها بي حين التقيتها، إلّا أني فضلت الصمت وحبست الدموع في قلبي، شعرت أن في الشكوى استجداءً للعطف لا أرتضيه.

قالت، وقد راعها تغيري بعد أيام السجن والمحنة: ـ تغيرت كثيراً بعد لقائنا الأخير.

قلت متمثلاً: ـ

وقد زعمتْ أني تغيَّرتُ بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغيرُ

سكتت، حين غلبتها العاطفة، ثم قالت: ـ تعلم أنا لا نستطيع الخروج في أي وقت وإلا لكنت أفضل قياماً بواجب صداقتك.

وحده سلمان يحمل همي، ومن لي مثل سلمان.

اتصلت نهلة لكني لم أجبها، فقد قضي الأمر وباتت بعيدة لا يعنيني أمرها، ولكرهتها لوكان قلبي يحتمل الكراهية.

أيام قلائل على موعد السفر الجديد قررت الابتعاد خلالها عن الجميع، ولم يبق لي من اللوازم سوى وثيقة الطلاق التي سأحمل صورتها وأرسل أصلها في البريد قبل السفر بيوم أو يومين، سوف أعبر القارات قبل أن يعبر بريدنا العتيد شوارع المدينة.

تكالبت عليَّ الهموم ليلة السفر وحاصرني الأرق عكس من يسافر صوب من يحب.

مضيت في الصباح نحو المطار وأنهيت إجراءات سفري ثم انطويت على إحدى الأرائك المتنحية في صالة المسافرين، وما إن صعدت الطائرة وربطت حزام الأمان حتى غلبني الإرهاق والنعاس فأمضيت الوقت بين النائم واليقظان لم ينبهني سوى رائحة النبيذ الأحمر القوي عند الرجل الجالس إلى جواري.

أعدت الطعام حين لم تقبله نفسي وكنت أمنيها العشاء مع صبرا، آه.. ما أجمل لقاءها بعد كل هذا العذاب.

مضيت محملاً بالخوف والحقائب نحو موقف سيارات الأجرة، تتجاوزني عيون المستقبلين مسرعةً تبحث عمن تحب.

دخلت الفندق فلفحني عبير ذكرياتنا كأن لم أغب يوماً واحداً، وبينما تجهز الآنسة في الاستقبال أوراق سكني، تجولت بنظري عبر الصالة التي لم تتغير كثيراً عما عهدتها، أرائك الجلد ما زالت ترتب بنفس الطريقة تتوسطها الطاولات الزجاجية على قوائم النحاس المصقول، وحتى الورود لم يغيروا في أسلوب تنسيقها.

سلمت على موظفة الاستقبال الأفريقية سوزان فردت ببرود كأنما تقابلني لأول مرة، لم تلق لي بالاً ولم تجاملني بكلمة رغم أننا التقيناها أكثر من مرة، بل قبلت دعوتنا حين صادفناها في أحد المقاهي، جلست معنا وتحدثت وضحكت مع صبرا لكنهم يتقمصون هنا طبائع الأوروبيين.

حاولت أن أرتاح قليلاً فلم أطق الصبر، كيف وقد صارت على بعد دقائق!.

ارتديت ملابسي وخرجت ميمماً نحو بيتها يحملني الشوق ويحدوني الأمل، يصيح في أعماقي الخوف الذي ما زال يلوح لي، خوف ألّا أجدها أو ألّا تسمع مني.

عبرت الشوارع ساهماً متجاوزاً صفوف الورود التي تزين حدائق الأحياء، ومؤجلاً الاستمتاع بالجو اللطيف إلى حين لقياها.

راعني اختفاء اللوحة الصغيرة بجانب جرس شقتهم، لكني تجاهلت الأمر وعلقت على الجرس، لم يجبني أحد، ولم أبرح مكاني لوقت ليس بالقليل، كنت آمل أن تطل حارسة البناية من كوتها الصغيرة كما تفعل كل مرة، فلا أحد سواها يمكنه أن يخبرني.

لاحت لي أخيراً السيدة سكارليت قادمةً من ناصية الشارع تحمل كيساً ورقياً كبيراً وضعت يدها من ورائه وضمته إلى جسدها المكتنز، اقتربت منها قبل أن تدخل الباب، ويبدو أني فاجأتها حين استدارت نحوي بكامل جسدها وهي تحملق في وجهي من خلف نظارتها السميكة.

سلمت متلطفاً فردت ببرود بينما تتراجع نحو الباب، وما تزال تعيد النظر.

قلت مبتسماً: ـ هل تتذكرينني سيدتي؟.

قالت، وهي تدير أصابعها وتزم شفتيها الرقيقتين من دون أن تبتسم: ـ أظنك كنت تأتي إلى منزل السيد عدوان، أنت عربي، أليس كذلك؟.

قلت: ـ بلى، وقد جئت اليوم أسأل عنهم.

قالت: ـ رحلت الآنسة بعد وفاة السيد عدوان.

قلت: ـ توفي السيد عدوان!؟ ومتى رحلت الآنسة؟ من فضلك هل تعرفين أين أجدها؟.

قالت، حين لاحظت صدمتي: ـ أنا آسفة، هل يخصونك؟.

قلت: ـ نعم، ويهمني أن أصل إلى الآنسة.

قالت: ـ لا أعرف أين ذهبت، أعذرني. ثم دخلت وأغلقت الباب من ورائها.

يا للسيدة! فجعتني وألقت بالمصيبة في حجري ثم اكتفت «بأعذرني» قالتها على عجل وانسحبت من دون مبالاة!.

وقفت مسمراً في مكاني لبضع دقائق، ثم سحبت قدميَّ نحو حديقة قريبة وجلست مهموماً حزيناً أفكر، ترى أين ذهبت وكيف مرت بأيام الحزن والمعاناة؟.

أين أنت صبرا، وأي حزن يعتصر قلبك الحبيب، هل يقدر لي أن أراك مرة أخرى؟، إذاً لن أدعك تذهبين.

يا إلهي.!، أنا الذي خذلتها وتركتها تواجه موت والدها وحدها، كنت أتمادى في الحزن ثم أفيق، لا، لا يمكن أن أفقدها وقد تخليت من أجلها عن كل شيء، لا يمكنني تصور الحياة من دونها، لن أفقدها ولو بحثت عنها في كل مدينة وكل بيت، سأجدها، حتماً سأجدها وأخبرها أني لم أتخل عن حبها ولم أخن عهدها.

كنت أتجاهل ما حدث وما أشارت إليه في رسالتها الأخيرة، أقول في نفسي: ـ ما إن أراها حتى يذوب الغضب ويتلاشى الشك.

عدت إلى غرفتي وارتميت متعباً على السرير، فكرت في السيد عدوان وتذكرت ابتساماته وصوته وتمايله حين أنشده أشعار العذريين، تذكرت ما كان يقصه من ذكرياته الجميلة ورحلة حياته الصعبة أيام الحرب وبعد الحرب، وما كان يعبر عينيه من أحاسيس اليأس والانكسار.

تذكرت نظرات الوالد الذي أوشك أن يفارق الحياة إلى ابنته الوحيدة، يتبعها بالنظرة الحانية وهي تغادرنا بعدما تضع القهوة إلى جانب طاولة الشطرنج.

يتحول خيالي إلي صبرا فيرتجف قلبي حتى أشعر برفيفه يحرك ملاءتي ثم أعود لأكذِّب مشاعر الخوف والقلق.

بت مفجوعاً ليلتها لكني لم أذرف الدموع، كان حزني أكبر من أي بكاء..

خرجت بعد إفطارٍ سريع أقطع الشوارع نحو الحديقة، نحو شجرتنا التي أحببنا، فلا بد إن كانت في باريس أن تمر من هنا.

يألف الناس الأماكن ويحبونها بقدر ما احتضنت من ذكرياتهم العزيزة.

كم من الذكريات وكم من الصور وكم من الدموع توالت حين أسندت ظهري إلى جذعها الكبير كما كنا نفعل، أطلقت العنان لدموعي تسكب من تحت نظارتي السوداء خوف أن يلاحظ العابرون.

مشيت في الممرات الطويلة تحت الأشجار اليانعة وبين أحواض الورود الجميلة وحيداً بين أفواج اللاهين السعداء، فتذكرت أبيات المتنبي: ـ

مغاني الشعبِ طيباً في المغاني ... بمنزلة الربيعِ من المكانِ
ولكنَّ الفتى العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسان

ترددت بعد ذلك على الأماكن التي اعتادت زيارتها أو المرور بها علِّي أجدها أو أصادف من يدلني عليها، حتى بدأ اليأس يدب إلى قلبي ويتغلب على مقاومتي، وكم عذبتني ذكريات السعادة حين أثارتها أماكن لهونا، أهيم في الشوارع على غير هدى مثل كلب ضالٍ فلا يردني إلّا الظلام لأستسلم متعباً للنوم.

ذهبت إلى مركز بومبيدو ذات صباح حيث كانت تحب أن تذهب، وقضيت الكثير من الوقت متجولاً بين صالاته وأروقته حتى انتهى بي التطواف في قسم الأدب العربي وأمامي كتاب «في الشعر الإسلامي والأموي» للدكتور عبد القادر القط.

تنحيت جانباً وأخذت أتصفحه حتى وقعت عيناى على أبياتٍ للمجنون: ـ

أيا حبَّ ليلى داخلاً متولجاً ... شعوبَ الحشا هذا عليَّ شديدُ
وياحب ليلى عافني قد قتلتني ... وكيف تعافيني وأنت تزيدُ
أراك على نَولينِ والحب كله ... على واحدٍ يفنى وأنت جديدُ

خنقتني عندها العبرة فأعدت الكتاب ونزعت إلى رصيف السين مقابل كنيسة نوتردام بعيداً عن ازدحام الناس.

كان في الجهة المقابلة رجل يجلس وحيداً يتأمل النهر المتدفق ويراقب مراكب السياح العابرة، قلت في نفسي لما طال جلوسه، لا بد أن يكون عاشقاً أو حزيناً أو كلاهما، ترى هل يرتبط العشق بالحزن مثلما يرتبط الفن بالجنون؟.

قمت مثقل الخطا حين أدركني المساء، أين أنت صبرا؟، ها قد جئت إليك متجاوزاً كل شيء، فقط لو ترين حالتي من بعدك.

أي ليلةٍ هي ليلتي هذه وأي حزن يعتصر قلبي، أي الجهات ستستقبلني وأي الشوارع ستتسع لأحزاني.

أمضيت أسبوعي الأول متنقلاً بين الأماكن التي كنا نعتادها غير مصدق أنني لن أراها.

شدني صوت فرقة الجاز حين عدت إحدى الليالي وأحببت أن أسهر قليلاً فما زال الوقت باكراً، جلست إلى طاولةٍ متنحيةٍ وطلبت قهوتي ورحت استمتع بالمعزوفات الجميلة، كان لتلك الألحان لذتان، لذة إبداعها ولذة ذكرياتها.

لم يتغير من أعضاء الفرقة سوى المرأة البيضاء ذات الملابس السوداء والشعر الأشقر المعقود خلف رأسها، يذكرني وجهها النحيل وأنفها بجاك كوستو عالم البحار!.

وعلى بعد طاولتين جلست فتاتان متبرجتان جريئتا العيون، راحتا تتمايلان وتضحكان بصوت مسموع وتستعرضان وجوه الناس كأنما تبحثان عمَّن يشاركهما السهرة، ابتسمت من دون سابق إصرار حين مرت بي عيونهما ثم عدت فتجاهلت نظراتهما، لم يكن ثمة مكان للهوِ في قلبي.

تسربت مع الألحان وسرى بي الخيال إلى الأيام الخوالي، لا أصدق أني سأحب أو حتى أميل إلى أخرى سواها، كانت أشبه بأسطورةٍ صنعتها وتعلقتها حد الجنون ثم خذلت حبها وأبكيت عينيها وها أنا اليوم أعود لأبكي على أطلال ذكرياتها.

اتصلت تلك الليلة بسلمان وأخبرته أني لم أجدها فبدا الحزن واضحاً في صوته وهو يواسيني ويشير بأن أواصل البحث.

أدرك صاحبي أني قد لا أعيش سوياً بعدها، كان يحمل خبراً سيِّئاً تردد قبل أن يخبرني به، فأهلي وأقاربي يبحثون عن عوف الذي اختفى منذ أيام ولم يعثر له على أثر ووالدي منزعج ومتأثرٌ جداً.

شعرت بالشفقة على أبي، سيموت إن وقع لعوف مكروه، له مكانةٌ خاصة في قلب والدنا، فهو أكثرنا شبهاً به وقرباً منه وهو الأصغر المدلل.

لا أدري متى نمت من طول ما فكرت وما تأرقت لكني قمت مرهقاً بعد الظهر وما يزال أمر عوف يشغل تفكيري، اتصلت بإبراهيم فأغلق الهاتف في وجهي ما إن عرف صوتي حتى من دون كلمةٍ واحدة.

اتصلت بعدها بمنزل أبي فأخبرني عبد الرحيم بعد طول انتظار أنه لا يريد محادثتي، خرجت قاصداً بيت صبرا علِّي أجد من يخبرني أو يدلني على طريقها، قرعت الجرس لأقابل السيدة سكارليت التي أعادت نفس ما قالته سابقاً وبدت غير مرتاحةٍ من تكرار أسئلتي، تمتمت بعبارات لم أفهمها فخشيت أن تغضب إن سألتها ماذا تقولين، لذا آثرت الانسحاب إلى الحديقة والاكتفاء بتأمل البيت الذي لم يبد منه سوى شرفته الصغيرة ونوافذه المعتمة: ـ

لهفك يا دار ولهفي على   قطينك المرتحل الزائل

قلبي للأحزان بعد النوى وأنت للسافي وللناخلِ
مثلان في البلوى ولي فضلةٌ بالعقل والبلوى على العاقلِ

حاصرني تلك الليلة شعور ثقيل باليأس والوحدة وفكرت أن أنزل إلى حيث فرقة الجاز فما زال الليل في أوله، رأيت الفتاتين على نفس الطاولة بهيئةٍ أبهى من هيئتهما البارحة، جاءتا تبحثان عن المال والمتعة، وكنت محرجاً من الجلوس وحيداً بين المجموعات ومحتاجاً إلى من يسلي وحدتي وينسيني بعض همومي، لم أفكر بأكثر من صحبة سهرة أو هكذا خادعت نفسي، وهكذا نفعل حين تغلبنا رغباتنا فنبحث في حجج المنطق عمّا يبررها.

غلبتني الابتسامة ولم أجدني إلا جالساً معهما لدى أول إيماءة. صوفي وجولي، الجميلتان اللتان لم أصدق أنهما تعملان في أسواق لافاييت، كما تدعيان، إنما تتسكعان بين النوادي الليلية والفنادق الفخمة تسليان ليل السياح العرب وتقتنصان المال والمتعة.

انهمكت عيونهما في تقييمي إلى أي طبقات أصحاب الأموال أنتمي، فالسائح العربي يقدَّر هنا بقدر ما يملك وما ينفق، ولا اعتبار لشيءٍ آخر. كنت متردداً في تمضية السهرة معهما، فلم أتعرض لمثل هذه التجربة من قبل، كنت أخشى سوء العاقبة لكن الضجر كان يدفعني والرغبة في صحبة الأنثى الجميلة رغم أني لم أكن مرتاحاً لملابسهما الفاضحة وماكياجهما الثقيل كأنما تخفيان وجهيهما خلف أقنعة ملونة، تذكرت حين رأيتهما تدخنان قول سلمان «لا ينسجم التدخين وأنوثة المرأة»، ورغم ما عرفت من حياد الأوروبيين إلا أن عيونهم ظلت تقتحمنا من حين لآخر.

قالت صوفي، حين حضر النادل: ـ هل ستطلب لنا الشراب؟.

قلت: ـ بكل سرور.

هكذا وجدت الخمر على طاولتي بينما تأخذ الأحاديث منحى عملياً، فلا حاجة هنا لإضاعة الوقت ما لم تكن راغباً في الخدمة، أخذنا نحوم حول المعاني ونضحك حتى تجرأت وصرحت أني سأدفع مقابل السهرة والصحبة، أما دخول الغرفة فلا حاجة لي به!.

استكملنا سهرتنا نتنقل بين الأحاديث عن الأفلام والموسيقى والسياحة، وكان واضحاً أن صوفي هي من قد يصاحبني أما جولي فستبحث عن ساذج آخر يدفع للعشاء والشمبانيا والتاكسي وربما أكثر من ذلك من دون تردد.

اتصل سلمان بعد أيام، وكنت آمل أن أسمع ما يرد لهفتي لكن أثر الحزن كان واضحاً في صوته حين أخبرني أنهم وجدوا رسالةً من عوف يخبر والديه أنه ذاهبٌ للجهاد في الشيشان ويطلب منهما المسامحة والدعاء، وبقدر ما خلع الخبر قلبي بقدر ما تساءلت إن كان مخطئاً حين اتَّبع ما يحبه ويؤمن به.

كانت الطريق واضحة جلية عند عوف وأصحابه، الروس يحتلون بلاد المسلمين، الشيشان، والجهاد فرض عين في هذا الحال على عموم المسلمين، إمّا النصر والعزة وإما الكرامة والشهادة، بكل هذا الإيمان والوضوح يرى شيوخ عوف وأصحابه المسألة. ورغم ما يبدو من وجوههم المغبرة وأجسادهم المنهكة، ورغم قناعتي بانحراف منهجهم إلا أن في أعماقي ما يحسد سكينتهم حين تجاوزوا الدنيا نحو هدفهم الأسمى فارتاحت ضمائرهم بينما لا زلت تائهاً في أوديتها مثقل القلب والضمير.

ترى كيف ستكون حال والدي بعد عوف، ومن سيصبره عمن يسميه «قرة العين»؟.

اتصلت بسلمان وطلبت منه أن يزور والدي ويطمئنني عن حاله، لكنه كان خارج المدينة ولن يعود قبل أيام.

لم أذهب إلى أي مكان ذلك اليوم، قضيته متنقلاً بين غرفتي وبين المقهى المجاور، لهفي عليك صبرا وقد واجهت الحداد والغربة معاً بعدما خذلتك وأبكيت عينيك، كم هي مملةٌ باريس، لا بهجة ولا بهاء لها من دونك.

فكرت في الذهاب إلى الجامعة التي تخرجت منها عسى أن أصادف هناك من يعرف مكانها أو رقم هاتفها.

أعادني تذكر الجامعة إلى عوف المجاهد، ترى أين أنت يا أخي؟.

أما زلت حيًّاً تجالد الأعداء وتعاني الجوع والخوف؟ أم أصبت الشهادة التي تركت من أجلها الدنيا؟.

تذكرت حديثنا عندما احتد في دفاعه عن المتطرفين المحاربين للأجانب وتمنى أن يلحق بهم في الأودية البعيدة، خفت عليه يومذاك من تشدده، ورجوته أن يواصل طلب العلم من مصادره الموثوقة أملاً في أن يقوده إلى الاعتدال، لكنه كان في مكانٍ بعيد لا يسمع ندائي، راح يومها يتغنى بأمجاد الأفغان والشيشان ويردد قول شاعر الخوارج: ـ

أذا العرش إن حانت وفاتي فلا تكن	على شرجعٍ يُعلى بخضر المطارفِ
ولكن أحن يومي سعيداً بعصبةٍ	يصابون فيٍ فج من الأرض خائفِ
عصائبُ من شتى يؤلف بينهم	هدى الله نزالّون عند المواقفِ
إذا فارقوا دنياهمو فارقوا الأذى	وصاروا إلى موعود ما في المصاحف
فأُقتل قعصاً ثم يرمى بأعظمي	كضغث الخلا بين الرياح العواصف
ويصبح قبري بطن نسرٍ مقيله	دوين السماء في نسور عوائفِ

عدت استعرض الأبيات وأعجب كم هي قويةٌ ومعبرة.

نبهني صوت صوفي الواقفة إلى جانبي: ـ أنت هنا، كنت ذاهبةً إلى الفندق لمقابلتك.

قلت: ـ أهلاً صوفي، فاجأتني.

تضحك بغنج: ـ آه صحيح؟، لكني كنت واقفةً هنا منذ وقت ولم تلاحظ وجودي، كنت سارحاً.

قلت: ـ أبداً، أمور الدنيا التي لا تنتهي.

علقت ضاحكةً ومستغربة بينما ندخل الفندق: ـ أمور الدنيا!؟، أنتم أهل المال والرفاهية تشتكون!؟.

سهرنا في مكان أبعد قليلاً عن الفرقة وأخبرتها أني جئت أبحث عن امرأة، ثم استدركت حين انتبهت لدهشتها: ـ حتَّم علي الواجب أن أبحث عنها بعد وفاة والدها لأرى إن كانت تحتاج إلى مساعدة. تجددت على وجهها علائم الاستغراب حين طلبت منها أن ترافقني إلى بيت صبرا علَّها تحل عقدة لسان الحارسة وتأتيني منها بالخبر اليقين، أو تفهم من كلامها ما لم أفهم بفرنسيتي المتعثرة، وعدتني في آخر السهرة أن تمر بي غداً عند الخامسة والنصف مساءاً لنذهب سوياً.

كنت أتجاهل إغراءها وكيف تضع يدها الناعمة بين يديَّ، وراودتني فكرة الانسحاب من صحبتها لكن الوحدة والضجر كانا بانتظاري. وضعت في حقيبة يدها بعض المال حين رافقتها إلى التاكسي، وقلت في نفسي وأنا عائدٌ إلى غرفتي: ـ فتاةٌ أنيسة تعينني في البحث عن صبرا، فقط لو تلبس شيئاً محتشماً لا يثير فضول الناس، وتخفف الماكياج وتعدل من مشيتها قليلاً، ثم ضحكت في سري، يا لك من متطلب!.

قضيت أول النهار في الحي اللاتيني متنقلاً بين مقاهيه وأزقته الضيقة أتوقع رؤيتها بين كل اثنين يقبلان، صارت مستقرةً في خيالي لا تفارقني، أجتر الذكريات الجميلة لأوقات طويلة وأسترجع من لحظات السعادة ما فاتني في زحمة الأفراح.

كثيراً ما ضحكت على ضفاف السين وحدي، وكثيراً ما غلبني البكاء، أتخيل وجهها على صفحات الماء فيثب قلبي وتنتعش حواسي.

تسلت عمايات الرجال عن الهوى   وليس فؤادي عن هواكِ بمنسلي

أسير في الشوارع أفتش كل مكان زرناه أو أحببنا أن نزوره أو حتى ذكرناه وتحدثنا عنه حتى يعييني المشي فأركب الميترو عائداً إلى الفندق، لم أذكر لنفسي فكرة ألَا أجدها، فلم يكن أمر وجودها قابلاً للمساومة، لا بد من صبرا، وإلا فكيف ستستمر الحياة!؟.

لا أدري كيف أصف علاقتي بصوفي، ربما حال بين قلبي وبينها شيءٌ من الاشمئزاز أو الشعور بالخطيئة من صحبة امرأة تصاحب رجلاً كل يوم وتبيع جسدها من أجل المال، ربما شعرت ببعض الميل أو الشفقة، لا أدري، مشاعر مشوشة يصعب فهمها.

التقيتها في المقهى المجاور ومضينا من هناك، كانت تلبس بنطلوناً من الجينز ملتصقاً بجسدها وقميصاً زهرياً يشفُّ عن بياض نحرها وذراعيها، لم تضع من الماكياج سوى الكحل السائل وقليلاً من أحمر الشفاه، شعرت بالإحراج من نظرات الناس حين تتمايل وتضحك بصوتٍ عالٍ، وفكرت ألا أخرج معها بعد اليوم.

قلت، وأنا أشير إلى النوافذ في الطابق الرابع: ـ هذا بيت أصحابنا، وهذا اسم أسرتهم، ادَّعي أيَّ دعوى واحصلي على المعلومات من أجلي.

جلست في الحديقة أراقبها من بعيد بينما راحت تطرق الباب وتتحدث مع السيدة سكارليت.

أخبرتني ونحن عائدان أن السيد توفي في مستشفى سانت مارسيل ولا تعرف إن كان قد دفن في فرنسا، وأن الآنسة صبرا رحلت بعد

وفاته بأيام إلى جهةٍ لا تعرفها، أما الخادمة فاطمة فقد انتقلت عند أهلها في مرسيليا لكنها لا تعرف عنوانهم، قالت إن مجموعةً من العرب حضروا أيام الوفاة ثم غابوا ولم يعودوا.

خاب أملي في العثورعلى طريقها، لكني فكرت في الذهاب إلى المستشفى فقد يكون في سجلاته ما يشير إلى مكان الدفن أو عنوان شخص يمكن أن نسأله.

تعشينا في مطعم بيتزا صغير على طريقنا واستكملنا سهرتنا في نفس المكان، لم أرغب في الذهاب معها إلى النوادي الليلية رغم أنها لمَّحت كثيراً للأمر وادَّعت أن ذلك سيسليني.

بدأ شيءٌ من التعود أو الألفة يسري بيننا مع أني أتعمد ألّا ألامس جسدها، آنستني وسلت وحدتي رغم أنها صحبةٌ مستأجرة.

قالت، حين همت بالمغادرة كأنما تعتذر: ـ ملابسي هذه للنزهة وليست للسهرة..

قاطعتها: ـ ما دمنا في سيرة الملابس، أفضِّل الملابس المتماشية مع المكان والتي لا تلفت الانتباه كثيراً.

قال ضاحكة: ـ تقصد الملابس المحتشمة؟.

اكتفيت بالضحك وعدت قبل أن يغادر بها التاكسي، كان شيءٌ بداخلي تلك اللحظة يود ألّا تعود.

لم أتصل بوالدي رغم ما أخبرني سلمان، فقد كنت خائفاً أن يردني كما فعل قبل أيام، خفت من اللوم والتجاهل.

تأثرت صحته وانهارت أعصابه من أجل عوف، أما أنا فلم أعنِ له الكثير، اضمحلت العواطف بيني وبين أهلي ولم يبق من مودتهم ما يستحق أن التفت من أجله، آيسوني حتى من أمي ومن طفليَّ الصغيرين.

أخبرني سلمان، في اتصال مباغت، أن أبي قد أصيب بالذبحة الصدرية وأنه نجا وسوف يتماثل للشفاء.

انزويت في غرفتي ونذرت ليلتي للبكاء حتى آلمني رأسي وغلبني النعاس فنمت من دون أن أبدل ملابسي، لا أدري أبكيت من الحزن أم بكيت شفقةً على والدي؟ أم هو اليأس تمكن من قلبي، فقد كنت محبطاً وغاضباً في أعماقي من الجميع.

قضيت يوماً طويلاً في الجامعة حيث درست، أتنقل بين المكاتب، أسأل موظفي العلاقات والمكتبة ورابطة الطلاب العرب فلم أجد عنواناً سوى الذي أعرفه، شعرت ببعض الحرج لضعف لغتي وودت لو أحضرت صوفي حين قابلت أمينة المكتبة التي تعرف صبرا.

قالت إن صداقةً ربطتهما لبعض الوقت لكن صبرا كانت تميل إلى العزلة، وتعاني ضعفاً في التواصل مع زملائها رغم اجتهادها في الدراسة وبراعتها في اللغة، وأضافت: ـ كانت فتاة طيبة ومثقفة.

قلت في نفسي: ـ لا تصفيها، فأنا أعرف من طيبتها ومن ثقافتها أكثر مما تعرفين.

وعدتني، بعد حديث مطولٍ، أن تجمع ما تجده من معلومات وأن تسأل من عرفوها إن كان ثمة عنوان.

شعرت بتعاطف تلك السيدة رغم أنها لا تعرف أكثر من أني صديقٌ جاء يسأل عنها من المشرق، أخذت رقم هاتفي وأكدت أنها ستتصل في حال وجدت ما يستحق الاتصال، رجعت ببعض الأمل بينما يعتري قلبي من الوجد ما يعتريه.

كان خيالها يطوف أرجاء الجامعة، يطل من كل نافذة، يسيح في الممرات مع أفواج الطلاب ويتوارى في الحدائق بين الشجيرات.

عدت متعباً وارتميت على السرير فلم يوقظني إلا جرس الهاتف حين انتشلني من الحلم المزعج، رأتني مقيداً على سكة القطار يمر الناس من حولي لا ينتبهون لوجودي ولا يسمعون صراخي، كان صوتي غائراً مبحوحاً بينما يأتي القطار من بعيد، يتعالى بوقه على هيئة أجراس، أفقت مفزوعاً مختنقاً حين غشتني مقدمته الضخمة فإذا الهاتف يرن عند رأسي، أجبت من دون تركيز، وكانت صوفي تضحك على الجانب الآخر: ـ الشباب في باريس لا ينامون هذه الساعة!هل أزعجتك؟.

قلت: ـ لا، أبداً، كم هي الساعة؟.

قالت: ـ التاسعة مساءاً، وقد أعدت الاتصال مرتين حتى أجبتني، هل ستنزل؟.

نزلت بعد بعض الوقت فوجدتها منهمكةً في التدخين، كانت ستبدو فاتنة لو لم تكن فتاة ليل، تبدو لمن يصادفها واثقة وسعيدة لكنك تكتشف الاهتزاز والبؤس ما إن تحدق في عينيها الجميلتين المرهقتين، ثمة مشكلةٌ أخرى، فصبرا هي المثال الذي أقيس عليه من دون وعي، وقد أصادف من أشتهي من النساء لكن ليس من أحب سواها.

جلسنا نستمع للموسيقى ونتحدث كيف قضى كلٌّ منا يومه، راحت تدخن وتشرب وأنا أراقبها وأرفض عروضها المتكررة ببعض الشراب، تمسك بيدي وتناديني حبيبي بين حين وآخر فأتجاهل تقربها، وأتحاشى أن تلتقي نظراتنا، لم تطرق باب قلبي ولم أكن راغباً في جسدها حتى تلك الساعة.

كنت أعبر بصحبتها زمني الرديء وأهرب من الوحدة والتفكير الذي أنهكني، حاجتي لمن يرد صدى صوتي وحاجتها للمال جمعتانا

حول تلك الطاولة، كنا مثالاً لما يسمى تقاطع المصالح، ورغم كل هذا فقد تجاوبت معها حين وضعت يدها على كتفي ومالت تدندن مع الفرقة.

طلبت منها أن ترافقني إلى المستشفى لنبحث عمّا قد يفيدني في سجلاتهم، فأجابتني: ـ ما عساها أن تكون حبيبتك هذه!؟.

لم أكن متأكداً أنها ستتذكر الموعد، فقد كانت نصف ثملة حين أمسكت بذراعها أساعدها في ركوب التاكسي.

ذهبت وحدي حين لم تحضر، قلت في نفسي: ربما أثقلت رأسها الخمر أو أدركتها غيرة النساء فكرهت أن تبحث لي عمَّن تظنها حبيبتي.

وجدت في المستشفى موظفاً جزائرياً شرح لي ما قالته مسؤولةُ العلاقات العامة: ـ بقي الجثمان مسجى في عهدتنا لعدة أيام حتى جاءت ابنته بصحبة رجلين وسيدة واستلموه.

قلت: ـ هل تعتقدين أنه دفن في باريس؟.

قالت: ـ لا أظن ذلك، فقد جرى تحنيط الجثمان، بناءاً على طلب الفتاة.

قلت: ـ من الذي وقع على استلام الجثمان؟.

جعلت تقلب الأوراق وأنا أتابع حتى وقع نظري على توقيع صبرا الذي أعرفه.

قالت: ـ ابنته، تدعى صبرا.

رف قلبي حين رأيت توقيعها، وسألت إن كان بإمكاني معرفة وجهتهم، فتبسمت مستغربة وهي تنظر إلى الشاب الجزائري الذي تبرع بمساعدتي فقال: ـ السيدة تجاوزت معك فيما أخبرتك سابقاً فمسؤوليتهم تنتهي عند تسليم الجثمان.

قام، وهو ينظر إليَّ، فقمت وفي نفسي أن أسأل المزيد.

رحت أمشي متثاقلاً عبر الشارع والتفت إلى المستشفى الأبيض الكبير، يا إلهي!، تضاءل أملي وأغلقت الأبواب في وجهي.

ذهبت إلى مكان قريب على ضفة السين حيث يلتقي المحبون، ينتظر العشاق على المقاعد الممتدة على طول الرصيف حتى يظهر أحبابهم من زحمة الشوارع، يتجملون بالابتسامات والورود فتتعاقب الأيدي وتتهامس الشفاه ويمضي الجميع لأبقى وحيداً، رقم مفرد لا حاجة له في هذا المكان، شعرت بالضجر وحاصرتني رغبةٌ في البكاء وقت المغيب فحملت همومي وعبرت الشوارع، لا أسوأ من باريس لشخصٍ وحيد.

فوجئت بصوفي تنتظرني في البهو، ما إن رأتني حتى وثبت فطوقتني بذراعها وقبلت خدي وهي تعتذر، بقيت صامتاً على العشاء أتأمل لون شعرها الجديد بينما راحت تثرثر من دون توقف، غلبها النوم ثم نسيت حقيبة يدها في الميترو وقصة الرجل الذي قال لها أوقعت قلبي يا فتاة.

كانت تفصل حكاياتها بنكتة أو بمقطوعةٍ تدندنها وهي ترتشف النبيذ بتلذذ وفرح.

أتساءل: ما الذي يبقيني صابراً على حبٍّ مزيف ومتجاهلاً نظرات الناس، ما الذي يجعلها رخيصةً في نظري؟، ألأنها تذل نفسها من أجل المال؟ أم لأن رجالاً كثيرين عبروا جسدها لا أدري متى كان آخرهم مروراً؟، ماذا لو لم أعلم حقيقة أمرها، أكنت سأتقبلها وأفرح بصحبتها؟.

اعتذرت مرةً أخيرة عندما أخذنا مكانينا قريباً من الفرقة، حاولت أن أثنيها عن المزيد من الشراب بينما يتمادى في عينيها الجموح.

كان بعض قلبي يدفعها وبعضه يشدها ويتشبث بها، قمت متردداً معها إلى الغرفة، وما إن دخلنا حتى شبكت يديها خلف عنقي وقبلتني قبلةً مكتظةً بطعم الخمر ورائحة الدخان، تركتها جالسة على الكرسي ودخلت الحمام لكني فوجئت بها شبه عارية حين خرجت، فانطفأ ما كان قد اشتعل في جسدي من الرغبة مثلما ينطفئ السراج، اقتربت منها ولامست جسدها الناعم النحيل بدوافع لم تكن أشدها الرغبة، كنت متوتراً ومشوشاً من كل ما يحصل لي.

قامت فالتقطت ملابسها من الأرض ومن الكرسي حين أدركت حالتي وكانت نصف واعية، طلبت القهوة وجلست تدخن قرب النافذة، لم تتكلم بكلمةٍ واحدة إنما اكتفت بالنظر إلى التلفزيون الذي كان صورةً من دون صوت، ثم قالت، وهي تتناول القهوة المرة من دون أن تنظر إلي: ـ انتبه لا يصيبك البرد، فأنت متعرق.

قلت كمن يعتذر: ـ لا عليك، ربما أكون متوتراً قليلاً. وكبر عليَّ أن أخبرها أن ابتذالها هو ما يصدني عنها.

عندما يفقد الجنس خصوصيته وهيبة مراسمه يصبح وظيفةً مملة لا لذة فيها ولا إثارة، صحيحٌ ما يقال «الحياء جمال في المرأة».

جلست على الكرسي المقابل أحاول شرب القهوة بينما تغالبني الرغبة في التقيؤ، واستمرت هي تتابع التلفزيون رافعة قدميها الحافيتين على طرف السرير.

قالت، بعد فترة صمت: ـ عمار، ما هي قصتك؟ أنت من جلس وتحدث معنا ورغب في الصحبة، هل أنت معقدٌ من النساء؟.

قلت: ـ أبداً، مزاجي الليلة غير معتدل.

الحقيقة أني وجدت الأمر في غاية الصعوبة، فلم أنم، بعد الزواج، مع امرأة سوى زوجتي لكن لا أدري لماذا لم أخبرها، ربما كانت ستضحك مني!.

قاطعت أفكاري: ـ عمار، هل تعتقد أني امرأة من دون إحساس أو من دون مشاعر، لا يا سيدي، نحن نقرأ نظرات الناس وندرك مدى احتقارهم حين يمضغوننا ثم يرموننا في العراء، نشعر بالألم ونعاني من قسوة العالم لكنها ظروف الحياة دفعت بنا نحو ما ترى، كم هو صعب أن نشرح مآسينا لكل من نصادف، أكره نفسي كل ليلة أخرج فيها متبرجة أعرض نفسي على الأغراب، يملأ قلبي خوفُ مفاجآت المدمنين والساديين والشذاذ.

قلت: ـ لكن أعتقد أن لك مكاناً في الحياة أفضل مما أنت فيه، ما تقمن به هو استسلام وهوان.

لا أدري ما الذي أيقظ الحس الناصح في قلبي، أهي الشفقة عليها أم الخوف منها ومن نفسي، أم هي مبادئنا الدفينة في أعماقنا تحول دون المتع فتحولها إلى جحيم نتهافت عليها مثل الفراشات.

ساد الصمت لبعض الوقت قبل أن تتناول حذاءها وتطيل الانحناء لتربط خيوطه المتشابكة.

يوم عاتبت الحضارة.

قالت إن أمها لا تقطع الصلاة.

وأن والدها مات لا يعرف الحرام.

زعمت إن إخوتها يمرون بالأخطاء ولا يقارفونها.

وانحنت.

وأسدلت شعرها كالليل على وجهها.

رأيت الكحل يسيل على خدها.

مسحته بمنديلي..

وكلمتها، وكلمتها..

لكنه عاد يسيل.

وبين عجزي ورهبة حزنها..

حاصرتني عبرتي.. وبكيت.

قلت، معتذراً حين رأيت دموعها: ـ أنا آسف إن كنت جرحتك، لم أكن أقصد الإساءة، كنت فقط أقول الحقيقة.

قالت، وهي تمسح الدموع من دون أن تنظر إليَّ: لو كان ما قلته باطلاً ما آلمني، ألم تسمع «ليس هناك ما يجرح أكثر من الحقيقة».

نظرت في عينيَّ عند باب التاكسي وعانقتني بينما أدس في جيبها بعض النقود: ـ أزعجتك، أليس كذلك، تصبح على خير يا حبيبي.

كدت أصرخ: ـ يا لك من بائسةٍ لم تعرفي يوماً طعم الحب!. لا تستجديه، فالحب لا يستجدى يا سيدتي، لا تدنسي الكلمة أرجوك، لا أحبك، إنما أحتمي بك من الضجر والوحدة.

لكني تفاديت جرح مشاعرها من جديد، يمكننا أن نستجدي المال أو العطف أو حتى الشفقة لكن ليس الحب.

عدت إلى غرفتي مرهقاً مشتت الذهن، أستغرق في حب صبرا وأطير مع طيفها، ثم أنتبه إلى ما تبقى من نداء جسدي، ما الذي يمنعني من المتعة مع فتاةٍ حضرت بملء إرادتها، إن لم تنم في سريري فسوف تنام في سرير رجل آخر، ما الذي يحول دونها، أهي المبادئ القديمة، أم الخوف من أمراض العصر، أم هي الكبرياء وقناعتنا بحبنا الخاص الذي لا تشاركنا فيه الأيدي ولا العيون؟.

باتت خارج خيالاتي بل ربما رغبت ألا تعود مجدداً.

صار لي ما يشبه العادة، ما إن أصبح حتى أحمل همومي وأتنقل

بها بين الأماكن التي كنا نعتادها، أطوف الشوارع يحدوني أمل أن أراها أو ألمح طيفها حتى تأوي الطيور إلى أعشاشها فأعود متعباً إلى غرفتي.

مرت بضع ليال طبعتها الوحدة قبل أن تظهر صوفي من جديد، ذلك المساء حين حاصرني الملل وشعرت أن الغرفة قد ضاقت أكثر من ذي قبل، بدلت ملابسي في تواطؤٍ مع رغبةٍ خفية يبررها تمضية الوقت وقتل الضجر.

كانت تجلس في نفس المكان الذي رأيتها فيه أول مرة، بملابس أبهى وأكثر إبرازاً لمفاتنها، وبتأثيرٍ مما أعاني تناولت كأسي الأول في لحظة هروب من المصير الذي انتهيت إليه من دون أن أفكر بشيء أو أتذكر شيئاً، كأنما كنت في دوامة.

بات الأمر أكثر سلاسة بعد الكأس الثالثة، فأكملنا سهرتنا في الغرفة ولم أستيقظ إلا ظهر اليوم التالي فإذا هي ممدة قربي على السرير، استغربت لأول وهلة وقلت في نفسي: ـ يا إلهي!. ما الذي جاء بها؟ ما الذي فعلته بنفسي؟.

كانت مستغرقةً في النوم وعلى الطاولة آثارٌ من بقايا ليلتنا الماجنة.

قمت متحاشياً النظر إلى المرآة وجلست قرب النافذة بعدما فسحت المجال لبعض الضوء والهواء، جلست أنظر إليها يعتصر الألم قلبي.

حاصرني البكاء فسالت دموعي: ـ يا إلهي!، ما الذي فعلته بنفسي وكيف خسرت سلطاني على جسدي، ها قد انزلقت عن مبادئي مرةً أخرى، كم أنا بائسٌ.

شعرت بالندم وبالعار يجللني كأنما يصيح بي آبائي الصالحون من قبورهم، شعرت أن قلبي صار بحراً من الخطايا.

لم أعد أكثر من بائسٍ يطارد بائعات الهوى، يستأجر أجسادهن المنهكة ويختبئ عن معضلاته خلف زجاجات الخمور.

شعرت كأن راسي مغمور تحت الماء من الدوار، فقمت أبحث عن الأسبرين، استيقظت على صوت الأدراج الخشبية عند رأس السرير، ألقت تحية الصباح من دون أن تنظر إليَّ وقامت نحو الحمام.

أصلحت من وضعي وأشعلت السيجارة الأولى وأخرى مضى أكثرها قبل أن تعود لتلاحظ وجومي وربما أثر البكاء على وجهي المرهق.

قالت، وهي تسرح شعرها على المرآة: ـ عمار، لا تبدو سعيداً بما حصل البارحة!؟.

قلت: ـ بل أنا حزينٌ، حزن من استسلم إلى ما كان يأبى.

قالت، وهي ترسم ابتسامةً صفراء، وتجلس مقابلي وتتناول علبة السجائر: ـ أنت تائهٌ حقاً لا تعرف ما تريد.

تركت حقيبة يدها مفتوحة على الطاولة حين تناولت منها بعض الأقراص، وكان يبدو من أحد جيوبها بطاقة هوية عليها صورتها.

قلت، بينما أتناول البطاقة: ـ أتسمحين؟.

قالت، وهي تضحك بتثاقل: ـ لا، أرجوك.

كانت البطاقة قد أصبحت أمامي فنظرت إليها قبل أن أعيدها قائلاً: ـ مليكة، اسمك مليكة، لماذا تقولين أن اسمك صوفي أم أنكن تتخذن أسماء للشهرة مثل الفنانات أم تراه..

قاطعتني، وهي تعدل جلستها وتنظر عبر النافذة: ـ أسماؤنا هي

ذنوبنا وإداناتنا المسبقة التي نحمل وزرها في هذه البلاد، وسكتت بينما تغالبها دمعة.

قالت، بعد لحظات صمت: ـ أنت نادم على وجودي معك، أليس كذلك؟.

سكتُّ، فقامت قائلة: ـ كنت أعرف أنك ستندم وقد تلومني رغم ما أفعله من أجلك، هكذا أنتم، تسعون خلف المتعة لاهثين ثم تندمون في الصباح وتفتشون عمَّن تلقون عليه باللوم وبتبعات أعمالكم كأنما تكذبون على الله.

ثم أردفت، وهي تلتفت لتتفقد إن كانت قد نسيت شيئاً من أغراضها: ـ عليك أن ترى الطبيب، أما أنا فقد كنت مخطئةً في وجودي معك.

قضيت بقية النهار وحيداً في الحديقة القريبة هارباً من سياط الندم ومرارة الشعور بالعار، حسدت تلك الساعة رجالاً يتنصلون من ذواتهم لحظة الخطيئة ثم يعودون كأن شيئاً لم يكن، ربما كان ذلك الشعور جنوناً لكني حسدتهم!.

عدت إلى غرفتي فاحتبست ثلاثة أيام لم أخرج خلالها إلّا قليلاً داخل الفندق، تضايقت حلقة الكآبة من حولي واسودت الآفاق حتى بدا الموت أفضل نهاية لرجلٍ مثلي عجز أن يكون زوجاً صالحاً أو أبا صالحاً أو حتى حبيباً صالحاً، شعرت بالبؤس الشديد وبدأت فكرة الانتحار تتسلل إلى قلبي، وقفت أنظر من نافذتي وقت الفجر، وكان الشارع مبللاً من أثر المطر وخالياً إلا من القليل من المارة وعمال النظافة.

تذكرت وأنا أتأمل المكان والزمان قول المجنون: ـ

أظن هواها تاركي بمضلةٍ من الأرض لا ماءٌ لديّ ولا أهلُ
ولا أحدٌ أفضي إليه وصيتي ولا وارث إلا المطية والرحل
محا حبها حب الألى كن قبلها وحل مكاناً لم يكن حُل من قبل

ماذا لو أنهيت مسلسل العذاب ووضعت حداً لحياةٍ فاشلةٍ لم تكتسب خيراً ولم تفد أحداً، أليس الأجدر بالفاشلين أن يغادروا، فيم أقيم وحدي وقد ذهب ما يهمني من هذا العالم، لم لا أحرر روحي من القفص الضيق وأطلقها مثل حمامةٍ بيضاء تحلق في الفضاء الرحيب.

هل ستولد حقاً في جسدٍ جديد كما كان يحلو لصبرا أن تقول.

وقفت مراتٍ عديدة أتأمل الشارع وأتخيل لحظة الارتطام وانبثاق الدماء وكيف ستسمو روحي عالياً فوق الأشجار وفوق الشوارع، تستغرقني لحظات التأمل وتشدني رغبة الخلاص لكني أتقهقر عند آخر لحظة حين لا يبقى سوى إمالة الجسد الفاني نحو الفضاء.

لا أدري ما الذي يوقفني؟ أهو الخوف من النار وسوء العاقبة أم هو أملٌ ما زال يومض في قلبي مثل سراجٍ بعيد؟ أم هي المقاومة الفطرية للموت حتى وإن آمنا أنه الخلاص.

أين أنت صبرا؟، لو أعلم يقيناً أنك في الطرف الآخر لعبرت إليك، لا أهاب العبور!.

خرجت بعد فترة الاحتباس أطوف الشوارع لا يشاغلني سوى فكرة الموت، تستحثني الهاوية وتناديني وأنا أستجيب وأنظر بعيون قلبي حتى سيطرت عليَّ رغبة الخلاص وتلاشت مقاومتي فلم يبق إلا أن أجد الطريقة المثلى.

أردتها أن تكون لافتة، أردت أن يجتمع المارة ويتجمهر الناس حول جسدي المحطم ويتحاشون دمي السائل فوق الرصيف، أردت

أن يسمع العالم قصتي وأن يسألوا عمَّن دفعني نحو هذا المصير.

تخيلت نهلة تذرف الدموع وهي تنظر إلى طفليها وتقف لحظات التأمل التي لم تقفها من قبل.

سوف يؤلمني حزن والدي الصامت حين يجتمع عليه همي وهمُّ عوف في وقت واحد، آه.. يا لوالدي، كيف لم نجد لغةً نتفاهم بها كأنما ندور في أفلاكٍ لا تلتقي.

تحاشيت التفكير في أمي وفجيعتها، فلا طاقة لي على ذلك.

من سيرعى صغيريَّ من بعدي وفي أي بيت سيكبران؟، ترى هل سيخجلان بذكري؟.

ستنذر صبرا عمرها للحزن والدموع حين تعلم أني لم أتغيرعن عهدها وأني خلَّدت ذكراها وكتبت رسائل عتابها بمداد دمي على طريق العاشقين.

ستطلع عناوين الصحف: ـ «شاب عربي يلتحق بضحايا الحب في باريس» و«سائحٌ عربي ينتحر بعدما ترك رسالة وداع لحبيبته الغائبة».

ستعلم صبرا، حتماً ستعلم وستبكي باحتراق، قد تشق جيبها، وقد ترمي بنفسها على الأرض مثل الأطفال، ومن يدري فقد تلقي بنفسها من نافذتها وتستعجل اللحاق.

اتصل عامر يخبرني أن والدي محتبسٌ في داره لا يكلم أحداً مذ علم أن عوف يجاهد في الشيشان ولا يريد العودة، هش قلبي لسماع صوته لكن لم يكن لي من أمل، أغلقت الهواتف والأبواب والقلوب في وجهي، عنِّفتُ وضُربت فما عدت قادراً على تحمل المزيد.

في لحظة يأس، كدت ألقي بنفسي من فوق جسر ميرابو، ويا له من مكان، لكني تراجعت لسببٍ لا زلت أجهله، وقفت طويلاً على

السياج فلم أستطع، ربما كان سيناريو النافذة يسيطر على خيالي.

اشتد الأرق فلم أنم ليومين أو ثلاث إلا لحظات متفرقة على الكرسي حتى أرهقت تماماً وأصبحت أمشي بين النائم واليقظان، قررت أن أكتب رسالتي قبيل الفجر، فقد بدت اللحظة الحاسمة وشيكة جداً.

«إلى المرأة التي ألهمتني فأحببتها كما لم أحب يوماً.

وحده الموت سيوقفني عنك أو يجمعني بك أما ما سواه فلا، إذ لا معنى لحياتي حين لا تضيئها ابتساماتك.

صبرا.. لمَ رحلت من دون أن تسمعي مني؟.

كيف صدقت ما يقال ولم تنتظريني لتكتشفي الحقيقة؟.

ربما قصرت أو تراخيت لكني لم أخن عهدك ولم أتغير.

لقد أكمل بعدك من صياغتي ما كان بدأه قربك يوماً.

ابتسمي حين تزورين قبري فسوف أكون مسروراً بزيارتك.

اقتربي، لا تخافي، فلطالما تمنيت أن تكوني قريبة، ولطالما تمنيت لو اكتمل مشروع سعادتنا، لكنها الأقدار.

أتذكرين يوم اعتزلت الخروج وقلت إنك تعاتبين العالم على طريقتك؟.

ها أنا اليوم أعاتب العالم الذي حرمني منك على طريقتي أيضاً.

فوداعاً يا أعز الناس».

بدأت أتآلف مع الخمر وأقضي الساعات معاقراً كؤوسها بينما تتمكن رغبة الخلاص من قلبي ساعةً بعد ساعة، ولَّت أيام السعادة ولم يبق في المستقبل ما يستحق الانتظار.

فكرت في أقراص الفاليوم، ثم عدلت عنها وهممت بقطع شراييني

في البانيو لكن سحر النافذة كان يشدني، أقضي الليل مستلقياً أنظر إليها تناديني وتستحثني.

حزمت أمري، وحددت صباح الجمعة موعداً حاسماً لا رجعة عنه، الجمعة ترمز إلى النهاية ولها عندنا خصوصية بين الأيام.

بقي الآن يومان كاملان يكفيان لكتابة الرسائل، لكن لمن سأكتب؟ لوالدي أطلب عفوه ومسامحته؟ ربما، لسلطان وعمر أوصيهما بأمي التي حرمت من قربها، وليدركا كيف كانت الأمور حين يكبران فلا يخجلان بذكري.

خرجت صباح الخميس أستنشق الهواء البارد الرطب وأتعب قدميَّ علّي أغفو قليلاً، فلم يغمض جفني منذ أمد.

مشيت من قبل طلوع الشمس بوقتٍ طويل حتى مررت في أحد الشوارع الخلفية في طريق عودتي بمحل صغير يبيع الفاكهة، فسمعت صوتاً عَبَر إلى قلبي رغم ما يصم أذنيَّ من تأثير الخمر والأرق، توقفت بعدما تجاوزته وعدت أمشي الهوينى يشدني الصوت ويزداد طرقاً في أعماقي، كان عبد الباسط يقرأ من سورة النور بصوته الندي مع الصباح الباكر، دخلت فإذا شاب نحيل، أسمر البشرة من الجنسية المغاربية، ينظف ويرتب الفاكهة ويجيبني من دون أن ينظر إلي: ـ بماذا أخدمك أيها السيد؟.

كنت أبحث عن حجةٍ للتوقف فقلت: ـ بعض الفاكهة.

سكت الشاب وواصل عمله بينما رحت أنتقي على مهلٍ حتى باغتني بالعربية: ـ أنت من الخليج؟.

قلت: ـ نعم، وأنت من المغرب؟.

ابتسم، وهو يردد: ـ نعم، نعم.

قلت، وما أزال أتحسس الفاكهة: ـ جئت هنا للعمل؟.

قال: ـ نحن هنا للعمل وطلب الرزق، وأنتم للسياحة.

قلت، بعد مهلة سماع: ـ المعيشة في هذة البلاد مكلفة، كيف تتدبرون أموركم؟.

قال: ـ لا ينسى ربك أحداً من رزقه.

قلت: ـ وبعيدون عن أهلكم.

قال: ـ لا بد من الصبر يا سيدي.

كان يبتسم طوال الوقت تشرق على وجهه علائم الرضا رغم الفقر والغربة ورغم دكانه الصغير.

لحق بي ينادي: ـ سيدي، نسيت بقية نقودك.

قلت: ـ خذها، هي لك فأنا لا أحتاجها.

قال: ـ شكراً، لا أريدها.

قلت: ـ يجب أن تأخذها.

قال بنبرةٍ حادة: ـ أنا أعمل هنا، لا أتسول ولا أقبل الصدقة، خذ مالك، أرجوك.

وقفت أنظر إليه يضعها في يدي ويعود مسرعاً يجيب إحدى السيدات.

عدت إلى الفندق فصادفت صوفي عند المدخل بصحبة عربي مسن من النزلاء الجدد وقد انفرد عنها يتحدث مع أحد الموظفين.

بادرتني: ـ كيف أنت سيد عمار؟، أما زلت تقيم هنا؟.

قلت: ـ ما زلت أسكن هنا، وبخير مثلما ترين.

قالت، بلهجةٍ لا تخلو من سخرية: ـ ألم تجد أصحابك؟.

قلت: ـ قريباً سأجد ما أريد.

نظر إليَّ صاحبها شزراً وهو يأخذ بيدها.

وقفت أنظر إليهما متظاهراً بالجبروت بينما لا تضم أضلاعي سوى الضعف والضياع، هكذا عاودتني رغبة الخلاص.

أمضيت بقية الوقت بين البار والمقهى ثم صعدت آخر الليل واستلقيت بانتظار الفجر، تذكرت الصلاة التي نسيتها منذ زمن فأحببت أن أختم بها.

تراءى لي منظر صوفي تستعرض وجوه الرجال وهي ممسكة بيد المغفل الجديد، ثم أراحتني صورة الشاب المغربي وعزة نفسه، ورحت أتذكر أحداث اليوم، آه.. ترتيل عبد الباسط كم كان عذباً، ماذا لو سمعت شيئاً من القرآن، فلم يتبق سوى ساعات.

قررت أن ألقي بنفسي عند السابعة صباحاً، كنت عازماً، أو حتى مستعجلاً، لذا اغتسلت وغلفت رسائلي ولم يبق سوى أن أسمع شيئاً من القرآن، تمددت شبه مخدر استمع إلى قراءة الحصري على أحد القنوات العربية.

مر شريط حياتي مشوشاً أمام عينيَّ، طفولتي المصادرة بعيداً عن أمي، ضعفي بين أقراني وما عانيته أيام الطفولة والمراهقة، اهتزاز ثقتي بنفسي وبكل من حولي، زواجي المتعثر من يومه الأول، نهلة وكيف كانت تعاملني بازدراء، ورفَّ قلبي لصورة ابنيَّ حين تذكرتهما.

صبرا، آه صبرا، لم يعد من أمل، لا أدري كم استغرق الخيال حتى أخذني الصوت الرخيم يرتل سورة الإسراء، يدوي في مجاهل أعماقي وأنا مستلقٍ بين النائم واليقظان كأنما تستمع روحي فتتماوج وتردد الصوت الذي أشعر به يسري في كل جسدي.

استغرقت في النوم، فرأيتني مريضاً ممدداً على أرجوحة، تجلس أمي قريباً مني تقرأ عليَّ بصوت الحصري، تضع يدها على رأسي وتخلل أصابعها في شعري وتتقاطر دموعها على وجهي وعنقي.

أفقت بصعوبة، كأنما فقدت الذاكرة، أو كأنما أُلقي بي في بئر عميق، قمت أبحث عن الساعة فوجدتها قد تجاوزت الرابعة عصراً، وقفت لبعض الوقت على النافذة استجمع أفكاري، كنت في حالةٍ مختلفةٍ عن حالتي البارحة، ليست أفضل، لكنها مختلفة بالتأكيد.

شعرت كأن السكينة واللامبالاة قد سيطرتا على عقلي.

جلست بعدما دخنت سيجارتين أو ثلاث، وبعدما أعياني الوقوف وكان التلفزيون ينقل صلاة المغرب من مكة، رحت أتابع الصلاة والطواف فشعرت بحنين جارف صوب تلك الأرض، وعبرت خدي دمعةٌ حارة.

ما الذي يمنعني من الذهاب إلى البلاد التي جبل قلبي من ترابها؟.

لماذا أموت غريباً هنا في الأرض التي لا تعرفني؟.

بقيت حائراً متردداً ليومين طويلين حتى أضناني التفكير.

ليست سوى لحظة إصرار لترتاح وتنهي المأساة، لا، لا، عُدْ إلى أرضك الدافئة، إلى حيث تهيم روحك وافعل بنفسك هناك ما تشاء.

خرجت بعد مخاضٍ عسير أبحث عن مكتب الخطوط، فحصلت على مقعدي في اليوم التالي من دون عناء، إذ ليس من الصعب الحصول على مكان في الطائرات المتجهة إلى الخليج في هذا الوقت من السنة.

مضيت إلى المطار من دون أن التفت أو أودع أحداً، كرهت هذه

المدينة القاسية، كرهتها بقدر ما أحببتها وبقدر ما طفت شوارعها بائساً وحيداً.

جلست إلى جواري، على الطائرة المتجهة إلى جدة، سيدةٌ محجبة في العقد الخامس أو السادس من عمرها، تحمل مسبحةً طويلة من الخشب تتحدث مع زوجها الذي يجلس أمامنا بالفرنسية ثم تعود لتستغرق في قراءة كتيبات العمرة، سألتني، حين تحققت من ملامحي، عن بعض المناسك فادعيت عدم المعرفة، والحقيقة أني لم أكن راغباً في الحديث، كان رأسي ثقيلاً من أثر الخمر، فأمضيت الرحلة نصف واعٍ حتى اقتربت الطائرة من السعودية، وبدأ الكثيرون في لبس إحراماتهم البيضاء ولجوا بالتلبية والتكبير فاقشعرَّ جسدي!.

واجهنا الحر والرطوبة الشديدة حين نزلنا من الطائرة، وكانت الساعة قد تجاوزت الثانية ظهراً، تفرق الركاب بعد أن تجاوزوا حواجز الجمارك كلٌّ في اتجاه، ذهب البعض مع مندوبي الشركات الذين اصطفوا يحملون اللافتات بأسماء ضيوفهم، وارتمى آخرون بين أيدي مستقبليهم من الأهل أو الأصحاب، ومضيت نحو موقف سيارات الأجرة.

ألقيت بأمتعتي في صندوق السيارة البيضاء التي أشار إليها الموظف وركبت بعد أن دفعت الإيجار إلى مكة.

التفت إليَّ السائق، بعدما تجاوزنا بوابة المطار وسألني: ـ إلى أين في مكة؟.

قلت: ـ هاه، إلى الحرم.

قال مستغرباً: ـ تريد العمرة؟.

قلت: ـ نعم.

قال: ـ إذاً، لماذا لست محرماً، كان يجب عليك الإحرام عندما حاذيت الميقات قبل أن تصل إلى المطار.

كان السائق الباكستاني يتكلم العربية بلهجة أهل الحجاز، ويبدو أنه تعوَّد إرشاد الزوار الجدد والتائهين من أمثالي.

قلت، وأنا أعدل جلستي: ـ ما العمل الآن؟.

قال ضاحكاً: ـ يجب أن تذهب إلى التنعيم، هل معك إحرام؟.

قلت، بينما أنظر إلى المباني الجميلة التي بدأت تتراصف على جانبي الطريق: ـ ليس معي إحرام..

قاطعني: ـ يبدو عليك التعب، لماذا لا تذهب إلى الفندق في جدة وتؤدي العمرة بعد أن تستريح.

قلت: ـ حسناً، هذا أفضل.

أخذني إلى فندق من الدرجة الثالثة في منطقةٍ شعبية مزدحمة في وسط البلد، صعدت إلى غرفتي المطلة على الشارع المكتظ بالناس وبالسيارات، الرجال هنا لا يلبسون سوى البياض بينما تلتحف النساء بالعباءات السوداء كأنما لا تكفيهن الشمس الحارقة!.

رأيت من مكاني بائع الفول ينادي في الأسفل وهو يقلِّب جرة النحاس الكبيرة فتذكرت الجوع، نزلت من دون أن أبدل ملابس السفر وأخذت صحناً صغيراً مع نصف رغيف من التميس الأفغاني الذي افتقدت طويلاً، وجلست ضمن الجالسين على الكراسي الطويلة المتقابلة في الشارع، ثم عدت إلى الغرفة ووقفت على النافذة التي تركتها مفتوحة أتأمل أفواج المزدحمين في الشارع النابض بالحياة.

جدة بوابة الحرمين المشرعة على العالم، مدينةٌ متعددة الأعراق والثقافات، عمَّرها الحجاج والزائرون، وجاءت بساكنيها رغبة

الجوار من كل الجهات، بلاد ودودة لا يستغرب أهلها لغةً ولا لوناً من الناس.

وقفت على تلك النافذة وبكيت حتى بلل الدمع عتبة الرخام الأبيض تحت مرفقي، بكيت على نفسي وما آلت إليه أموري، بكيت عندما افتقدتها وتيقنت ألّا أمل في لقائها حين أصبحت بعيداً جداً عن المكان الذي حلمت أن ألتقيها فيه.

عاودني الشعور بالحاجة إلى الشراب لكنني تجاوزت الرغبة، فلاسبيل إليه هنا، كنت تائهاً مشلول التفكير غارقاً في دوامة الحزن والكآبة بعدما تيقنت من خسارتي.

تصورت أني كنت أفضل حالاً حين كنت على وشك الانتحار وعاودتني الرغبة من جديد، قلت في نفسي: ـ يا لك من جبان، تقهقرت عن الخلاص!.

مضى الوقت طويلاً مملاً وأنا أتقلب من دون أمل بغفوة، نزلت قبيل المغرب إلى السوق القريب واشتريت الإحرام، ثم اغتسلت واتشحت به وحملت حقائبي أنتظر صاحب التاكسي الباكستاني يوصلني إلى التنعيم.

كنت أكتفي بسؤال من يليني عما قد أكون نسيته من أمور المناسك، وصار الوصول إلى الحرم والارتماء تحت جدار الكعبة كل ما أفكر فيه هرباً من ثقل الانهيار.

خيل إليَّ أن صوتاً يناديني ويشد قلبي من جذوره صوب الأرض المقدسة فلا أملك سوى الانقياد، ليست لي رؤية للمستقبل ولا أدنى فكرة عما سأفعله غداً أو بعد غد.

كنت في حكم المنتحر، لا أنتظر شيئاً ولا أحلم بشيء!.

أمضيت معظم الطريق مطرقاً عاجزاً عن التفكير سوى أن قلبي كان يلبي، أكاد أسمعه!.

ظل السائق يثرثرعلى طول الطريق ويضحك، وينظر إليَّ باستغرابٍ بين الحين والآخر.

وصلنا مكة أول الليل فألقيت بحقائبي في أحد الفنادق القريبة، وانطلقت ماشياً عبر الشارع الضيق وسط ضجيج الباعة الذين فرشوا بضائعهم على الأرصفة، وكان الناس يسيرون في الاتجاه المعاكس خارجين من صلاة العشاء.

مشيت ما يقرب من عشر دقائق قبل أن أشرف على الحرم فجأةً من مكان مرتفع فتهولني الأضواء والمآذن الشامخة.

توقفت عند أعلى المنحدر المؤدي إلى الساحة الشاسعة حول الحرم، وللناس دويٌ مثل دوي النحل، شعرت بالقشعريرة تسري في جسدي وبالغصة تخنقني، وأخذتني هيبة الموقف والمكان.

طفت بعيداً عن الكعبة بسبب الزحام، ثم صليت ركعتين خفيفتين خلف المقام ومضيت إلى المسعى، كان معظم ما رددت تلك الليلة «لا أله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين» كأنما لا أعرف أو لا أتذكر غيرها!.

وجدت لذةً في ترديدها مع أنها لا تحمل أيَّ دعاء، ليست سوى تسبيح وتنزيه وانكسار، ربما لم أكن محتاجاً لأكثر من هذا، أما الدعاء فلم أكن لأعرف ساعتها ما أريد!.

انتهيت من العمرة بعد منتصف الليل منهكاً موجع القدمين، وعدت إلى صحن المسجد بعدما حلقت الشعر الذي طالما اعتنيت به. جلست على عتبات الدرج حتى خف الزحام وهبت نسمات آخر

الليل الرقيقة فاتكأت على الجدار المواجه لحجر إسماعيل ومددت رجلي المتعبتين، وسرَّحت خيالي أتأمل أحوال الطائفين.

هؤلاء السمر من أفريقيا وذاك الأشقر من أوروبا، هذه التي تحمل طفلها فوق عاتقها من الهند أو الباكستان، وتلك من مصر أعرف لهجتها حين تنادي صاحباتها.

الناس هنا سواء لا يتفاضلون بأموالهم ولا بألوانهم ولا بمنازلهم الاجتماعية، يحرمون بملابس متشابهة، يطوفون بمكان واحد وينادون إلهاً واحداً لا تشتبه عليه أصواتهم.

أخذتني الغفوة فلم يوقظني إلّا النداء لصلاة الفجر، قمت فتوضأت وانتظمت في الصف، كان الجو لطيفاً تكسوه السكينة، وكنت في حالٍ من السمو نسيت معها التعب والنعاس.

قرأ الإمام ذو الصوت الرخيم سورة القيامة فارتجفت كأنما أسمعها لأول مرة، تخيلت أنها تخاطبني، وسرى ما يشبة تيار الكهرباء الخفيف في جسدي، صعدت روحي من مكانها فراحت تتماوج مع صدى الصوت العذب حين تردده المكبرات، تمنيت حينها لو طالت الصلاة.

عدت إلى مكاني، فاتكأت على الجدار أتأمل المشهد بعد الفجر وما تزال القشعريرة تسري بين جلدي وعظامي.

انهمرت دموعي وراحت تسيل على لحيتي التي لم أحلقها منذ زمن، وبقيت ساكناً مستسلماً لحالة الصفاء التي غمرتني.

تملكني بكاءٌ هادئ، وسالت دموعي من كل اتجاه، حالةٌ غريبة لم أصادفها من قبل وشعورٌ حلّق بي بين اللذة والألم.

مكثت على تلك الحال حتى أخذتني الغفوة من جديد فلم يوقظني

هذه المرة إلّا عامل النظافة الباكستاني الملتحي يلكزني بقدمه «قم يا حاج.. قم يا حاج»، تعود الناس هنا أن ينادوا كل محرم «يا حاج».

وجدتني عندما أفقت منكباً على وجهي يبللني العرق، وسطعت الشمس في وجهي حين رفعت رأسي فلم أقو على فتح عينيَّ، وما يزال الرجل واقفاً فوق رأسي يناديني!.

قمت متثاقلاً نحو الدرج القريب وعبرت جموع الناس إلى الخارج، مشيت على الرصيف الضيق متحاشياً الشمس الحارقة وزحام السيارات، ذكرتني رائحة الطعام وأصوات المنادين على أبواب المطاعم الصغيرة بالجوع، فلم أذق شيئاً منذ الأمس، تمايلت إلى أحدها وأخذت ساندوتش البيض، وتناولته واقفاً على الرصيف حين لم أجد كرسياً ثم استكملت مسيري الذي بدا أبعد منه البارحة.

دخلت الشارع الضيق الذي يقع فيه الفندق فقابلني رجل قصيرٌ أسمر البشرة كث اللحية يمشي باتجاه الحرم وينظر إليَّ، قال بلهجة الناصح حين اقترب، مشيراً بمسواكه إلى إحرامي: ـ إحرامك يا حاج، انتبه إلى إحرامك.

انتبهت، فإذا الإحرام في حال من الفوضى وقد انحسر عن معظم جسدي.

قلت في نفسي، وأنا أتجاوزه من دون أن أنظر إليه: ـ إحرامي؟، أهذا كل ما رأيت، كيف إذاً لو رأيت الشتات الذي بداخلي!.

دخلت الصالة المعتمة وطلبت المفتاح من الشاب الأسمر النحيل، فتناوله من المربع الذي يحمل رقمها على اللوحة الخشبية وألقى به على طاولة الاستقبال وهو يتحدث مع زميله خلف جهاز الكمبيوتر.

صعدت إلى غرفتي الصغيرة أتقاطرعرقاً وإعياءاً، طويت الإحرام ورميت به في الزاوية، أدرت مكيف الهواء، وكان هديره عالياً يحجب أصوات السيارات في الخارج، أغلقت الستارة ونزعت مقبس الهاتف فلم يعد له من داعٍ بعد اليوم، مددت جسدي المنهك تحت الملاءة البيضاء ورحت في نومٍ عميق...

رقم: 517 - 09